ليالي بحر يوسف

(أوراق ريفية)

مجموعة قصصية

محمد فيض خالد

بطاقة الكتاب

ليالي بحر يوسف

أوراق ريفية

مجموعة قصصية

محمد فيض خالد

رقم الإيداع : ٢٠٢٠/١٦٩٤٦

الترقيم الدولي:

٩٧٨ -٩٧٧ - ٩٠ -٧٧٧٧-٢

الطبعة الأولى

عدد الصفحات : ١٤٠

تاريخ الإصدار : أكتوبر ٢٠٢٠

المراجعة اللغوية والإخراج الفني

دار وادي عبقر للطباعة و النشر

رئيس مجلس الإدارة

جابر الزهيري

جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للمؤلف، ولا يحق لأى دار
نشر طبع ونشر وتوزيع الكتاب إلا
بموافقة كتابية من الكاتب والناشر

دار وادي عبقر

للطباعة والنشر والتوزيع

بيت الإبداع .. وموطن العباقرة

wadiabkr.wixsite.com/wadiabkr

wadiabkar@gmail.com

www.facebook/ wadiabkar

www.youtube.com/ wadiabkr/

٠١٥٥٥٥١٧٤٢٦

ت: ٠١١٤٧١٢٨٦٢٥

ت: ٠١٢٢١٤٨١٨٥٦

الإهـداء

إلى الأشجار والجسور،

إلى لوْزات القطن وحبّات التّوت،

إلى السّاقية والنّوْرج،

إلى فأس أبي..

وحجْر أمّي،

إلى عصا جدّي.

محمد فيض خالد

عزبة حسني (بحر يوسف) - المنيا

يا صاحبي ياللي بديت

بالهجر والجفا من كيفك

ونسيت ليالي زمان

وكان الود من كيفك

وعاشرت ناس واطيين

ملهمش أساس على كيفك

وتعبت وشقيت

وشربت المرار على كيفك

عاوز تفوتني يا واطي

تفكر الرجوع على كيفك

(من مواويل الريف)

الليلة الكبيرة

كان الجوّ هادئًا، بدتِ الشمسُ ساطعة على غيْر العادة مِن كلّ يومٍ بين الأفق، تبعث خيوطها على استيحاءٍ، مُنسابة تتخلّل أشجارَ الجميزْ العتيقة المتراصّة بمحاذاة الطريق الممتدّ بين الحقول، بدتْ في منظر تجلّيها وكأنّها تستطلع طريقها بعد ساعاتِ ليلٍ طويلة.

فتح بابَ منزله الخشبيّ المتهالك، تملّكه الغضبُ والنّفور من صوتِ صريره العالي، المُنبعث من ألواحِه المهترئة، أخذ يلعنُ حظّه العاثر، يستجدي الأيام أنْ تنظر إليه نظرةَ عطفٍ وحنان، وأن ترفق بفقْره الذي قطعَ منه الوتين. في عنفٍ وبلا اكتراثٍ منه، أسندَ الباب بيدِه ليستقرّ على الحائط المواجه.

قال بصوتٍ عالٍ مسموع:

ـ رحمكَ الله يا أبي، كنت تعشقُ حياةَ الفقر، وترضَى من زمانك القاسي باليسير، فلم تتركْ لنا غيرَ فقركَ؛ افرجها يا ربّ.

مدّ بصرَه خارج المنزل، كانت الحركةُ قد أخذت تسري في الدّرْب الضيق، ولكنّها خطواتٌ متوانية بعضَ الشيء قدِ اعتادها الفلاحون في هذا الأوان، تُرى.. ماذا حدث لها؟! فهذا على عكس المُعتاد، ففي مثل هذه الأوقات كانت البيوتُ تفيض بالحركة، أمّا الآن فقد خلتِ الشّوارع إلا من أبنائها المُخلصين.

صغارُ الجِراء، وبضعُ أوزاتٍ صغار يتعقّبن أمّهم، التي تلتقط حبّاتِ الذّرة المتناثرة بجوار بابِ جارهم، وعلى مقْربةٍ ربضَ الكلبُ السّمين للخواجة "فهيم" في تكاسلٍ وتراخٍ أسفلَ عتبة البيت، يأخذُ قسطه من الرّاحة بعد نُباح ليلٍ طويل، يتعقّب بنظره القادمين إلى الحارةِ تارة، وأخرى يخمُشُ بأظافره بابَ المنزل طالبًا وجبتَهُ الصّباحية المُعتادة.

هرَشَ في رأسه، وفرَك تحت إبطِه، وعدّل ملابسَه التي لم يتنبهْ لفوْضَتِها إلا مؤخّرًا.

نادى بصوتٍ عالٍ على زوجته التي سبقته إلى تحضير طعامِ الإفطار، كان صوتُه يملأ فراغَ البيت الصغير، ويتردّد صداه خارجَ الجدران اللّيّنة التي تكاد تهوي من صخبه... وبعدَ دقائقَ قليلةٍ نادته بصوتٍ عالٍ: الفطور جاهز.

مصمَصَ شفتيه التي اسْمرّت من طول إدمانه القديم لشرب الشاي الثّقيل المغليّ، والدّخان.. قال مستهزئًا: فطار!! يا للْعَجب، أتسمّين الخبزَ اليابس والجبنَ القديم الحارقَ، وقطعَ اللّفت المخلّل؛ إفطارًا!! يا لكِ مِن بلهاء، إنك يا امرأة مثلُ فقري الذي ورثتُه عن أبي؛ يلازمني طوالَ حياتي، فلا فِكَاك منْه، بالله عليكِ لا تنسي النّرجيلة.

نظرتْ إليه بضيقٍ شديد بعدَ أنْ حدقت بعينيها الضّيقة التي سالت منهما الدّموعُ من أثرِ الدّخان المُتصاعد من الموْقِد، وقد اقتربتْ منه، وقالت بصوتٍ مخنوق:

- احمدِ الله، نحنُ في نعمةٍ يحسدنا عليها كثيرون، كيف تتطلّع إلى حياةِ القصور وأنتَ عاطلٌ، خاملٌ لا تعمل!! فهَلِ النومُ يجلب الرزق!؟

لم يعجبْه حديثُها المتكرّر الذي أصبح يلازمُه كفقره، فقد اعتاد كلّ صباح سماعَ النّصائح بعينها، لم يجبْها، ولكنّه اكتفى بسحْبِ نفسٍ طويل من نرْجيلتِه التي احتضنها بينَ رجْليه، وكأنّها فرخٌ أوْ طائرٌ صغير يخشى طيرانَه، ثمّ ينفثُه في الهواء، وهو مغمضٌ عينَه اليمنى في استسلامٍ تامّ، وبعد أنِ استقرّ به المقام، وقدْ خلا البيتُ من شجارهما المُعتاد، طرق الباب طرقاتٍ متكرّرةً صوتٌ خشِن مألوف، كان الطارقُ مصرًّا على فتح الباب..

ـ افتح الباب يا حسنين، فين فلوس الليلة الكبيرة، مولد النبي يا مُسلّم؟!

ضحكتْ زوجتُه بصوتٍ غلّفته بالسّخرية المُعتادة بعدَ أنْ هزّت رأسها الدّقيق عدّة هزّات، وكأنّها تؤمّنُ على كلام الداعي، وقالت:

ـ فلوس الليلة الكبيرة، آهو دا اللّي ناقص!!

لم يتمالكْ نفسَه، فقد دفعته سخريتُها إلى أنْ ينفجرَ بتوبيخ مَن على الباب، هرْوَل يدفعه الغضب ليُمسك البابَ بعنفٍ كاد يخلعُه من مكانه.

كان صاحبُ الصوتِ الخشن المُلِحّ لا يزال مرابطًا أمام الباب، وما أنْ فتح الباب حتى بادره بسيلٍ من الصراخ:

- أين فلوس الليلة، هذه المرّة الثّانية التي أطالبُك فيها.. هاتِ لا تكنِ لكعًا.. تعلّل بالنسيان راجيًا أن يمهلَهُ حتى المساء، سيتدبّر أمره.

لقد نسي صاحبنا هذا الحدثَ الكبير الذي يطلّ على القرية كلّ عام، أنستْه المسكين لقمةَ العيش ومكابدةُ الفقر فلم يعدْ يذكرُ المهرجان السنوي الذي تنتظرُه القرية بفارغ الصبر هذا الوقت من كلّ عام، إنّها الليلة الكبيرة التي تعقبُ المولد النّبوي.

أسبوعٌ ملؤه نفحاتٌ وبركات وتوسعة، تُقام فيه الاحتفالات، وتُنصَب الرّايات، وتعلّق الزّينات في كلّ مكان، وتتخطّف فيه أهازيجُ الفرحة والمرح كلّ صغيرٍ وكبير، وتدور أشهى الأطباق بيوتَ القرية؛ فيطعم الغنيّ ويتقوّت الفقير.

قبلَ صاحبُ الصوت الأجشّ مهلتَه وهو يرمقه بعينِه المحمرّة من الغضب، على أنْ يعود ساعة المساء ليحصل على النّقود.

كانت مراسمُ الليلة الكبيرة قد بدأتْ على ما يبدو، وها هي بشائرُها قدْ هلّت تنبئُ عنها، فعادتِ الطبولُ تقرع وسط القرية بنغماتِها العالية وإيقاعِها العشوائي مصحوبةً بصيْحات الدراويش وأبناءِ الطّريق من المجاذيب، وها هُم رجالُ الرايات والبيارق من أرباب الطّرق الصوفية ونسّاكها قدِ اجتمعوا مع أعلامِهم التي اختلطتْ ألوانُها بين الخُضرة والحُمرة والصّفرة، وأكثرُها ما انتّشح بالسّواد؛ أمام منزل الشيخ عبد المهيمن، صاحبِ العهد وخادم الطريق في القرية.

كان عبدُ المهيمن يقوم على هذا الأمر، توارثَه من أبيه، أحبّه لدرجةٍ كبيرة، أصبحَ الرجلُ مخلصًا أيّمَا إخلاصٍ لعمله؛ فهُو يُتقنُه، صرف وقتَه كلّه متفرّغًا لهذه المهمّة، اعتقدَ الناس فيه الصّلاح، فالرجلُ جعل من بيته مقصدًا ومزارًا لرجال التّصوف وأربابِ الطرق، يتهافتون عليه كلّ عام. أصبح مِن عادة الشيخ أنْ يجعل مِن بيته مناخًا للمجاذيب،

يسبغُ عليهم من كرمِه، ويوزّع عليهم بعضًا مِن عطايا المريدين والمعتقدين الذين اقتطعوا مِن نُذورهم قسمًا خصّص للدّراويش من أهلِ الله مِن أبناء القُرى المجاورة.

كلّ شيء هنا يسخّر لطموح الرجل، ويلبّي تطلّعاته، ويفتح الباب أمامَه فيسبغ عليه من الشّهرة والصّيت يومًا بعد يوم، اعتقدَ الجميعُ أنّه وليّ كبير، أو قطبٌ خارق امتلكَ الكرامة، وحازَ الولاية، واعتلى هرمَ الطّريق عن تنسّكٍ ومجاهدة، حتى جاءته طائعةً راغمة، فمَن مثلُه!! ولعلّ فيما يتظاهرُ به أمام العامّة ويخلعُه على نفسه وينسجُه من همهمةٍ وتمتمةٍ أحيانًا؛ ما قوّى هذا الشعورَ وزكّاه عند مَن يراه للمرّة الأولى. أسبغ الرجلُ على نفسه هالةً فضفاضةً من الغموض تمامًا كالتي يحيكها أبطالُ كتب الزّهد والرّقائق والتصوّف من قديم الزمان، تنامى هذا الغموضُ في عقول البُسطاء، وزاد بعدَ أنْ خصّص لنفسه حجرةً ضيّقة مُظلمة تعتلي المنزل، مبنيّة بالطّوب اللّبن، زيّنت جدرانَها مجموعاتٌ منوّعة من المسابيح الكبار ذاتِ الحبّات الغليظة، ناهيكَ عن العمائم الطّوال الملفوفة، وكذا الأوراق الصّفراء التي تناثرت على الجدران، والأحجبة، واللّفائف التي تحوي أورادَ الطريق. تراءت هذه الغرفة للنّاظر كأنّها صومعة راهبٍ عزلتْه عبادتُه عن صخبِ الحياة، يفوح منها خليطٌ من الروائح الغريبة لنباتات عطريّة، لحبّات ومساحيق مجهولة المصدر، والتي اعتادَ أن يلقيها على الجمْرِ بين الحين والآخر، جعل لزوجتِه الأولى القوامة على المبْخَرة، فهي مسئوليّتُها، وخاصّة أيّام المولد، فمنَحَها نسخةً من مفتاح الغرفة، كانت مقرّبة إليه، يجدُ فيها الذكاء والحِنْكة وكتْمَ الأسرار؛ فوهبَها من حُبّه، وتكرّم عليها بأنْ جعلها قائمةً على أسرار الشيخ، اعتبرها موضعَ مشورتِه، فهي رفيقة هذا الكفاح، والشّاهد الوحيد على مسيرةِ مولانا.. كما كانت تُطلِق عليه.

كانت أحوالُه غريبةً لمَن يشاهده أو يقتربُ منه، ولو عاينَه لألف مرّة، خاصّة أولئك الفقراء الذين هالَهُم منظرُه، وسيطرت على عقولهم الضّيقة شطحاتُه، وكلامه الغامض غيرُ المفهوم، الذي سبكَه وأجادَ فيه، فها هُم قدِموا منَ القرى المجاورة لنيْلِ بركتِه وحضور الليلة الكبيرة.

لا يكفّ مولانا عن صراخِه العالي، ونوْبات التجلّي، التي كانت تغشاه في مجالس العامّة، فيطيش يميناً وشمالا، ويمتدّ صراخُه طوال الليل، كان الرجلُ يُتقن هذا اللونَ من التأثير على مُريديه بحرفيّة عالية، ولا مانعَ في أحيانٍ بعينها من إطلاق بعض الصّيحات المصْحوبة بكلماتٍ غير مفهومة يتمتمُ بها بانتظام، وقد يشطحُ به الحالُ فيعْمَد إلى الاستلقاءِ على الأرض فيطرح نفسَه أحياناً على الحصى أو بين الأوْحال، أو فوْقَ المزبلة التي تتوسّط القرية، والناسُ من حوله يجتمعون في ذهولٍ واعتقادٍ تامّ ببركته وحلولِ النّفحة العلوية، يبتلعُهم الذهولُ من هوْل ما يشاهدون، ووسط هذه الحالة من الشرودِ يعمدُ مساعدُه "مغاوري" إلى الصياح:

- مَدَد.. مَدَد من غير عَدَد، مَدَد على طول المَدَد.

إلا أنّ بعض الفتيان من أهل القرية ممّن نال حظّه من التعليم- وهُم على قلّتهم- اندسّوا بين الحشود المتراصّة للفُرجة على وصلةِ الجذب التي أتْقن الشيخُ عرضَها في مهارة وإبداع، أكْسبه طولُ الممارسة مداخلَ التأثير على المبتدئين من الجمهور.

تتخطّفه نظراتُ هؤلاء الشباب المتلاحقة التي تحملُ من صيغ الإنكار والتعجّب ما تحملُه مع اندماج مولانا، ولسانُ الحال يردّد:

- كيف تكونُ له الولاية وهو لا يصلّي منَ الأساس!! وهل يعقل أن تكون الولاية بمعزلٍ عن أداء الفروض!! فالرجلُ حتى لا يصوم نهارَ رمضان!!

حاوره أحدُ شباب القرية المتعلّم في هذا الأمر ذاتَ يوم، فكانت الطّامة الكبرى، فهاجَ وماجَ وأزبدَ وأرْعدَ، وبدأ نوبتَه الاعتيادية من الصّراخ متوعّدًا إيّاه بالعقاب، وأنّ نازلة ستنزل به، والقرية وأهلها بالخراب العاجل إنْ لم يحولوا بينه وبين الانْسياق وراء تهوّره وطيشِه هذا، فصلاتُه لا تكون إلا في خلوتِه التي يحضرُها أولياء الله من كلّ مكان، يؤمّهم البدويّ مرّة.. والدّسوقي أخرى، والمرْسي أبو العبّاس ثالثة..

أمّا صومُه، فالوليّ لا يُسأل عن هذه الأمور، فهو متدرّج في الطاعة، يأكل من طعامِ الجنّة الذي تحضُرُه الملائكة يوميًّا، ومَن سلك معه الطريق..

كانت كلّ الجهودِ التي تبيّن زيفه تبوءُ جميعًا بالفشل، ظلّ الرجلُ يُسحِر العامّة بكلامه المعسول حتى فُتِنوا بولايتِه وفضله، وعطّلت عقولهم عن تلقّي الحقيقة، فالشيخُ لا يكذِب.

توهّم أهلُ القرية فيه الصلاح، فانْهالت عليه عطاياهم وهداياهُمُ التي لا تنقطع، فتنوّعت أشكالُها وألوانها، يسيل لها لعابُ مولانا، فلا ينقطع، وبقدْرِ العطيّة تكون بركة مولانا، كلٌّ على قدر طاقته، ومضى فقيرُهم قبل غنيّهم يتبرّك تحت أعتابه، ويتلمّسون منه الوسيلة؛ مِن نعله.. أو مِن جلبابه المتّسخ المرقع، فهذه تحملُ على رأسها إناءً من اللّبن الطّازج حُلِب خصيصًا ليكون مِن نصيب مولانا، يرسَلُ إليه علّه يرضى عن طيبِ خاطر، والتي آثرتْ حملَه إليه في ساعةِ البكور غيرَ مصغيَةٍ لصراخ صغارها وعويلِهم، والذين مَنّوا أنفسَهم طوالَ الليل بتناوله مخلوطًا بفتات الخُبز المحلّى بالسّكر، لكنّ مولانا أولى؛ فهو السندُ الذي تحلّ ببركته الخيراتُ على الفقراء المُعدَمين.

وهذه تحملُ وعاءها الصغيرَ وفيه قطعُ الجُبن الطريّ وكرات الزبدة الصّفراء، وهذا يسوقُ تيْسًا كبيرًا قد نذَرَه لإطعام فقراء الليلة الكبيرة من المَساكين وأبناءِ الطريق من الدّراويش والبهاليل لينالَ رضا الأولياء، ويكون له شطرٌ من بركات مولانا، واسطةِ عقد الولاية، وجليسِ الصالحين، ويُشْفى ابنُه الكسيح الذي طاف به أعتابَ وأضرحة الأولياء والصالحين بلا فائدة.

كانت القرية قد تزيّنت بحلّة قشيبة بالرّغم مِن فقْر أهلها المُدْقع، لكنّ المهمّ رضا مولانا، فيا سعدَ مَن رضي عنه.

تابع مولانا كلّ شيء بنفسِه وعنْ قرب، حتى كلّ خطوة يخطوها الناس؛ استعدادًا لليلةٍ لا تمرّ مرورَ الكرام دونَ مشورة منه أو رأيٍ قاطع، إلا أنّ ذلك لم يشغلْه عن تلقّي منح أصحاب الحاجات الذين أتَوْا من كلّ مكان بنذْرهم يسكبونَ الدّمع، يتمسّحون بالبيارق والأعلام، ويتبرّكون بخرزات مولانا المتراصّة والمنْظومة في أسلاكِ الحرير

يلبسونها فَرحين، فهي التي ستجلب السعدَ لكلّ مَن لمَسها، فقد وقف مساعدُه "مغاوري" الشابّ الأمْرد بوجهه الأصفر النّحيل، وشعره الطويل المسدول فوق كتفيه، وعينه الجاحظة حبّاتُّها، والتي تخيّل لمَن يراه أنّها خرزة من خرزات مِسْبحة شيخِه.

يصرخُ بصوتٍ مُرعب يفزع الصغارَ الذين حضروا مع أمّهاتهم ليباركهم مولانا، ويكسبوا محبّتَه، والعودةُ مجبوري الخاطرَ بعد أن يمسح مولانا رؤوسَهم بيده.

ظلّ مساعدُه يصرخ ويهلّل، وهو مُمسك بسيفٍ نُحاسي كبير يلوّح به في الفضاء يَمنَةً ويسْرَةً، وهو يقول:

- مَدَد على طول المَدَد، مَدَد نظرة.. ومَدَدين المَدَد...

وبين أدْخنة البخور المُتصاعدة في الجوّ من المَجَامر الموزّعة في كلّ مكانٍ كأشباح ألفِ ليلةٍ وليلة، وبين صيْحات مساعدِه النحيل يتصدّر الصّفوف ويخترق الحشودَ؛ تقدّم مَن يهمس في أذنِ مولانا بعباراتٍ موجَزة، والشيخ يهزّ رأسَه مُنشرحَ الصّدر بعد أن مسح رأسَه بيده، والجميعُ يتهافت يلثُمُها.

لقدْ كانت همساتُه بشارةً للشيخ أنّ العطايا والمِنَح والهدايا قد جُمعت ووُضعت بمعرفة زوجتِه القائمة على أمْر الحجرة في المكان المتّفق عليه، ولا مانعَ من اطّلاعه على مُجريات العمل، والتي لا تخرجُ عن معرفة مهامّ القوم، وما أنْجزوه من كنْس السّاحة ورشّها بالماء، وتنظيف البُسُط والحُصُر، ونصبِ المقاعد، وتجهيز خيْمة المدّاحين ومشايخ الذّكر..

أصبحتِ القرية أشبهَ بخليّة النحل الكبيرة، الجميع يعمل طلبًا للأجْرِ ونيْل نصيبهم من البركة، والذي سيوزّع على مَن حضرَ وساهَم في إقامة الليلة الكبيرة.. ومَن يدري، فربّما يُسْعده الحظّ مَن يصادف وسط هذا الزّحام سيدَنا الخضر عليه السلام!!

والذي يجوب مثل هذه الليالي مُتنكّرًا في شخصيّات مجهولة، ولكنّها كما يزعُم العامّة لا تخرج عن هيئةِ درويشٍ عجوز أو صاحبِ حاجة،

يمنح مَن يبذلُ سخاءه بركتَه التي يحوّلها إلى أموالٍ وحرث ونسل، يصلُ مداه سابعَ جيل.

كانتِ الليلة الكبيرة شغلَهم الشّاغل، يمنّي كبيرَهم وصغيرَهم نفسَه بركة هذه المناسبة، خالطتْ أفراحها كلّ شيء تمسّه، وظهرَ أثرُها فيه جليًّا فأصبحَ الصّبية الصغار وقد زاحمتْ تفاصيلُها أحلامَهم البريئة، وغمرت مضاجعَهم تمنّيهم بالطّيبات وتصلهم بمتعِها من اللّعب.

لتتحرّك قلوبُهم شوقًا، وتطيرُ فرحًا مع كلّ حركةٍ من حركات ألعابها، وتسيلُ أفواههم الجائعة بلعابها طمعًا في أصناف حلْواها اللّذيذة، وقد تناثرت حبّاتُها أو رصّت في صناديقَ وعلبٍ فوق العربات الصغيرة التي تجرّها الحمير، بعد أنْ أمسك البائعُ مشنّتَها المضْفورةَ من سعف النخيل يهشّ الدّبابير والذباب أنْ تحطّ فوقها، أو يبعدها عن أنْ تلامسَ فتاتِ السّكر المرْشوش.

يحتضنُ الجميعُ ملابسَهم الجديدة التي أعدّت خصيصًا احتفاءً بهذه الليلة السّعيدة؛ جلبابٌ من قماش مخطّط، وطاقيّة كبيرة من نفْس القماش، ونعلٌ بلاستيكي.

تعلّق الناسُ بهذه الليلة، وبذلوا لها أغلى ما لديْهم مِن حبّ ورضًا وقناعة.

اعتقدَ بعضٌ منهم أنّ المساهمة بالمال والقوتِ فيها يعدلُ العبادة من صلاةٍ وصوم وزكاة.. هكذا صوّر لهم موْلانا في كلماتِه الموجزة التي لا تخلو مِن ركاكةٍ وضعفٍ في جنبات الدّروب أو على الجسور، أو حين يعترض طريقَ المارة الذين قدِموا من الحقول، أو حتى النّسوة اللاّئي عدْنَ من التّرعة يملأن الجرارَ بالماء، فهي ليلة لأهل الله الذين اجْتمعوا من كلّ فجّ عميقٍ محبةً في ليلة ميلادِ سيّد الكائنات صلى الله عليه وسلم.

فالكلّ- بلا شكّ- سيرجع مِن حيثُ أتى مجبورَ الخاطر، مغفورَ الذنب.

انْهمكَ المتطوّعون من أهل القرية في أعْمالهم؛ فريقٌ أمسك عراجينَ البلح اليابسة يكنسُ الطرقاتِ والدروبَ، وقسمٌ منهم يكنس وينظّف السّاحة التي ستحتضنُ- بعدَ قليل- وصْلاتِ المديح والذّكر في المساء،

وآخرون منْهم تطوّعوا عن طيبِ خاطرٍ يجلبوا الماءَ يرشّونه من المصرف القريب، ومعهم فصيلٌ من الشباب تطوّعَ لغسيل حصير القشّ المخصّص للسّاحة التي ستفرَش لإطعام أبناءِ السبيل وفقراء الطريق من الدّراويش، وعلى مقْربةٍ منهم توافدتْ نساءُ القرية على بيت مولانا لإعداد طعام العشاء للفقراء والمحتاجين من أرباب السبيل، مَن يأتي مِن زوّار الليلة الكبيرة وضيوف القرية وقصّاد الذّكر.

كانت عينُ مولانا لا تدعُ كبيرةً ولا صغيرة إلا أعطتها حقّها من التفحّص والتمعّن؛ فهي تجوبُ حائرة لا تشبع، فطوالَ الوقت هي معلّقة- لا تنخفض- بعتبةِ الباب، وعلى زوّاره، خاصّة الحِسان منهم والكواعب، تتنقل من واحدةٍ لأخرى، ومولانا مُمسكٌ بلحيته الطويلة المحنّاة، وفي مرّاتٍ يمدّ يده يمسح كرشَه المترهّل الذي تدلّى هو الآخر من جانبيه تمامًا كعيْن صاحبه التي لا تكلّ من تعقّب الحريم، وبين الفينةِ والأخرى يصيح مُنفعلا وقدْ مدّ بصره لأعلى، ولكنّه لايزال يشبع عينَه بالأجساد التي تشبه المرْمَر، ويصيح: مَدَد.. مَدَد.. مَدَد، هنيئًا لك يا فاعلَ الخير.

لم تكنْ لهذه الترتيبات أن تكمُلَ دون أن يضعَ الأمنُ بصمته عليها، أو أن يكونَ لرجاله حضورٌ ملحوظ؛ فهذا موسمٌ كبير، ينتفعُ فيه الجميع. كان الخفرُ يسارعون قيامًا على أعمالهم بعزمٍ واجتهاد، فهُم بدوْرهم مَن يتولّون مسئولية اسْتتباب الأمن، وحفظ النظام، وتوفير الطّمأنينة والسّلام لجميع الزوّار، عسى أن تمرّ تلك الليلة دونَ مشاكل أو اختناقاتٍ تعكّر صفوَ الجمهور.

يقترب شيخُ الخفر من مولانا، مسلمًا عليه، يمدّ إليه يدَه في خشوع، وعينُه تنظرُ إليه في تذلّل يتسلّم البركة من الوليّ، لكنّ البركة في الغالب تكون مِن جيْب مولانا الكبير، فلا تخرجُ في الغالب عن بعض قطع معدنية صغيرة صفراء اللّون، كان المتولي عن مولانا ينثرُها على جانبيه، يمنحها المتجمْهرين في المكان بحضرةِ مولانا، كانت هذه القروش توزّع بمعرفة كبير الخفر على زملائه الذين يتابعونه عن بُعد، كان الخفرُ مجبرين على إطاعةِ الأوامر، يخفي كلّ واحدٍ منهم غصّة في حلقه، فهو يقدّر في باله ما أعطى الشيخُ لكبيرهم، يقدّرون حفنته

تقديرًا محكمًا لا يخيبُ من فرْط التّجربة، يهمس أحدُهم بصوتٍ مسموع:

- المرّة دي لازم ما يضحكش علينا أبدًا، إحْنا عارفين إدّاه كام..

حاول شيخ الخفر- تمامًا ككلّ مرّة- إقناعَ مولانا بأنّ سلامة ضيوفه في هذه الليلة في عهْدته، وتحت وصاية "البيه" المأمور شخصيًّا، والذي يتابع عن قربٍ ما يحدث، بعد أنْ أصدر تعليماتِه للجميع بتأمينٍ شامل لهذا الحدث، ثمّ شرع- من فوْره- يلقي التعليماتِ ويشدّد في نبرة صوته الرّخيم بعد أن اصطفّ الأفراد أمامَه في صفوفٍ يحملون بنادقهم الطويلة، ويلبسون معاطفهم الكاكي، ويضعون طرابيشَهم الحمراء الطويلة التي كتبت عليها أرقامُ تسلسلهم.

هزّ الشيخ رأسَه، وقد ارتسمتْ على وجهه ضحكة ماكرة، وقال:

- طبعًا طبعًا، وهوّ احْنا لينا بركة غيركم والبيه المأمور!!

بدتِ الصورةُ مكتملة، والمشهدُ أشرفَ على تمامه، كلّ شيء أعِدّ بسرعة لاستقبال الليلة، ومع أوّل ضوءٍ لهذا المساء ستنطلقُ الاحتفالات، وتعمّ الفرحة بيوتَ القرية، وصدورَ أبنائها وبناتها.

وعلى أطرافِ الساحة التّرابية الواسعة التي تلي الحقولَ نصَبَ الغجرُ مراجيحَهم، وبيوتهم المجْدولة من الشّعر، والمكسوّة بالخيش، وبسطوا أمتعتَهم، وربطوا دوابّهم الهزيلة بجوار خيامِهم، كانوا يشعرون براحة مُفْرطة تبدو في ملامحِهم التي كانت ضاحكةً مُستبشرة طوال أيام الليلة الكبيرة، وهُم بيْن سكّان القرية وأهلها الطيّبين، فأهلُ القرية اتّسموا بحُسن المعاشرة وهدوءِ الطّباع وحُسْن الخلق والكرم، لم يصادفْهم بين ظهرانيهم ما صادفوه بالقرى المجاورة من شَغَب، فهنا وجدوا الأمانَ والطمأنينة.

ولعلّ ذلك بدا للعَيان، فمنذُ اليوم الأوّل الذي حطّت فيه قافلتُهم يتجوّل بناتُهم الحسناوات في دروبِ القرية بحريّةٍ وأريَحيّة، يحاولنَ جاهداتٍ جذبَ الأنظار إليهنّ، يسرقن نظراتِ شباب القرية المتعطّشة لهذا الجَمال الفريد الذي يفوق جَمالَ بناتِهم من القرويّات السّمر، ويلهبنَ قلوبهم الفتية التي اكتوتْ بتلك السّهام التي انسابتْ من بين الكحل الذي

غطّى المُقل الواسعة، كان الشبابُ- على اختلاف أعمارهم- لا يفوّتوا الفرصة يتربّصون في عفويّة وسذاجة بين الدروب، أو على النّواصي، وحتى عند مكامن الخيام التي اكتظّت بهؤلاء دونَ إبداء إعجابهم من هذا الجَمال الطّاغي والفتنة البادية، فهُم لم يتعوّدوا كلّ هذا القدر من الدّلال والتغنّج.

كان الصبايا السائراتُ بين البيوت في ثيابهنّ الزّاهية المزركشة، وعيونهنّ التي تفيض فتنةً ودلالا، ولعلّ السرّ في الكُحل الذي أغرقن به تلك العيون ما تزايد أعدادَ الشباب الذين تحلّقوا حلقات لا تنقطع، وبعضُهم يتجرّأ بعد أن يستبدّ به الهوى فيقطعُ الطريقَ عند سيْرهنّ، ولا مانع من إبداءِ قليلٍ من الرأي في هذا الجَمال الذي أحرقَ الأكباد، غير أنّ الفتيات تفنّنّ يعرضنَ حسنهنّ البادي بطرقٍ مُبتكرة، أصقلتها التجربة وطول الممارسة وخبرتُهنّ في عيون هؤلاء الصّبية التي تتابعهم كلّ خطوة، يعرفنَ بمهارة وبأقلّ جهدٍ مَواطن الإغراء ولمْس القلوب قبل الأنظار، كان أغلبُ فتيان القرية ممّن اتّصفوا بالسّذاجة، وأغْرقوا في الفطْرة، فلم يخالطوا من قريبٍ أو من بعيدٍ مِن النّساء والبنات مَن تبدي منهنّ مثلَ ما أبداه فتياتُ الغجر من الحُسن والدّلال والجرأة.

لقد تعوّد شبابُ القرية هذه الجرأة، وتجرّعوا منها الكؤوس تلْو الأخرى، والتي جعلتهم لا يبْرحون عليها عاكفينَ، لا يسلون نارَها التي أشعلت فيهم جمرَ الغرام وجذْوة التلذّذ به، وبعدَ الليلة الكبيرة جعلوا يمنّون أنفسَهم بلقاءٍ قريب يجمع شملَهم بحسناوات المولد.

كان مِن بين الفتيان مَن تعلّق قلبُه بفاتنةٍ من الفاتنات، يبادلها شوقًا بشوق، ونظرةً بنظرة، وعهدًا بعهد، يتطارحون بساط الأنس والغرام، ويعشْنَ ساعاتِ الهيام التي تغشى القلوب، وتتملّك العيون، وتلهب المُهَج، غير أنّ فتيات الغجر على الرّغم من حيلِهنّ في إيقاع هؤلاء السّذج؛ إلا أنّ في أحيانٍ كثيرة كان الحبُّ رسولا يتسلّل عنوة، وبلا رويةٍ، لقلوبِ بعضهن ممّن وجدنَ في هؤلاء الفتية ممّن طهرت قلوبُهم ونقيّت فطرُهم، وصدقت لهجة حبّهم فكنّ يتعلّقن بهم، ولا يجدْنَ حرجًا من مبادلتهم الحبَّ والنظر والتعذّب والوعد بلقاءٍ مهْما طال البعاد؛ يطفئ فيهم هذه الشآبيبَ التي يسهرنَ على أثرها الليالي يتقلّبن داخل

الخيام تقلّبَ المغشيّ عليه، تسرح أحلامُهم في تمنٍّ أن يكلّل هذا الحبّ بالزواج، قد سئمْنَ حياة التنقّل من بلد لبلد، كانت هذه الأيامُ شاهدةً للعديد من القصص والحكايات التي تحكي هروبَ المحبّين، وتواريهم عن أعْيُن الرّقباء هناك في أحضان الحقول البعيدة، وقد تعاهدوا تحتَ ضوء القمر المتدلي السّاهر، الذي يشهد معهم يؤمّن على عهود الحبّ ومواثيق الوفاء والإخلاص، ويضمن بأغلظِ الأيمان بذلَ الرّوح والنفس ليجتمع الشملُ مرّات أخرى.

إلا أنّ لحظات الصّفو لم تكنْ لتسود كما رتّب لها المحبّون، فقد كانت الظروفُ تعاكس ما رتّبته القلوب، وسيّرتْه أقدار الحبّ، وكان صفو مُدام الغرام يشوبُه بيْن الحين والحين ما يعكّره ويقلقه، فلم تكنْ علاقاتُ الوصل والتّصافي ما بين فتيان القرية وحسناوات الغجر جميعها على ما يُرام، فقد تنشبُ بين الحين والآخر بعضُ المعارك الطاحنة.. هنا، وجد إبليسُ اللّعين مكانَه مندسًّا بين صفوف فتيان الغجر، ينفخُ في صدورهم نداءَ الغيرة وشعورَ الحميّة، فها هُمُ الذين أوْترهم ما يروْنه من هُيامٍ وعشق بين فتياتهم الحِسان وبين شباب القرية بعد أنْ أحسّوا بالفقد وقلّة الحيلة، فبدؤوا يتربّصون الدوائرَ بمَن خطفوا منهم ما بأيديهم، فجعلوا يبذلون ما في وسْعِهم ليحولوا بين المحبّين يتعقّبون- بكلّ مُكابرة- مسالكَ الحبّ فيسدّوها في وجْهِ مَن أفقدهم العشقَ الصواب، فمالوا عنْهم بقلوبهم إلى مَن سواهم، فلا بديلَ عن المواجهة، فساعةً بالعِراك والشعار المُصطنع، وساعة بالوشاية الكاذبة لكبارهم، وساعة بتتبّع خطا العشّاق والتلصّص عليهم وإفشال لحظاتِ البهجة العفيفة التي كانت تجدُ طريقها بين الحقول، كانوا يكتَوون بنارِ الغيرة وهُم يلحظونَ هذا الهيام المتفجّر، فلم يجدِ الأحبة أمامَهم سوى الهروبِ بحبّهم، بعيدًا في أحضان الحقول البعيدة، أو في أزقة القرية ودروبها، أو في أحدِ البيوت المهْجورة التي جعلوها عليها العيون من الصّبية الصغار الذين أغْروهم بالحراسة مقابلَ بضع ملّيمات قليلة ينبّهونهم القادمَ من بعيد، أو ممّن يقتحمُ عليهم الخلوة، حتى شاعت أحاديث العشق وحكاياتُ العشّاق، وعدّدت أماكن الخلوة واللقاء، فتسمّع بها بعضُ ضعفاء النّفوس أو ممّن عوّد نفسه الصيدَ في الماء العكِر، حتى وجدوا مِن مادّتها مجالا للتّسلية وفرصةً للتندّر،

لتتحاكى بهذه المغامراتِ مضارب الخيام التي هربَ إليها أصحابُها من زحام الزّبائن.

وتحينُ ساعات الليلة الكبيرة فتضجّ القرية بزوّارها القادمين من القرى المُجاورة يشهدوا نفحاتِ الليلة، ويقضي فتيانها- الذين استعدّوا مبكّرًا- لحظاتٍ من المرح والتّسلية والفرجة والتسوّق، وبين جنبات الساحة الكبيرة تتراصّ بسطات التجار بجُملتها، فهذا مكانٌ خُصّص للباعة الذين افترشوا الأرضَ بصنوف الفواكه والحلوى، وهؤلاء وقفوا عن بعدٍ، وقد جلبوا ألعابَهم يتسلّى بها الصّبيان من بنادق الرشّ والتصويب، وذاك جلب حيلة التي تعتمدُ على خفّة اليد والخدع يسلبُ بها ما بجيوب السذّج من الزوّار الطّامعين في المكسب السّهل، ونصب أصحاب الحيل حيلَهم كالعادة، الذين تتعالى في جنباتِها الصيحاتُ بين نادبِ حظّه العاثر، وبيْن مُنتشٍ يبرز مواهبَه في كشف الحيل والشّراك التي اعتاد صاحبُ اللعبة إغراءَ زبائنه بها، وجرّهم لسلْب ما في جيوبهم من نقودٍ كان الخاسرُ يؤنّب نفسه غشامتها في كشف الحيلة، مُنصرفًا وهو يتوعّد باليقظة في مرّاته المقبلة، غير أنّ مُناخ الاحتقان المتأزّم الذي تسبّبت فيه حالةُ التقارب ما بين فتيان القرية وبنات الغجر اللاتي لا يبرحْنَ يعْترضْن الطريق في جرأتهنّ المعروفة أمام غضبِ ذويهم ممّن أوْتَرتهم تلك العلاقة، إلا أنّ الزمام قد يتفلّت، ولا يمكن صدّ الفوْرة التي تسري في دماء الغجر، فتتشابك في أحيانَ كثيرة الأيادي فيُهْرع الناسُ إلى حلبةِ العراك بين الفينة والأخرى، تتبادل اللّكمات، ويتناوب الرّكل، فيزدحم المكانُ بالعصي والنّبابيت التي ارْتفعت من الطرفيْن.

كانت الغيرةُ تلسع أكبادَ الفتيان، فهُم أولى بمحبّة الفتيات ولفْتِ انتباههم، كيف لا.. وهُم زملاء العمل ورفقاءُ الكفاح، حتى يعلو التّقريع واللّوم في كثيرٍ من الأمر عند بعضِهم أنّهم رفقاءُ التشرّد، وأبناء الضياع، فهُم من مجْهولي النّسب اللّقطاء، الذين تلقّفتهم الشوارعُ، وانتشلتهم أيدي الغجر وضمّتهم إلى كتيبة التّرحال، وأسلمتهم فريسة التنقّل من بلدٍ لبلد، يتقاسمون اللّقمة والشربة والغطاءَ، يجمعُهم المصيرُ الواحد، فكيف يلملمُهُم البؤس والشّقاء، ويفرّقهم الحبّ والعشق، ويُحْرموا لذة الوصْل التي ضنّوا به عليهم،

وتمنح لهؤلاء السّذج، الذين لم تتخطّ أحلامُهم جسورَ القرية ومصارفها.

وها هي طبولُ الليلة الكبيرة تدقّ في ملء ضجيجها الأسماع، وتشرئبّ لها الرّقاب التي انتظرت عامًا كاملا هذه الفرجة، يتقادمُ الناس على وقعها من كلّ مكان ليشهدوا ساعة الزفّة كما يسمّونها، احتشدتْ حشود الزّوار التي توافدتْ من الكفور والنّجوع القريبة من القرية، اجتهد شيخُ الخفر قدْر استطاعتِه في هذه الليلة على استتباب الأمن، فأشرفَ بنفسه على مسرح الأحداث، فقبض رجالُه على مداخل القرية ومخارجها بيدٍ من حديد، خاصّة وأنّ مولانا لم يبخلْ عليهم، ونالهم من سخائه ما فتحَ شهيّتهم لإنجاز المهمّة على الوجْه الأكمل.

كانت مرابعُ الليلة الكبيرة كعادتها مِن كلّ عامٍ على موعدٍ وبعض الحوادث التي أقلقت مضاجعَ الجميع، بما فيهم مولانا نفسه، الذي انسحب من بين مُريديه وزوّاره ضجرًا، يلعن ويسبّ ويزبد ويرْعد ويتمتم بصوتِه الخشن ويبرقُ بعينين يكاد يطيرُ منهما الشرر، ترك مولانا الخيمةَ التي تتوسّط السّاحة والمطلّة على دكّة المُنشدين، والتي امتلأت بالوفود التي جاءت تتبرّك به، وتطلب منه نفحةً من نفحات وصْله في هذه الأيام المباركة، وفي مواسم الطّاعة، لكنْ في حركتِه المفاجئة ما لفت انتباهَ الجميع الذين قلقوا منَ انتفاض مولانا وحركتِه السريعة، والتي لم تخلُ من الرّيبة بعضَ الشيء، لا بدّ أنّ ما استعجله لا يحتمل التّأخير، سار مولانا.. يصحبه شيخ البلدِ يتبعه بعضُ الخفر الذين أمسكوا بنادقهم وشمّروا أكمامَهم، يردّدون عبارات الويل والثبور لمَن تسبّب في هذا الهرج، وأقلق راحة مولانا وعطّل طوابير النّفحة التي اجتمعتْ لأجلها الحشود مُنتظرة إيّاها منذ أيام طويلة.

اجتهد الجميع يتتبّعون مصدرَ الصوت، على ما يبدو أنّ الصوت يأتي مِن ناحية خيام الغجر، طمأنَ شيخُ البلد مولانا بأنّ الأمر بسيط: اطمئنّ يا مولانا، تلقاها خناقة كلّ مرّة.

هزّ مولانا رأسه، وأسرع في مشيته وهو لا ينطقُ بكلمةٍ واحدة تبرد حيرةَ القوم الذين مشوْا في صمت، وكأنّ على رؤوسهم الطيرَ، لا تسمع إلا صوتَ نعالهم، وحفيفًا لحصًى يتطاير من تحت الأرْجل المسرعة في مشْيتها، لا القلقُ على مولانا كلّما اقتربَ من مصدر

الصوت الذي تكشّف للجميع أنّه قادمٌ من خيام الغجر بعد أنْ خلع عن رقبته سبحتَه الطويلة ذات الحبّات الكبار، وخرزاته الحُمر اللاتي علقْنَ فوق عمامته المكوّرة، تناولها منه خادمُه "مغاوري" الذي قفزَ يسبق مولانا بخطواتٍ يوسع له الصفوف المتراصّة التي تطلب البركة، وهو يصيح صيحاتِه المعْهودة:

- أفْسحوا الطريقَ؛ مولانا في عجلةٍ من أمره، وعمّا قليل ستنالون نصيبكم من بركاته، وتوزّع عليكم نفحاتُه.

وصلَ حشدُ مولانا على مقربةٍ من المكان، كانت الحشودُ لا تزال ملتحمةً، والأيادي قد صوّبت تضرب وتركُل، وصيحاتُ السّباب تتطاير من الأفواه، والعصيّ قد أشْرعت تطيشُ في الهواء، غير أنّها في مرّاتٍ ليست بالقليلة تعرفُ طريقها فتستقرّ واحدة في رأس أحدِهم، وتهوي الأخرى إلى جدار قريب.

أمرَ شيخُ الخفر بإطلاق رصاصاتِ التّحذير لإرهاب هؤلاء الذين تصارعوا في يومٍ كهذا فلم يراعوا حرمة. أطلق شيخُ الخفر رصاصة تحذيرٍ من بندقيّته الطويلة التي حملَها على كتفِه ليعلم الحشد أنّ الأمر مسيطرٌ عليه، ولرجالِ الأمن سطوتهم، ولا بدّ أن ينقَضّ هذا العراك، خاصّة وأنّ مولانا أزعجه هذا التّصرفُ غير المسئول، وها هو يمشي بنفسِه ليصلح بين الفريقين.

هدأتِ المعركة، ووضعت الحربُ أوزارَها، مع حضور مولانا ومعه رجالُ الخفر الذين تصايحوا باسْم القانون، لكنّ بعض شباب القرية وقف على مقربةٍ من أرض المعركة يتابعُ في تحفّز ما يجري، وقد أمسك كلّ واحدٍ منهم بيدِه عصاه، جعل شيخُ الخفر يتوعّد الجميع بأنّ يدَ القانون ستبطشُ بمَن تسوّل له نفسه زعزعة الأمن، وأنّ البادي بالعدوان سيلقى جزاءَه المحتُوم، طلب مولانا فانوسَه الكبير؛ فقد هجمتِ الظلمة لتغطي خيوطُها السودُ المكان، فالإضاءةُ حول الخيام ضعيفة، ولا تكفي ليستطلع عن قرب، ويعلمَ حقيقة ما جرى، صرخ مولانا مِن أوّل نظرة:

- يا خفيّ الألطاف، نجّنا ممّا نخاف، يا سلام سلّم.

روّع مولانا من هولِ ما شاهده، فالدّماء تسيلُ من الرؤوس، والملابس الممزّقة تملأ المكان، ومحتوياتُ الخيام تبعثرت تغطّي الأرض، سأل شيخُ الخفر بصوتٍ أفزع حسناوات الغجر:

- في إيه يا واد انتَ وهوّ، إيه العبارة!؟

غيْر أنّه سرعان ما فطنَ إلى أنّ هذه الفوضى التي خلّفها الاشتباك بين الفريقيْن، ومنظرُ فتيات الغجر اللاتي اكتفينَ بالبكاء والنّحيب ما يوحي بأنّ للمعركة أصولا تمتّ بسببٍ إلى المنافسة المعتادة في كلّ مولدٍ ما بين شباب القرية ورجال الغجر.

تفحّص مولانا بعين- ومِن تحت ضوءِ فانوسه الكبير المُضاءِ- الوجوهَ التي لم تخلُ مِن الفتنة والمَلاحة، فتياتٌ في عمْر رائحتهن كرائحة الفاكهة الفوّاحة، أطال مولانا النّظر في الحُسن المتبدّي منهنّ، وشيئًا فشيئًا جعل يقترب، وفجأة ومِن داخل إحدى الخيام خرجت سيدةٌ في العقد الخامس من عمرها، ومع خروجها هدأ البكاءُ، وخفتت حدّةُ الصراخ، فقد اكتفتِ المرأة بإشارةٍ من يدها التي غطّاها الحليّ وطلّتْها الحنّاء، كانت المرأة قد داعب الكبرُ قوامَها الممْشوق الذي انحنى بعضَ الشيء، لكنّه لايزال محتفظًا بنضّارته وليونته، وعيونها التي يقطر الكحلُ منهما، لازلتا تتفجّر منهما بقايا من فتنةِ الشباب وسحره، ولعلّ في مشْيَتها المتغنّجة، والتي انعطفت ناحية الجمع وهي تحملقُ في جرأةٍ تخطف القلوبَ قبل الأنظار من جَمالها يتهادى كلّ عضوٍ من أعضاء جسدِها البضّ، الذي لفّه ثوبٌ مزركش من القماش الطريّ ما أشعلَ الوهَجَ في صدور العجائز من شيوخ القرية، وزاد من إقبال الحشدِ الهادر عليها، فتخطفتها العيونُ العطشى التي جرتْ إليها تتفحّص كلّ عضوٍ من أعضاءِ جسْمها الفتّان، كانت المرأة تكتفي بتأشيرةٍ خفيّة من يدها، ولكنّها لاتزال تتقدّم ناحية عصائب يلوح الدّم القاني من تحتها، وهُم يضمّدون بعضَهم، ويتوجّع الآخر، ويكتفون بنظرةِ سيّدتهم الأنيقة التي على ما يبدو أنّها سيدةُ الغجر الأولى، وصاحب الصّدارة بين هؤلاء الرّحّل، كانت المرأة لاتزال تطلّ بعينيها الواسعتين، وقد لعبت بهما مَراودُ الكحْل، تقدّمت تخترق الصّفوف، ناشرةً ضفائرَها الحمر التي غطّت الحنّاء شيبَهما، رافعةً حاجبيها الدّقاق كخيوطٍ رفيعة، ثمّ قالت المرأة بحرقة:

ـ يعني ينفع نثهان كلّ سنة في بلدكم يا مولانا؟!!

اقتربتِ المرأة في خطواتها بشكلٍ مُبالَغ فيه حتى توسّطت المكان وهي تحدقُ ببصرها تجاه مولانا غير مباليةٍ بعيون الرجال الذين أحاطوا بالمكان حتى التصقتْ بهم، لم تبالِ بنظراتِهم الجائعة التي اخترقت ثيابَها الرقيقة، وعيونهم التي كادت تقفزُ من محاجرها، حتى استبدّ المنظرُ بالبعض منهم، فسالَ لعابُه وجعل يقضمُ أصابعه في ولهٍ وفتنة، تنحنحَ الشيخُ وقدِ احْمرّ وجهه خجلا، ولملَمَ ثيابَه الواسعة التي جرّها في التراب، وحاول أنْ يستجمع قواه ويتصدّى لجرأة المرأة التي أحرجته بين مريديه، كانت العيون تترصّد خطواتِ المرأة وتهادي جسدِها الذي ترجْرج منسكبًا بينهم، وتتابع ما يحدثُ عن قربٍ في تحفّز، إلا أنّ ما يحدث من المرأة المُتصابيةِ لم يرقْ لبعض نسوةٍ من بنات القرية اللاتي خرجنَ على إثر الصّراخ المتصاعد عند خيام الغجر، أبدينَ شيئًا من التّحفّظ على جرأتها غير المعتادة، قالت إحداهنّ:

ـ يا لوقاحتها، انْظروا إلى المرأة التي لا تعرف الخجل، ماذا تفعل بالرّجل الشايب!!

تأزّم الموقفُ بالرجل أكثرَ من ذي قبل، فبدأ عرقُ مولانا يتصبّب على جبينِه، وانسابت بعضُ حبّاتٍ منها على شعراتِ ذقنه البيضاء تقطرُ منها على صدْره، فارتعدت لها مفاصلُه، شعر أنّ زمام الأمر يوشك أنْ يتفلّت من يدِه، قال مولانا وهو يحدقُ ببصره إلى صدْرها القائم المنتفخ بعضَ الشيء من تحت ثيابها، وقد بدأ يعضّ شفتَه بأسنانه عضًّا خفيفًا لا يراه من حوله، والذين كان شغلُهم الشاغل تفحّص المرأة وحركات جسدِها، غاب الرّجلُ للحظاتٍ بذاكرته، فوجْهُ المرأة ليس غريبًا عنه، ولكنّه يجهله. عاد الشيخُ ثانيةً إلى صمتِه، مدّ يده إلى مسبحتِه الطويلة يمرّر حبّاتها بين يديه بسرعة علّه يستلهم شيئًا يعينُه على استرجاع ما غابَ عنه، قال لنفسه: تُرى مَن تكون هذه المرأة؟

وبينما هو يجهدُ فكرَه في تذكّرها، جاءتها فتاة كاعبٌ، تناديها من داخل الخيمة: خالتي زبيدة.. خالتي زبيدة.

ابتسم الشيخُ ابتسامةً يشوبها شيءٌ من الذهول على ما يبدو أنّ للرجل سابقَ عهدٍ بتلك المرأة، أمسك مولانا بشحمةِ أذنه يفركُها وهو يحدقُ

بالمرأة مرّة، ويجوبُ بعينه في الجموع التي انشغلتْ بتلك العجوز الحسناء، لكنّه قاطع الجميعَ بصوتٍ أجشّ استجمع فيه ما تبقّى له من الهيبة التي أتت عليها طلّة المرأة:

ـ لا ميرضنيش يا ستّ زبيدة.. إنتم ضيوفي بسّ إيه العبارة!؟

وما أنْ سمعت حديثه الليّن ونظراتِه الحائرةَ الجائعة التي توشكُ أنْ تفترس جسدَها، تعلو مرّة وتنخفض ثانية على ثنايا جسدِها البادي من فتحة الثوب الضّيق وصدْرها المكشوف، حتّى انفجرت في البكاء، بدأت في سرد الرواية والتي فهمَ مولانا منها أنّ معركةً نشبت بين فتيان الغجر وشباب القرية، الذين أولعوا حبًّا ببناتهم الفاتنات، وأنّهم في حمايته كما عوّدهم، ولا يصحّ غواية هؤلاء الصّبايا وانتهاز الحاجة، نظرَ مولانا إلى المرأة المُتصابية الباكية من أمامه، تحرّكت يده تعبثُ بشعرات ذقنه، يشدّها مرّة ويفلتها مرّة.

وقال بصوتٍ هامس لم يسمعْه سواه:

ـ ياه يا زبيدة، كبرتِ ولسّه صبيّة زيّ ما كنتِ، كأنّك بنت بنوت.

ضحكتِ المرأة فجأة وهي تحدقُ في عينيه، وكأنّها سمعت ما دار في رأسه، غاب مولانا عن الوعي قليلا، وعاد بذاكرتِه سنوات طوال إلى الوراء حيث الفتوّة وزمن الشباب والطّيش، تحرّك أمام ناظريه سريعًا شريطٌ مليء بالأحداث، تذكّر سنوات الانطلاق والعنفوان والحبّ الخالد.

استرجعَ سريعًا أيامَ الشباب، وتفاصيلَ كثيرة لقصّته، كانت بطلتُها زبيدة هذه الجميلة التي كانت ملء السّمع والبصر في زمانها حبّه الأول، وعشقَ عمْره الذي لا يغيب عنه مهْما مرّت الأيام، فهي عاجزة أن تُنْسيه إيّاه، تمنّى مولانا لو يعود الزمان، فيظفر بلحظةٍ من لحظات الحبّ والقرب من زبيدة، تمنّى لو خلا المكانُ من الناس فصارحَها بما في قلبه، وأسرّ بما يشغل باله، وما فجّرته عيناها في قلبه من ولَهٍ، واسترجعته من حبٍّ قديم مرّ عليه عمرٌ طويل، جعل مولانا ينظرُ إلى المرأة بشدّة؛ فتفاصيلُ وجهها المشْرَب بحُمْرة لم تختلف كثيرًا عن ماضيها، وإنْ غازلته تجاعيد جلبتْها الأيامُ معها، ولكنّها بقايا فتنةٍ وحبّ قديم لعبت برأس الرجل، غير أنّ المكان لم يعدْ كما هو والزّمان

كذلك، تمنّى لو لمْ يحمل على كاهله هذه المسئولية التي ورثها عن والده، يا ليتَه ظلّ في تهوّره القديم واندفاعه يتجرّع في حضرتها كؤوس الصّبابة، ويهيمُ على وجهه في الموالد والليالي خلفَها، يمنّي النفسَ بنظرة من عيونِها الكحيلة يمسّ يدَها تتردّد حروفُ اسمه على شفتيها الوردية، يفوز بقلبها دون شبابِ القرية الذين تقاتلوا لأجْلها، فكمْ نشبت لأجلها المعاركُ، لم يكنْ مولانا وحدَه الذي انْتابه هذا الشّعور، بل قليلٌ ممّن حضر من عجائز القرية ومِن شيوخها الذين عادتْ لهم ذاكرة الأيّام سريعة، وكأنّهم يشهدون ما كان يجري بين مولانا وزبيدة، لقد فجّرت رؤيتُها ما فجّرته في نفوسهم، فكانوا يتهامسون في خِلسة، لكنّ بعضًا من الناس شغلَ بلحيتِه الكثّة وعمامته التي تكوّرت، فبدتْ من فوق رأسه كجبلٍ جاثمةً على أنفاسه، تمنّى لو يلقيها من فوقِه، ويصرخ مصرّحًا بحبّ هذه المرأة التي لا تزال تنبض بالجمال رغم كبَرِها، غير أنّ مولانا كان له أكبرُ الحظّ والنصيب من حبّها كونُه الابنَ البكري المدلّل لمولانا الكبير صاحبِ الهيبة والمقام، وبطبيعةِ الحال فهو أحقّ بالتّدليل من غيره، فجعلت زبيدة تخصّه دون غيره بالاهتمام بتدليله، وتبذل ما في وسْعِها لترضيه ترضيةً لأبيه الذي كان بينه وبين الغجر ما صنع الحدّاد، فقد كان الرجل يكرهُ الغجر وفتنتَهم التي صرفت كثيرًا من شباب القرية الذين أعدّهم للطريق عن متابعة نهجِه، واستكمال العهد مِن بعده، فكان يخشاهم ويحذّر الناس منهم، غير أنّ زبيدة ها هي تقع في هوى ابنه الوحيد، وتنصبُ في طريقه حبائلَ حبّها، فلم يستطع ابنُ مولانا لها صدودًا؛ فتاهَ عشقًا فيها، وهجرَ دنيا والدِه ودروشتِه، وسلك طريقَ الحبّ والغرام، وعرفت أقدامُه مضاربَ الغجر ومواضعَ ترحالهم في الشّرق والغرب، خيّل له كلّ هذا مِن أمامه في هذه اللحظات القليلة.

كان الرجلُ يتمنّى لو تعودُ به الأيامُ فيأخذ بيدها وينطلقا معًا بعيدًا بعيدًا بيْن الحقول الواسعة لا يحملانِ من هموم الدنيا إلا موعدًا للّقاء، أوْ موطنًا للتشاكي وتبادل الودّ، يسهران في مناجاةِ القمر الذي سيشهدُ حبّهما، ويستبشر فرحًا بعودة الحبّ الضائع ثانية، لكنّ الرجل تذكّر أخيرًا استحالة الأمر، فلم تعدِ الأيامُ هي الأيام، ولم يعدْ هو ذلك الشابّ المتهوّر الذي سحَرَه حُسْنُ زبيدة، إنّه الآن مولانا الذي تشدّ إليه الرحالُ طلبًا للبركة ونيْل النّفحات بنظراتِه إليها فقط، يمنّي النفسَ

برؤياها، ويحادثها علّه ينال خلوةً من خلوات الودّ، فيجدّد الصّبابة التي بدأت تشبّ بين أحشائه تكوي ضلوعَه من جديد، أخذ نفسًا عميقًا وأخرج زفيرَه، ثمّ قال بصوتٍ هادئ، ونظرته معلّقة بباب الخيمة التي وقفت أمامَها زبيدة بعد أن انْفضّ الزّحام، وعادت الحياة ثانيةً للمولد:

ـ حصلْ خير، قدّر ولطف، كمّلوا يا ولاد الفرجة.. دا إحْنا في الليلة الكبيرة.

انصرف القومُ إلى ملاهيهم فقد كفلَ لهم مولْانا ساعاتِ البهجة والمرح، وأصبح الوضعُ تحت سيطرته، فالجميعُ منذ هذه اللحظة في عهدته، لكنّ مولْانا لم يكنْ في حالةٍ تسمح له بأنْ يتلهّى مع اللاهين الذين انصرفوا ليتابعوا منْ فوْرهم، حامتِ الذّكريات من حول مولْانا، فربّما جلبت زبيدة معها ما يشغلُه ويشغبُ على فكْره، صرف مولْانا الأتباعَ مِن حوله الذين لم يلحظوا انشغالَه أكثر ممّا يجب، فقد أثار إعجابَهم ما أظهره شيخُهم من همّة عالية وشجاعةٍ في احتواء الموقف قبلَ أن تنشب معركةٌ ويشتدّ وطيسُها، تحرّك مولْانا بضعَ خطوات بعيدًا عن خيام الغجر، ولكنّ عينه بين الحين والآخر ترمقُ بحذرٍ انْسيابَ الحياة فيها بعد أنْ هدأت الأمور، تعلّقت عينه بخيمة زبيدة قبل أن يتأوّه بصوتٍ عال وهو يقول: لماذا أتيتِ يا زبيدة، أي قدَرٍ ساقَك إلى طريقي مرّة أخرى، إنّ جراح قلبي الممزّق لم تندملْ بعْد.

استمرّت خطوات الشيخ بطئيةً مشتّتة ما بين الخيام حتى ابتعدَ عنها، وقف على مشارفِ السّاحة الترابية التي فرشت بالحصير، وقد تراصّ فيها المُريدون ينتظرون مقدِمَه ليصيح صيحةً عالية ألهبت حماسة الجميع: مَدَد مَدَد، على طول المَدَد.

الرّاقص مع الدّجاج

اخضرّ عودُه في أحضان والديه، كان الكتكوتُ الصغير يملأ البيتَ بهجةً وفرحة، أصبح موضعَ الحفاوة والاهتمام من إخوتِه البنات، هذه ترقصُه، وتلك تراقب حركتَه، تثيره مرّة فيغضب، وتضاحكُه أخرى بأن تغمزَه بلطفٍ في باطن قدمِه فيضحك.

أصبح الكتكوتُ باعثَ السّعادة ومصدرَ السّرور في المكان، الجميع يحبّونه، ساعة اليقظة وصلاتٌ من المرح تفيض بها جنباتُ البيت، وساعاتُ النوم كآبة ومللٌ تخيّم على المكان، أصبح الطفل بوصلة البيت، الجميع يأتمر بأمْر مزاجه.

تتسلّل أخته الصغرى مقتربةً من باب غرفة نومه، تصيح بصوت عالٍ مُقلق علّه يصحو من نومه العميق، تفتعل أختُه الكبرى بدورْها مشكلةً فتنشب المعركة بين الأخوات، تتشابك الأيدي مُفتعلة، ولكنّ الأعين تظلّ شاخصةً جهة باب الغرفة، وبين الحين والآخر، تتسمّع إحداهما طرقاتِ أقدامه الصغيرة القادمة من خلف الباب.

تجري إحداهما تجاه الوالدة، تصيحُ من بعيد حتى تصل إليها:

ـ لقد استيقظ الكتكوتُ الصغير يا أمي، هل أفتح الباب؟

تغمز الأمّ ابنتها في كتفِها بلطفٍ آمرةً إيّاها أن تحضره شريطة أن تعدل ملابسَه قبل أن تفتح الباب حتى لا يتضرّر من تيار الهواء البارد القادم من منْوَر البيت، ففي مثل هذه الأيام يبرُدُ الجو.

تتصارع الأخواتُ فيمَن تحمله الأولى، لكنّه يميل إلى إحداهنّ؛ فهو معلّق بها عن الأخرى، هي تضاحكُه وتلاطفه وتهشّ له وتبش، هي الأقدرُ على حملِه لفارق السنّ بينهما، إنها أختُه الكبرى.

تقف الصّغيرة تسأل نفسَها:

- لماذا اختارها هي دوني! هل يحبّها أكثر منّي؟.. لا يهمّ.

مُتناسية المعاركَ المتكرّرة التي تكيل فيها صنوفَ الضرب والقرص والعضّ لكتكوتِ البيت الصغير...

كانت تحبّه كثيرًا، تعلّقت به مثلَ باقي أهل المنزل، آنس وجودُه فرحتَها، كان مقدمُه حادثًا سعيدًا لديها، رغم تكتّمها الشديد وتحفّظها ألا تبدي فرحتها فهو الأخُ الذي يليها مباشرة.

غيْر أنّ إحساس الغيرة كان يُراودها على فتراتٍ بطبيعة الحال، فهذا شعورُ الصّغار الذي لا يمكن تلافيه في هذه السنّ، يتسلّل مرّات عديدة إلى نفسها عندما تنفردُ به، فتجنحُ إلى المشاكسة، فتخطف من يدِه لعبتَه تعبثُ بها فتعلو الجلبة فترميها بعيدًا من يده، أو تكسرها، وقد تلقي بها خارجَ المنزل إن رحمتْه، وساعةً تقذفها في مدْخل البيت الأمامي، غيرَ مباليةٍ بنداءات الأمّ التي انشغلت في مطبخِها تعدّ طعامهم، وهي تطلقُ بين الحين والآخر صيحاتِ التّحذير عساها تفضّ الاشتباك..

لم يكن الكتكوت مستسلمًا لما قدْ يتصوَّر عنْه من الضعف ولين الجانب، فلم يرضخْ لفارق السن وتفاوتِ القوّة التي قد تخونُه في صراعه، فقد كانت محاولاتُه لا تنقطع؛ إنّه يسعى جهدَه لأنْ يكسر جدار العزلة، ويتخطّى الوَصايا المفروضةَ عليه من المحيطين به، وخاصّة من أخواته البنات، فشغل نفسه يترقب الفرصة التي تتهيّأ له ليصبح سيدَ قراره.

لكنّ الوقت لا يزال فيه متّسع، كما أنّ عودَه الأخضر الليّن لايزال يحول بينه وبين الإقدام على المنازلة وحسْمِ المعركة لصالحه، أو حتى حماية نفسه من سطْوة الأخوات، فهو الآنَ مَهيض الجناحين، معدودُ الخطوات، لا يستطيع تحمّل مشاق الخروج من تحت الوصاية، كان يتعذّب من هذه القبضة المُحْكمة، والطّوق المفروض عليه، والحبل الطويل الممدّد الذي يقيده، ويشلّ حركته.

كان صوتٌ يتردّد من داخله بين الحين والآخر، ويلقي في هواجسه عباراتٍ مؤلمة:

- أنت لا تزال صغيرًا بعْدُ يا عزيزي، الأجدى بكَ أن تبتعد عن المتاعب والمشاكسة.

كانت نظرتُه كلّها مشبّعة برغبةٍ دفينة في التفلّت، وبدتْ عيناه غارقةً في تمرّدها الذي لا ينقطع، وعلى الرغم من أنّه لم يخطُ خطوةً على قدميه دون مساعدة، ولا يزال يفترش الأرضَ كفرخ الطير الصغير الذي سقط من عشّه، حتى بعد أن تشجّع وهمَّ من جلستِه لا زالت خطواتُه تخونه، فها هو يخطوها بصعوبةٍ في ممرّات البيت، وداخل حجراته، يسقط مرّة، وينهض أخرى، يتخبّط في الجدران، ويتعثّر في أغراض البيت، ويستند على الأبوابِ والمقاعد والطاولات.

تظلّ عيناه معلقةً بالضوء القادم من فوق السّلم، كان يتلهّف شوقًا ليجد من نفسِه القوة فيصعد فوق السطح، كان السلمُ ودرجاتُه الكثيرة المتراصّة تمثّل عقبةً كؤودًا في طريقه، مرّن نفسه مرّات عديدة في محاولات فاشلة لاقتحام هذا العالم المجهول.

كانت محاولاتُه- في أغلبها- تبوء بالفشل، فالنتيجة كانت معلومة ونهايتها محسومة بالنسبة إليه، والعواقب في جُملتها محصورةٌ ما بين الإمساك به وهو يهمّ بالصعود واستدعائه على وجْه السّرعة من قِبَل أخته الكبرى، التي كانت مكلّفة بمراقبة حركته فهيَ معه في كلّ خطوة يخطوها وإنْ لم يعلم بوجودها، هيّأ لها مكانُها من والدتها أنْ تحظى بالاقتراب منه، فتنقضّ عليه عندما تحين الفرصة، وتحولُ بينه وبيْن الصعود في اللحظات المناسبة، وقد يعانده النجاح في بعض الأحيان لأنّ أمّه سعتْ أنْ تضع أمامه متاريسَ تسدّ عليه طريقه، لا تخرج عن الاستعانة بطستٍ من النّحاس أو قفصٍ من الجريد، تتحطم أحلامه ساعة الوصول إليه.

كانت خطواتُه التجريبية إلى السطوح والتي تمرّ بمراحل عدّة من النجاح غير المكتمل، أو يتمّ وأدُها قبل أن يخطوها؛ تمثّل بالنسبة إليه تحفيزًا يثير فضوله ويشغلُ تفكيره، ويشعلُ جمرةَ حماسه من جديد، ويجعله يتوخّى الحذرَ في مرّاته المقبلة، فيعمدُ إلى جعل فشلِه علاجًا يعالج من خلاله هذه الإخفاقات، لكنّ عينَ الرُّقباء لن تدعه يساير أحلامه أو يجاريها في سكينةٍ وحسبَ ما يتمنّاه دون إرغامه إلى تغيير مساره، فالكتكوتُ لا يزال ليّن العود، مهتزَّ الخطوة، وفرصة التعرّض

للإصابة هاجسُ كلّ مَن حوله، والحرص على سلامته من واجبات الجميع بما فيهم أخته الكبرى وأمّه في بعض الأحيان، فعلى الرّغم ممّا تخفيه من غيرةٍ مُعلنة، وتحرّش لا ينقطع بالصغير، تشهد بذلك تعبيرات يدها التي تتخطّفه مرّة بالقرص وثانية بالشدّ والجذب، ومرّات بإعاقته أحيانًا عن السير بلا داع، وصولا إلى تحطيم ألعابه في غفلة الوالدة.

لكنّ محبّته والحرص عليه فطرة الأخوة، وضمان رضا الوالدة ونيْل عطاياها التي لا تنقطع، والتي تُمنح لمَن يضمن سلامة الكتكوت الصغير، أو على الأقلّ مراقبة خطواتِه في البيت، خلقت هذه المنافسة بين إخوته البنات صراعًا محمومًا لا يفترُ أبدًا، جعل من الوشاية سبيلا لجني أقصى النقاط.

ظلّ الكتكوت الصغير يخفقُ في تحقيق حلمه الذي أشغله وجعل يراودُه ليلَ نهار، أصبح هوسُ الوصول إلى السطح على رأس أولويّاته، كان الصغير عنيدًا لدرجةٍ تمنعه أن يتخلّى عن أحلامه ولو للحظات، كان يُعير اهتمامه لهذا العالم المجهول، فيرقبُ بحرصٍ القادمينَ منه بشغف واهتمام، يستمع الأصواتِ القادمة من أعلى، يضحك مرّة، ويسكت أخرى، أدركت الوالدة مبكرًا هذا الفضول، فكان الحرصُ يلزمها أن تحتاط لحركاته، وتتعقّبه برقباء ينالون جوائزها السّخية، ويرفعون إليها التقاريرَ الشّفهية أولا بأوّل.

جعل اهتمامه منصبًّا على ضيوف السّطح من القطط على اختلاف أعمارها والمتسلّلة على الدّرج تنتظر فضلة الطعام تلقى إليها بعد كلّ وجبة، أثار منظرُها وعيَه الصغير فقد ألفها فضوله الزائد، فيلقي إليها ما بين يديه من طعام، علّه يظفر بالقرب منها، وجدت القطط فيه السمير الذي لا تخشى أذيّته فكانت تحلق مِن حوله تحتكّ فيه بجسدها الصغير دون إزعاج أو خوف، مثلت له هذه القطط بداية الخيط الذي سيربطه بعالمه الذي يحلم به، والذي يبحث عن أسبابه.

لم ييأس الكتكوت أو تفترُ عزيمتُه يومًا ما، فعمدَ إلى مواصلة مساعيه التي أفرغ فيها طاقته، كان يكبرُ وتكبرُ معه هذه الأحلام، ومع تعاقب الأيام والشهور بات الكتكوتُ الصغير يمتلكُ من القوّة ما يمكّنه من

الاعتماد على نفسِه بعد أن استقامت مشيتُه، وقوي عودُه اللين، فانتعشت روحُه واقترب من حلمه الذي أصبح على مرمى حجَر.

انتظمت خطواتُه، وعادت إليها ثقتها فثبتت بعد أن كانت مهزوزة، الآن بمقدوره الاستغناءُ عن الوسائل التي تعينه في الماضي، تمدّد الفضاء أمامه يتجوّل بكامل حريته، وحسب السّرعة التي يحدّدها هو، اكتسبت أجنحة الكتكوت قوّتَها، وبقيت قادرةً على حمله ليتخطّى سجنه المفتوح، آن الأوان ليثبتَ لمَن حوله أنه طليق يرفرف خارجَ أسوار قفصه مثلَهم غير مشمولٍ برعايتهم، آنَ لعيْن الرُّقباء ووصايا الكبار أن تسقط عنه، فهو لا يقلّ عنهم في شيء، فلا تعيبه غير بضعة أعوام تنقصُه عن أخواته الكبار، وحتى هذه لا تمنعُه مباشرة حقوقِه أن يكون حرًّا يكتشف عالمه.

هُيّئتْ له الفرصة يومًا ليصعد على الدرج، غير أنّ فرحته لم تكتمل بعد فقد كان حافيَ القدمين، لسعتْهُ أرضُه المشتعلة مِن لهب الشمس، تراجع إلى الظلّ أسيفًا، ولكنْ ظلّت عينه معلقةً على الدرج، ترى كيف يكمل مسيرته للأعلى؟

أدرك من فوْره أنّ الاستعانة بنعلِه الصغير سيسهّل عليه هذا العناء ويحميه من حِمم اللهب المتدفقة على الأرض، ويضمن له الاستمتاعَ بوقته على السطح.

أعجبت والدته مِن هذه الجرأة، دفعها طموحُه أن تلتصق قليلا متواريةً عنه بجوار الباب المطلّ على السلم، في سعادةٍ غامرة شهدت أولى خطوات كتكوتها الصغير.

أخيرًا وبعْد طول عَناءٍ وصبر مضنٍ، أخذ طريقه إلى الدرج، دبّت أقدامه عليه بكلّ ثقة وثبات وعزم وتصميم، دفعه الفضول لما ينتظره على السطح أنْ يثب إلى السلم وثباتٍ متتاليةً منتظمة، تدفعها رغبة قديمة لاكتشاف هذا العالم المجهول.

كان الطريق خاليًا من المتاريس أخيرًا، وله ثغرة ينفذ منها دون عائق؛ فلِحُسن حظّه نسيتْ والدته أن تضع ما تعوّدت وضعَه ليعيقه عن المرور إلى السطح.

كان هذا من حُسن طالعه، ربّما هذا ما دفعه إلى المضيّ في صعوده بقوة وهمّة، وصل إلى مشارف السطح، توقّف لحظات قليلة يعيرُ سمعَه إلى ما ينبعث عن المكان من أصواتٍ بدت في أوّلها مُتداخلة، فالصيحات تتطاير غريبةً تملأ المكان، واصلَ صعودَه بلا توقف.

احتضنَه الفراغ الواسع، ابتلعه السطحُ منذ أن وطأته أقدامه، أمسك بطرف السّلم، استندَ قليلا يستريح من جهده، بدأ ينظرُ مِن حوله بلهفة، كان المنظر غريبًا أوّل أمره، عجّ المكان بدجاجات أمّه وأوزّاتها، صغيرها وكبيرها، تجري متناثرةً هنا وهناك، تلتقط الحَبّ المبعثر على الأرض وتشرب من أواني الفخار التي وزّعت بجانبها.

توقّف دقائق يراقبُ هذا المشهد في فضولٍ كعادته، لم يألف ما أمامه لكنّه أدرك أنّ ما خفي كان أعظم، وما أنْ بدأ في التحرّك واصطكّت نعاله بأرضية السّطح فأحدثت صوتًا غريبًا أزعج هذه المخلوقات الصغيرة التي هربت وتشتّتت على الفور، تراقب مِن بعيد هذا المقتحمَ الصغير.

كانت هيأته غيرَ مألوفة لديهم، لكنّه على كلّ حال وافدٌ جديد، قد يبطن لهم الأذى أو يلقوْا على يديه الشّر، فهي تعوّدت مثل هذه الحركات التي في أغلبها ما تنتهي بإراقة دمِها على سكينٍ لا تأسف على حالها.

جعل يصفّق على يديه يستدعي انتباهَ الدجاج النّافر من أمامه، أمسك بحصواتٍ قليلة يقذف بها فراخَها المشتّتة، توالت رمياتُه ولكنّها على حرصه لم تكنْ موفّقة، وتسديداتُه لم تكن تلبّي طموحه فلا يصل مداها إليهم، فقد أخذوا حذرَهم، ليقفوا متراصّين أبعد من مرمى مقذوفِها.

تجوّل يتفحّص السطح، يدفعه فضول الطفولة وشغفها ليجوبَ المكان من مختلف جوانبه، مدّ يده الصغيرة يعبثُ بمحتوياته، كانت في أغلبها أمتعة قديمة أخرجتها أمّه إلى السطح، متعلقاتٌ لا يعرف ما هي؛ فقد احتوتها أجولة كبيرة مربوطة بإحكامٍ ومسندة إلى الجدار.

كانت طلعتُه الأولى إلى السّطح قصيرةً بعضَ الشيء، وإنْ كانت على ما يبدو ناجحة، فقد استطاع أن يثبتَ لنفسه ولمَن حوله أنه يستطيع

أن يرتقي الصّعاب، وأنّ شيئًا لن يحول بينه وبين أن يكتشف بنفسه عوالمَه الخاصة.

وفجأة، امتدّت يدٌ لتمسك بذراعه من الخلف، التفت إليها، وضحك ضحكات متكرّرة، إنّها أمّه، حاول بادئ الأمر التملّص من يدها التي أمسكته بإحكام، غير أنّه لم يجد بدًّا من الاستسلام في النهاية بعد أنْ وعدته بقطعة من النقود، إلى جانب ما ألقته إلى مسامعه من انتظام إخوته البنات على طاولة الطعام يتناولنَ طعامهنّ اللذيذ، وعليه أن يلحق بهنّ.

تحرّك الكتكوت الصغير مرغمًا مع أمّه، لم يجد بدًّا من النزول عن السطح، غيْر أنّ عينه ظلّت معلقة طويلا بالمكان، ينظر بشغفٍ شديد إلى سكّانه، الذين بدؤوا يتنفّسون الصّعداء حالَ تأكّدهم من انصراف الوافد الصغير، الذي لا تعرف نواياه لكنّ الأمور حتى الآن تسير على ما يرام.

تدلّى من على السطح، أخذ مكانه في حجْر والدته التي تناوبت إطعامَه بعض لقيماتٍ صغيرة سهلة المضغ، لكنّه كان مشغولَ البال بالسطح وأهله، الذين بدأت صيحاتُهم في التعالي مرّة أخرى فرحًا بخلوّ المكان من المقتحمين واستبشارًا بتباعد الشرّ الذي حوّل مساره بعيدًا عنهم، فقدْ خلا السطح وآنَ لهم أخذ راحتهم في التقاط الحَبّ والاستمتاع بالماء البارد.

أصبح الكتكوت أسيرَ السطح بكلّ ما تعنيه الكلمة، أقلقه هذا الشعور حتى في ساعاتِ لعبه بين إخوته البنات، بدا مُتكاسلا منعزلا منطويًا عن مخالطتهم على غير العادة، تقذف إحداهنّ تجاهه الكرة، فيكتفي بأنْ يتابعها بعينه، لقد نسي وظائفَ قدمه التي كانت تركلها في السابق، وتتعالى صيحاته، مصفقًا أنّه أصاب الهدف.

حاولت والدةُ الكتكوت- بلا فائدة- أن تلهيه عن معاودة الصّعود، لكنّ جهودها ذهبت هباء، حتى محاولات إخوته البنات لم تؤتِ ثمرتَها في جذبه إلى ساحة اللعب والانشغال بقطع المكعّبات ذات الألوان الجذابة، إنّها لعبته المفضلة التي كثيرًا ما أوصى والده أن يجلبها إليه عند عودته من السفر، جعلت الأمّ تتعجّب من عزلته التي أبداها دون سببٍ

صريح، لكنّه لم يكفّ عن ترديد عبارات غير مفهومة مصحوبة بميلٍ شديد إلى الصمت، لكنّ فكرَه مشدوهٌ لما يحدث على السطح.

لم يكنْ أمام الوالدة إلا أنْ تعطيه الفرصة كاملة، فقد تكون رغبتُه مجرد فضولٍ ينتاب الصغار في مثلِ هذه السنّ، وسَرعان ما يتلاشى مع تقدّم صاحبه في العمر واختلاطه بمَن حوله، عاود أدراجَه مرّة أخرى إلى السطح دون عوائق، انسحبت عنه أعينُ الرّقباء تدريجيًّا بعد توصيةِ الأمّ بمراقبته عن بُعد، تناوب إخوتُه البنات نوباتِ الحراسة لكنّه مع مرور الوقت فترتْ عزيمتهم وأخذَ الملل يتسلّل إليهنّ، فقد اعتادوا على ذلك فأصبح الأمر أشبه بالرّوتين، وبعد مدّة يسيرة أمرتهم الأمّ أن يتركوه وشأنَه، خاصّة وأنّ فترة عزلته في البيت كان يتخلّلها نوباتٌ قاسية من التعصّب الذي دفعه أن يفرغه في محتويات المنزل فيحطّمَها، أو العبث بمفاتيح الإنارة وصنابير المياه بين الحين، الأمرُ الذي أرغمهم على وضْعه تحت المراقبة، أو بالأحرى تحت الملاحظة من بعيد.

كان سكانُ السطح من الأوز والدجاج على موعدٍ مع ضيفهم الثقيل الغامض مرّة ثانية، فهُم لا يفهمون سببَ عودته حتى الآن، لكنّهم على كلّ حال في حذرٍ منه، فربّما انْساق وراء فطرته البشرية فيحاولُ الاعتداء عليهم، فضّل الكتكوت أن يرابط على مسافةٍ ليست بالقصيرة من قفصٍ صغير من الجريد، وضعتْ بداخله الوالدة بضعَ أوزات صغيرة.

تحرّك تلقائيًّا تجاه الصغار، كان منظرُهم مثيرًا بالنسبة إليه، خاصّة ألوانهم المتداخلة وأصباغ الريش الأصفر والأخضر، مع مناقيرها البرتقالية، وصيحاتها التي أحدثت ارتباكًا ملحوظًا وهرجًا ومرجًا حول القفص، غير أنّ الفضول تزايد لديه فدفعَه التطلّع إلى أن يفتح السّدة الأمامية من القفص ليخرج واحدةً مِن بينهم يعاينها.

تناوبَ الأوز الصغير والكبير الصّراخ، فالخطرُ يداهم الجميع، ومِن المنتظر أنْ يشملهم، فهذا الكتكوت الصغير- على ما يبدو- يوشك أنْ يتعدّى حدوده وبدأ يكشف عن نواياه.

لكنّه تنبّه أخيرًا إلى القلق الذي تسبّب فيه؛ فأعاد الصغيرة مرّة أخرى إلى القفص، بعد أن أحكم إغلاق السّدة.

زادَ من إحكامها بيده، ثمّ تنمّر بعينيه يتفحّص المكان بشغفٍ ليجد جوالا مملوءًا بالحبّ، فقبض حفنةً منه نثرها من أعلى القفص لتتساقط فوق الأوزات الصّغار، ظنًّا منه احتياجها إلى طعام، وأنّ صراخها دلالة على الجوع، تمامًا مثلما يفعل مع أمّه.

غاب عنه أنّ هذه الصغار لا تأكل الحبّ، فمَن في مثل عمرها يُصنع لها طعامٌ خاصّ يناسبها، فهي تحتاج إلى أطعمةٍ سائغة سهلةِ البلْع.

ارتابَ من سكونها وتراخيها المبالَغ فيه عن التقاط الحبّ المنثور، سأل نفسَه مستنكرًا:

- تُرى ما الخطأ في الموضوع! لماذا تقف هكذا جامدة؟

لكنّ كرمه باءَ بالفشل، لم يمكّنه سخاؤه المفتعل من بلوغ الحظوة لديهم أو كسر حاجز الرهبة لدى فراخهم الصّغار التي تعالت أصواتهم، وعاود الاضطرابُ يعمّ المكان من جديد، فازدادت حركتهم داخل القفص، ممّا جعله يعيدُ حساباته مرّة ثانية، وتبتلعه حالة من الشك في جدوى ما أقدم عليه، وأطرق قليلا يفكّر.. ماذا يفعل معهم؟ وكيف يكسب ودَّهم!؟

ابتعدت الدجاجاتُ لتجد لها مكانًا قصيًّا تنظرُ من بعيد، هل لا يزال هذا المقتحمُ الصغير على عهده القديم، لا بدّ أنه يضمر في نفسه السوءَ كغيره من بني جلدته.

تقدّم خطوةً للأمام، اقترب من الأوزات الكبار، لم يفهم صيحاتهم المتكررة وشعور الاضطراب البادي عليهنّ، حاولنَ الفرار والاختباء منه دون جدوى.. وبعد فترة انصرف عنهنّ دون إيذاء، سكت الصوتُ المنبعث من السطح، عاود أدراجه إلى جوال الحبّ، وأمسك بين يديه قبضةً جديدة ينثرها بعنف.

بدأ الكتكوت ينثر الحبّ، يوزّعه في كلّ مكان، تردّدت بعض الدجاجات في الاقتراب منه، فلا يزال الخوفُ يقلقها، فهي لم تطمئنّ بعْد إلى القادم، ويداخلها الخوفُ والترقب، فمَن يدري ما يخبّئ لها القدر!!

وبعد لحظات، تحرّكت جماعة الدجاج، تتسابق في التقاط حبّات القمح بعد أن بلغ بها الجوع مبلغَه، ارتسمت البهجة على محيّا الصغير من منظرها الذي أرضاه.

شعر أنّه أسدى إليهم خدمة جليلة، ووجدَ ما يمكن التباهي به أمام والدته التي أعطته الفرصة كاملة هذه المرّة، وبين أخواته يثبت لهنّ أنه أصبح ممّن يُعتمد عليهم، ولا مانع من إسناد بعض المهامّ وطلب الدعم منه وقتَ الحاجة.

شعرَ بالارتياح والنشوة التي دفعته إلى مغادرة السطح والنزول ليزفّ هذا النبأ السعيد إلى أهل البيت، جعل يصيح بأعلى صوته، تعدّدت نداءاته مع كلّ درجةٍ يهبطها، أراد أن تكون والدتُه أوّل مَن يعلم بالإنجاز..

اقترب منها، وقال بصوتٍ متكسّر، ولكنّه مفهوم لديها:

- لقد نثرت الحبَّ للدجاج، أصبحت كبيرًا مثل إخوتي....

بادلته الوالدةُ هذه الفرحة، كانت سعادتُها عربونَ ودٍّ داعب حماسته المشتعلة، فزاد من إصراره على مواصلة العمل بجدٍّ في المرّات القادمة، أثنت الوالدة على صنيعه، بعد أن طلبت منه توخّي الحيطة وتجنّب الخطر قدر المستطاع في المرّات المقبلة.

بدأ الكتكوتُ الصغير يتنفّس الصعداء، فقدْ أصبح له كيانٌ بين جدران المنزل ووسط أخواته، ونال حظّه من حفاوة الأمّ واهتمامها.

لكنّ هذا الإعجاب كان يقلقه ويزيدُ من أعبائه، خاصّة وأنّ الدجاجات والأوزات لا زالت تعامله كوافدٍ لا يليق به أن يتخطّى حدوده، أو أن يكون جزءًا من المكان، فللسطح أهلُه.

كان أمامَه عقبةٌ كبيرة فبات من المحتّم أن ينوّع من مصادر تقرّبه من رفقاء السّطح، فكّر أنْ يُدخِل على عمله بعضَ التطوير، فلا مانع من تنويع مصادر الطعام لهم.

فلا ضيرَ أنْ يجمع قشورَ البطيخ أو فضلةً من مطبخ أمّه، أو أعواد من البرسيم يحضرها من بيت جدّه القريب منه.

لاقى بهذا الفكْر السخيّ القبولَ عندهم، ومِن ساعتها تعوّدوا الخيرَ ساعةَ مقدمِه.

وبمرور الوقت، زالتِ الرّهبة والحذر الذي أبدوه في السابق، شعروا أنّ الكتكوت الصغير موضعُ الثقة والقبول، حتى أنّ فريقًا منهم نسي أنّه من بني البشر، وتصوّر وكأنّ الكتكوت الصغير فصيلٌ منهم، انضمّ إلى رفاقه.

زادَ هذا من إقباله عليهم، فاجتهدَ في عمله الجديد، الذي تفرّغ له، وأصبح شغله الشاغل، فلم يعدْ يُرَى بين إخوته البنات إلا نادرًا، حتى أوقات الطعام يفوتها، لم يعبأ بنداءات أمّه، التي كانت تطلقها مصحوبةً بالوعد والوعيد، فهي لم تقفْ في طريقه، ولكنّه يجب أن يكون على قدْر المسئولية.

اتّخذ لنفسه مجلسًا على كرسيّه البلاستيكي الصغير بجوار الحائط يستظلّ من حرّ الشمس، كانت الدجاجات قد تحلّقت من حوله تداعبُ سروالَه القصير، تلمس بمنقارها نعلَه مرّة، فلا مانع من أن يمرّر يده على ريشها بلطفٍ بين لحظةٍ وأخرى، بدتِ الدجاجات وكأنّها مستسلمة لهذا العابث الصغير، الذي أصبح باعثَ بهجتِهم، ومدخلَ السرور عليهم.

وفي ساعات القرب منهم، شعرَ بثقته تعودُ إليه من جديد بعد أن تسلّل الفزع إليها لحظات صدود سكّان السطح، أضحى بينهم كبيرًا مُهابًا ينظر إليه الجميع نظرةَ احترامٍ وتوقير، يتلمّسون خطاه، وينتظرون طلعته إلى السطح بشغف، ويقدّرون سخاء يدِه الممدودة إليهم دائمًا بما لذّ وطاب، تنثره كمَن لا يخشى الفقر.

لم يعدْ صغيراً يُخشى عليه، لقد تغيّرت نظرةُ أمّه التي استهانت بطلعاته تلك، وقالت في نفسها:

- صغيرٌ يلهو، ولا مانع من ذلك، جميعُنا مرّ بهذه السن.

لكنّها كانت تقف مذهولةً كلّ مرّة عندما ترى أمامها كتكوتَها الصغير وقد تحلّقت من حوله أوزات السّطح ودجاجاته بلا خوف أو قلق، يوزّع عليهم طعامَه، وهُم في سعادة، تمامًا كما يقف القائد يحوطه جنده في حبّ واطمئنان على غير العادة، كان يطرأ على بال الوالدة كلّ مرّة سؤالٌ لا تجد له إجابة:

- ماذا صنع كتكوتها الصغير بهؤلاء!!؟ وما السّرّ؟

وفي مرّة من المرّات ودون وعي منه، سمعت حديثَه معهم، أذهلتها نبراته وحواره العاقل الذي يتنافى وسنّه الصغير، حين اقتربت منه دجاجة كبيرة لتقفَ بجواره في سكونٍ وهدوء، أمْسك برجْلها وهو يحدّثها بحديثٍ هامس غير مفهوم، لم تع منه غيرَ بضعة كلمات..

- ألف سلامة، ماذا حدث لك؟!

ظنّت في البداية ابنَها يعبث في قدَم الدجاجة، لكنّ الذهول أصابها من الهدوء الذي أبدته مع يدِه التي لا تزال تعبثُ بها، حاولت استطلاعَ الأمر فكانت النتيجة مُضحكة، إنّه يزيل عن رجلها شعرةً التفّت حولها تسبّبت في ألم مفاجئ أعاقها عن السّيْر.

حاول الصغيرُ إزالة الشعرة التي التفّت بصعوبة، ولكنّه نجح في النهاية، تحرّكت الدجاجة بعيدًا عنه بعد أنْ رفرفت بجناحيْها سعيدة، وكأنّها تعلن عن امتنانِها وشكرها لهذا الصنيع الذي أسداه.

لم تخفِ أمُّه فرحتَها من هذا التصرّف الجميل، لكنّها ظلّت تجهل السرّ الذي يربط ابنها بهذا العالم، وأحاديثه الغامضة المتكرّرة، والتي غمضت مفرداتها.

اعتاد الكتكوتُ الصغير أن يحدّث أمّه أولا بأوّل بجميع أعماله على السطح، يحكي لها تصرّفات الأوزة الكبيرة مع صغارها، وكذلك ما فعلت الدجاجة مع أختها التي أصابت الحصا قدمَها فجعلتها تعرج،

ومساعدته للأوزة الصغيرة في النّجاة من الغرق في الماء بعد أن سقطت بداخله لارتفاع جوانبه، بدتْ على ملامحه الحماسة الزائدة والاندفاع في الحكاية، كانت الوالدة تعيره من اهتمامِها ما يكفي، لكنّها لم ترَ بدًّا من أنْ توكل له بعض المهامّ الإضافية، فثقتُها فيه ها قدِ اكتملت بعد أنْ أثبت جدارته واستحواذه على السطح وتفرّدَه به، آنَ الأوان أن يساعدها في أمور السطح.

أوكلتْ له أن يجلب من فوق البيض، اصطحبته ذات مرّة لتطلعه المكان الذي تبيضُ فيه دجاجاتها، اعتبرت أنّ هذا العمل بمثابة تكليل لجهوده، وشهادة تؤهّله لأن ينفرد- بلا منازع- بهذا السطح وسكّانه.

رفع هذا التكليفُ الجديد من معنوياته، فقد فوّض من قِبَل والدتِه بمتابعة ملفّ جديد ومهام جديدة.

رجع مسرورًا إلى أصدقائه من سكّان السطح ليزفّ إليهم هذا النبأ السعيد، الذي زاد من مساحات القرْب بينهم، بدوْا وكأنّهم في انتظاره ليشاركوه أفراحه ويبادلوه سعادتهم، فهو الأجدرُ على حمل هذه الوظيفة.

زادت هذه النجاحات من فرصتِه للاقتراب منهم، فها هو يكسب كلّ مرّة جولة جديدة في معركة السيطرة.

كان يدرك حجمَ المعاناةِ التي تتطلب من الجميع أن يكونوا على قدْر المسئولية، لم يطلبْ منهم سوى السّمع والطاعة، وحفظ النظام.

كانت مهمّة إحضار البيض جديدةً عليه بعضَ الشيء، فهو حديث عهدٍ على هذه التّكليفات، لكنّه رجع يومًا إلى أصحابه يسألهم المشورة، فأفضى إلى ما يربطه بوظيفته بحبلٍ وثيق، ويمنحه من الخبرة ما يجعله يؤدّي مهامّه على الوجْه الأكمل دون تشويش.

فللدجاجات ساعة بيضها أصواتٌ تردّدها، وصيحاتٌ تطلقها أشبه ما تكون بأجراس الإنذار، أو أدوات التّنبيه تختلف عن أصواتها الاعتيادية المعروفة، والذي يتوجّب من فوْره التوجّه على وجه السرعة ليجمع البيض من المكان الذي أخبرته والدتُه به.

ومع مرور الوقت، تمرّس الكتكوت الصغير على هذه الوظيفة، وأصبح لديه الأذنُ الحسّاسة التي يميز بها بين أصوات الدجاج، منصرفًا دون وعي إلى جمع بيضاته.

لم يمرّ الأمرُ مرورَ الكرام دونَ بعض المنغّصات، فقد تعارضه مشاكسة بعض الدّجاجات التي اعتادت السّطو على البيض من تكسيرها والتهام مُحتواها، والذي كان مصدرَ قلقه، وموضع توبيخ من الوالدة التي اتّهمته بالتّقصير في أداء واجبه، وعليه أن يحذر هذا.

عادَ إلى السطح وبدتْ عليه علاماتُ الغضب والثورة، بعد أن أخلّ البعض بالنظام المُتّبع، وخروج نفرٍ من تحت مظلّة المواثيق والعهود المعقودة بينهم.

لم يكنْ كعادته كلّ مرة، فقد أزعجه هذا التصرّف الفردي، اجتمعت حوله حومات الدجاج والأوز، كان مزاجُه سيئًا بعض الشيء، هشّها عنه مرّة تلو المرّة، كان يريد أن يجلس بمفرده يرتّب أوراقه، على الرّغم من تأكيد الجميع بأنّ العمل كان فرديًّا، وتعهّد المذنب ألا يعود إلى فعلته ثانية، لكنّه ظلّ واجمًا...

وبمرور الوقت استتبّ له الحال، انتظم له أمرُ السطح بسكّانه بشكلٍ كامل أكثرَ من ذي قبْل، كان صوتُه المتصاعد من أعلى يثير في أمّه الفرح تسمعه أحيانًا كثيرة يوبّخ البعض، ويضاحك الآخر ويعاتبُ آخرين، ويعدهم بالرجوع مبكرًا عقبَ انتهاء اليوم وحلولِ الظلام، أحسّ الصغير أنه فردٌ في هذا العالم الصغير في مساحته، الكبير في مشاعره وشئونه، انفعل معهم وانفعلوا معه.

حزنَ لحزنهم، وفرح لفرحهم، شاركهم همومهم، فشاركوه أفراحه كثيرًا ما تأثّر لفقد صغيرهم أو مصاب كبيرهم، كان يشعر أنّ الموت هو عدوه الوحيد، الذي يخطف منه أصدقاءه وأحبّاءه، كثيرًا ما كان يعود إلى أمّه مسرعًا يطلب منها النّجدة لمرضٍ ألمّ بأحد الدجاجات، كثيرًا ما سهر قلقًا وهو الكتكوت الصّغير كاسف البال لمرضٍ ألمّ بهم، أو إصابة حلّت فيهم.

طلبت منه ذاتَ يوم أن يحمل دجاجة نافقة يلقيها في الخارج، كان للكلمة وقعُها الحزين على نفسه، ذهل لتهاون أمّه في إطلاق مصطلحاتها هكذا دون تقنين، تساءل مع نفسه:

- ألقيها... كيف يكون ذلك، أليست مخلوقًا من مخلوقات الله، إنني بفقدها أفقدُ صديقًا... ألا يليق بالوالدة أن تستعمل تعبيرًا أخفّ وطأة وقسوة من هذا!!

كانت الأمّ تعرف حجم ارتباطه بهذا العالم، لكنها كانت تريد أن تعوّده تجاوز هذه المرحلة الصغيرة، فالدجاج خلق الله الذي أوجده لمهمّة محدّدة في الحياة، فهذا قدره المعلوم، كان في أوّل الأمر ما يعارضها يرفض وبشدّة متعلّلا بأسبابٍ واهية، لا تخرج عن دائرة التعب أو الانشغال أو الخوف من كلاب الشارع التي تتربّص بهذه الوجبات.

لكنّه أدرك أنّ الأمر عادي، فعندما يعود إلى دجاجاته بعد إلقاء إحداهنّ يبدو عاديًّا، فالحياة منتظمة والجميع منصرفٌ إلى حياته اليومية فلا مآتم أحزان، ولا عويل ولا صراخ ولا حداد مقارنةً بحال البشر.

أدرك- من تلقاء نفسه- أنّ المسالة كما وصفتها الوالدة، فتعامل على هذا الأساس مع مَن حوله، لتخفّ من بعد ذلك حدّة انزعاجه.

كبرَ الصغيرُ مع مرورالأيام، انشغل بأشياء جديدة اقتحمت عليه حياته وأخذته قليلا من دنيا السطوح، ولعلّ الذهابَ إلى المدرسة اقتطع منه بعضَ الاهتمام؛ فقد خصّص له أوقاته التي يلزمها، لكنّ عالم الدجاج لم يغبْ عنه لحظة، كانت دجاجاته تشاركه كلّ شيء حتى داخل مدرسته، يشرح الأستاذ لتلاميذه مستشهدًا بأعداد الدجاج فيقول مثلا:

- لدينا أربع دجاجات، وأخذنا دجاجتين، وكذا.....

كانت حكاياتُه بين زملائه مملوءة بصخب السطح ودجاجاته المحبّبة، ظلّ يسامرُهم بأحاديث السّطح الشيقة، ويقصّ عليهم من خياله الصغير ما يقضي معه الوقت داخل مدرسته، وحتى أثناء الذهاب والعودة منها، كان زملاؤه يتعجّبون من هذه الأحاديث وقدرتِه العجيبة على السّرد بطلاقة، تجاوب القلّة معه ومع حكاياته، لكنّ غالبيتهم لم يبدِ اهتمامًا، شعروا أنّ صاحبهم يتحدث بحكايات من كوكبٍ آخر، كيف له أن

يحدّثهم بهذه السخافات، نظروا إليه على أنّه غريب الأطوار بعضَ الشيء، لكنّه أقبل على كلّ حال بحكاياته يرويها لمَن تجاوبوا معه على ثُدْرتهم.

يمدّهم بها كلّ يوم، كان زملاؤه ينتظرون قصصَه ومغامرات دجاجاته كلّ يومٍ بفارغ الصبر، فتراهم بيْن ضاحكٍ وساخرٍ ومُنصتٍ حزين عند حلول مأساة.

لم يكنْ يقوى على فراق هذا العالم، فقد كان شوقه يحرّكه، فعند عودته من المدرسة كان أوّل شيء يفعله أن يصعد إلى السطح يزفّ إليهم نبأ وصوله سالمًا بعد ساعات قضاها، كانت دجاجاته أوّل مَن يشاهد مقدمَه، وفي أحيان كثيرة يسبق والدته وإخوته، كانت الوالدة تعلّقه على فعله، فهو الآنَ مطالَب بأداء الواجبات المدرسية ومذاكرة دروسه، ولا مجال لهذه الأعمال الصبيانية فقد كبرَ وأصبحَ في عِداد الرجال على حدّ زعْمها.

أبدى شجبَه ورفضه لهذه القسوة، لكنّه كان يعرف حرصَ أمّه على مصلحته، ولا بأس من الصعود بين لحظةٍ وأخرى للسطح لرؤية الدجاج أو لجلب البيض أو إحضار الماء والطعام، كان الدجاجُ ينتظر مقدمَه على أحرّ من الجمْر، عوضًا عن تراخي الوالدة وبناتها اللاتي انشغلنَ بأعمالهنّ، ونسينَ في بعض أحيانٍ إطعامَ الدجاج الذي أشرف على الهلاك بعد أن نفد الطعام ونضبَ الماء.

يلتفّ الدجاج مِن حوله يخفقُ بأجنحته، تصيح الدّيكة من فوْرها عند مقدمه، كان الكتكوتُ تبدو عليه علاماتُ السعادة وهو يشاهد فرحتهم لمقدمه، فيزيد من إصراره على صلتِهم والتّغاضي عنْ تعنيف الوالدة وتوبيخها.

جرتِ الأيام سراعًا، وأصبح الكتكوت وسط مدرّجات الجامعة، لكنّ أحاديث الدّجاج تلازمُه، وهوسُ الحكايات والقصص يتسلّل إلى أحاديث الكبار بين الحين والآخر دون وعيٍ أو ترتيب، على الرّغم من تنبيه بعض زملائه الذين لاحظوا تكراره ضمن أحاديثه مفردات وألفاظ من عالم الدجاج.

حاولَ التغلب على هذا الأمر مرارًا، لكنّ ذاكرته وحرصَه كانا تخونانه أحيانًا، لكنّه استطاع في النّهاية على مضضٍ التغلبَ على هذا الأمر وضبط حديثه في إطار المعقول.

ظنّتِ الوالدة أنّ كتكوتها الكبير، الذي أصبح ديكًا ضخمًا استطاعت الجامعة وحياته الجديدة أن تلهيَه عن السطح وعالمه، لكنّها أدركت في النهاية أنّ ابنها لصيقٌ بهذا العالم، حتى بعد أنْ أصبح في عِداد الرجال.

كان انشغاله بهذه الحياة الصغيرة يتيح لمَن حوله فرصة التندّر عليه، فأحيانًا كثيرةً ما تعمّد إخوته البنات اللاتي تزوّجن مشاكسته والتسلّي، بعد أنْ نسينَ هذه المغامرات، ظنًّا منهنّ أنّ الكتكوت الصغير قد كبر وغادر فضول الصّغار.

كان مرّاتٍ كثيرةً يلتزم الصمت، أو يستأذن للصعود إلى السطح لاستكمال مذاكرة دروسه، لتكتشف الوالدة أنّ كتكوتها قد رجع إلى عادته القديمة، خاصّة عندما تسمع صراخاتِه المستمرّة، وضحكاته المنبعثة طوال الوقت وسط الدجاج.

مضتِ الأيام سريعة، وأصبح للكتكوت حياتُه الخاصّة، عمله، وبيته وأبناؤه، لكنّ هذه الحياة لم تلهه عن دجاجات أمّه، فعند زيارتها لم يغبْ عن باله التسلّل إلى السّطح ومعاودة صراخه وضحكاته.

فتتعالى ضحكاتُ والدته، ويحمرّ وجْه زوجته وأولاده خجلا، وإنْ كانوا يكتمون من داخلهم ضحكاتٍ تفوق مَن حولهم، كانت زوجته لا تصدّق أحاديث الوالدة عنه وعن مغامراتِه القديمة، لم تكن تفوّت الفرصة عليه فتحاول في كلّ زيارة أن تشاركَه طلعاته إلى السّطح، في البداية كان الأمرُ صعبًا عليها، ولكنّها- ومع مرور الوقت- تعوّدته، فلمست من زوجها حنانًا ومشاعرَ تكفي لإسعاد العالم، كانت تنظرُ إليه في أحيان كثيرة، ويخيّل إليها أنّه لا يزال كتكوتًا صغيرًا فتضحك بصوتٍ مكتوم.. وقد أخفت ابتسامتَها عن زوجها الرّاقص مع الدجاج.

غريق

مع انسيابِ تباشير الصباح، وبينما يلملمُ الليل أذيالَه في عجالة، حين تمدّ الشمس خيوطَها الرفيعة على استحياء منثلّة مِن بيْن تلال الضباب الكثيفة التي انبعثت خيوطُها وتصاعدت أكوامُها من جنبات الترع والمصارف والحقول الواسعة المترامية التي تحيط بالقرية من كلّ جانب كما يحيط السوار بالمعْصم، تعالى الصراخ يصمّ الآذان عند مدخل القرية التي لم يصحو أهلُها بعدُ من غفوتهم.

توالت الصرخاتُ عاليةً مُقلقة، وها هي مقتربة شيئًا فشيئًا من وسط القرية، لم يكن الناس في هذه الآونة على موعدٍ مع مثل هذه النّذر في صباحهم، ولكن مع تواصلها بلا انقطاع أو تراخٍ من الصّارخ؛ أدرك الناس أنّ الأمر جدُّ خطير، وليس من بدٍّ من الخروج لاستطلاع ما يجلبه النذير من شوَم لهم في هذ الصباح.

كانت أغلبُ البيوت لا تزال أبوابُها موصدة، إلا قلّة استجابت لهذا الصوت المُنبعث في عجلةٍ يشقّ الجدران، ويخترق ألواحَ الأبواب القديمة، ليثير الرعبَ في نفوس أصحابها، حتى من قبل أنْ يعرف ما تحمله من أخبار، والذين لم يكنْ لهم سابقُ تجربة مع مثل هذ الصّراخ المبكّر.

هرولَ بعض نفرٍ يتقدّمهم عبدُ الواحد، خفيرُ النظام، الذي كان منشغلا بإعداد كوب الشّاي، وتهيئة نرجيلتِه أسفل الجميزة الكبيرة عند مدخل القرية، حيث بدا المكانُ مِن حوله وقد غطّاه الدخان، وعيناه التي لا يجفّ دمعهما تنفخ من أسفل كسّارات حطب القطن اليابس علّه يفلح في شبّ النار، لقد كان في نوبة الحراسة الليليّة منذ البارحة، ولكنّها على كلّ حالٍ شارفت على الانتهاء، أمسك ببارودته وتجاهلَ ما انشغل به، فالأمرُ يستلزم وجوده ليباشر مسئولياته على وجْه السّرعة.

التفّ الناس حول المرأة الصّارخة، كانت سيدةً في العقد الخامس مِن عمرها، حافية القدمين، متّشحة بالسّواد، أمسكت بخمارها الطويل

الذي انزلق مِن على رأسها ليكشف ما سترثه من شعراتها المصبوغة بالحنّاء.

اقتربَ منها عبدُ الواحد واجمًا، يبدو وجهه مكفهرًّا مكروبًا، وهو يصيح كعادة رجالِ الدّرك بعد أن استبدّ به الفضول...

- ما الأمر! ماذا جرى يا خالة!؟

ظلّت السيدة تضرب بيدِها على صدرها النّحيف، وتلطم خدّها الذي أوشكت عظامُه على الخروج من تحت جلده الأسمر المحترق من أشعة الشمس، لم يستعلم القومُ منها إلا بضعة كلمات لا ترضي فضولَ مَن خرج في هذه السّاعة، هي كلمات متقطّعة متناثرة على المسامع مصحوبة بالعويل والصّراخ:

- العربية... يا عيني... الحقوا يا ولاد...

كان القومُ قد أيقنوا أنّ لصراخها وولولتِها وراءهما ما يستدعي الاهتمام، ولكنْ ما المغزى من كلمة "العربية"، كانوا لا يزالون على تجهّمهم لا يدْركون في هذه الساعة الحقيقة، ما المقصود من وراء إشاراتها الغامضة، طلب منها أن تعيدَ على مسامعهم ما قالت، وبهدوء؛ حتى يمكنه التصرّف وإنقاذ الموقف.. التقطت المرأة أنفاسَها بصعوبة بعد أنْ خرت على الأرض مفترشةً التراب، روتْ بهدوء ما شاهدته، ولكنّ عينيْها الزائغتيْن لا زالتا تنصب منهما الدّموع، لقد صادف سيرها على الجسر الكبير الموازي للترعة سيارةُ نقل كبيرة محمّلة بالأمتعة، والتي انحرف سائقها عن مساره لتسقط في المياه، والتي ابتلعتها، ولم يظهر منها سوى أشبار قليلة.

جرى القومُ فرادى وجماعات ناحية الترعة ليعاينوا هذا الحادث، ويقفوا على تفاصيل رواية المرأة. وبعد دقائق قليلة، كانت البقية الباقية من أهل القرية قد لحقتْ بهم مستجيبةً لنداء الفطرة في مثل هذه الحالات، كان القوم قد وصلوا إلى مكان الحادث، وجدوا بعضَ المارة ممّن استبدّ بهم الفضول، وهزّتهم النخوةُ في المساعدة، وقف الحشد المتدفق بكامله في المكان، كانت تفوحُ من الأرجاء رائحةٌ غريبة، إنّها رائحة مقزّزة.. لكنّ القوم انشغلوا بتقديم الدعم واستطلاع حال راعي

السيارة، وقد شمّروا ملابسهم وبدأ نفرٌ منهم يسبح في مياه الترعة الباردة، حاولوا الوصولَ إلى قمرة القيادة التي يستقرّ بها السائق، كانت المياه قد غمرتها بالكامل، فلم تظهر منها سوى أطلالها، باءت جميع المحاولات بالفشل، فقد منعتهم برودة المياه مواصلة العمل، وانتشار الغبار إلى جانب عمق المياه الذي حالَ والوصول إلى الداخل.

تشجّع بعضهم بعد أنْ صرخ فيهم عجوزٌ مسنّ كان راكبًا حمارَه، وقد استند على عصاه الطويل التي غرسها في حافّة الجسر يراقب عن كثبٍ جهودَ فرق الإنقاذ التي تزعّمها بعض شباب القرية الذين أفقدهم الحماس حُسنَ التصرف والبصيرة، ممّا ضيّع جهودهم أدراج الرياح.

كان العجوزُ يقود العمليات، ويوجّه الحشود من فوق حماره..

طلب منهم أن يبحثوا في حوافّ الترعة، وأسفل الجروف الموازية، فربما يكونُ السائق ومرافقوه قد قفزوا منها عندما شعروا بالخطر يداهمهم وأصابتهم نوبة أعْماء أفقدتهم الوعي، لاقى رأيُ العجوز حظّه من القبول فله من الوَجاهة ما جعل فريقًا من الرجال يتطوّع متوليًا مهمّة البحث، كان من بين المنقذين شابٌّ أوتى حظّه من الفطنة والذّكاء وحسن التصرف، خلع ملابسَه وسبح في المياه لبضعة أمتار، غاب غاطسًا للأسفل، توارى لثوانٍ معدودةٍ عن أعين القوم ليعود بعدَها وهو يصرخ بأعلى صوته..

- القمرة خالية من السائق.

ذهل القومُ من هذه المفاجأة غير المتوقعة، انتشرت فرق الإنقاذ تبحث في جنّبات الترعة، سبح بعضُهم ناحية البرّ الثاني علّهم يجدوا بين الأحراش وغابات البوص العالية ما يبحثون عنه، ولكنْ دون فائدة، فلا أثر لأحد، أصيبَ الجميعُ بالإعياء، لقد أثّرت برودة المياه فيهم، وأتعبهم طولُ البحث ومشاقّ السباحة والغطس فبدؤوا في التسلّل والخروج من الترعة، وارتدوْا ملابسَهم، وأشعل البعضُ حزمَ الجريد اليابس علّه يستدفئ فيعودُ ثانية إلى عمله.

وأثناء ذلك، كان وفدٌ من رجال الأمن قد وصل إلى المكان يتقدّمهم العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفر، فقد كان الأمرُ يستلزم أن يجري

البحث تحت تصرّف الحكومة وسيطرة الأمن، فهذه مسئوليتهم، وهُم أدْرى بها.

التفّ الناس من حول الموكب الرسمي الذي تقدّمه العمدة في كامل أبّهته على حماره الأنيق بسرْجِه الأحمر العالي، والذي وقف عند أعلى الجرف وأشرف على الشاحنة، مستعلمًا عمّا وصلت إليه جهودُ الرجال الذين كان بعضهم لايزال محيطًا بالسيارة.

لكنّ الإجابات كلّها تشير إلى خيبة أملٍ في الوصول إلى الحقيقة، صار العمدة في حيرةٍ من أمره، فهذه مسئولية كبيرة، ولا بدّ من عمل، أشار إلى بعض الخفر، وهمس في أذنه والذي انطلقَ على عجل مغادرًا المكان، بعد أن امتطى ظهرَ أحد الحمير.

ففيما يبدو أنّ العمدة قد أسرّ إليه حديثًا أنْ يذهب- على عجل- ليخبر نقطة الشّرطة التي تبعد عن قريتهم بضعة كيلو مترات، أراد العمدة أن يخْلي مسئوليته، ويضع الأمرَ بكامله بين يدي رجال الأمن، فهو لا يملك سلطة تخوّله التصرّف، كما أنّ إمكانياته محدودة لا تسعفه ليقدّم العوْن في حادث كهذا!!.

غطّى الحزن وجوهَ القوم الذين تجمّعوا ليشاهدوا هذا المنظر المفزع، خاصّة وأنّ بلدهم الهادئة لم تعتَدْ مثلَ هذه الفواجع.

افترش حوافّ الجسر بعضُ نسوةٍ عجائز، وقد اكتنف وجوههنّ حزنٌ، وكساها الوجومُ على المفقودين، كانت عيونهنّ مصوّبة ناحية الترعة، ظلّ الترقب يعلو مرّة وينخفض مرّة، كانت الصدور مزدحمة بالبكاء، ومكتومة بالصراخ.

بدا المشهد مأساويًّا وحزينًا، لم يملّ الشباب المتحمّس من البحث بجدٍّ، يفتشون كلّ شبرٍ من المياه علّهم يجدون من الأثر ما يُطمئنهم، ولكنْ دون جدوى، فلا أثر.

استمرّت الحشودُ الحزينة تغطّي المكان، وهي في تزايدٍ بين صمت وترقّب، اكتستِ الوجوه بالحزن واليأس، والعيون ترقبُ حركات الموج المتدفّق في التّرعة، وكأنّهم يهمسون إليها أنْ تطلعهم على ما في بطنها، وتلفظ ما بداخلها، وتجبر كسْرَ مَن شغلوا أنفسَهم عناءَ البحث

في هذه البرودة، حتى عندما تتحرّك المياه لضربةٍ مفاجئة من ذيل قراميط التّرعة فتصيبهم بالأمل، تمامًا كما يصيب الباحث عن النّجاة بين أكوام السّراب.

وبعد مدّة ليست بالقصيرة، وصل ضابطُ النقطة، كان شابًّا صغيرًا، حسن الوجه، هاله ما رآه؛ فالمشهد يوحي بأنّ الأمل مفقود، لكنّه على كلّ حال تحرّك يشقّ الحشود المصطفّة على جانبي الطريق، جرى بعض الخفر ناحية الناس طالبين منهم إفساحَ الطريق أمام رجال الأمن ليباشروا التحقيق والمعاينة.

اقتربَ ضابط النقطة من شاطئ الترعة، يتفحّص المكان بعناية، سأل العمدة عن مُلابسات الحادث، أجابه على الفور بأنّها سيارة نقل كبيرة محمّلة بزبل الفراخ انحرفت عن الطريق في ساعةٍ مبكرة من الصباح لتسقط في الترعة قبل طلوع الشمس، وبعد البحث الطويل والمضني من رجال القرية وشبابها لم يعثروا على أثرٍ من غرقى أو ناجين، طلب الضابطُ الصغير محادثة بعض الشّهود الذين شاهدوا الواقعة فوْر حدوثها، فقد جاءت أقوالهم متطابقة، أيقن أخيرًا بأنّ الأمر يحتاج إلى معاونة رجال المركز، فقد يتطوّر الحادث، ويحتاج إلى غطّاسين لانتشال الجثث، فلا أملَ في وجود ناجين على ما يبدو.

كانت الجموع تقلّ وتزيد طوالَ اليوم، غير أنّ أحزانهم تزيد ولا تقلّ، يتهامس الناس فيما بينهم في شغفٍ عن ناجين، إلا أنّ أغلب التكهّنات كانت تؤكّد استحالة النجاة، فالمسحُ الأوّليّ الذي يقوم به الأهالي لا يبشّر بشيء.

كان على الجانب المقابل بعضُ نفرٍ من أهالي القرى المجاورة للترعة الكبيرة الذين اجتهدوا- أيضًا- في إجراءات البحث، ولكنْ دون فائدة.

وصلت إشارةُ النقطة إلى المركز، وها هي سياراتُ الأمن تتوافد على المكان، قام الخفرُ بإبعاد الناس الذين جرّهم الفضول إلى المكان، مع ما أبدوه من أحزان خالطت نظراتِهم المنكسرة وهمساتِهم التي لا تفتأ تتساءل دون جدوى.. متى يُخرجوا الغرقى؟!!

اصطحب الأمن فريقٌ من الضفادع البشرية الذين ارتدوا البدْلات المخصّصة للغطس، وهبطوا إلى المياه على الفوْر لمباشرة مهامّهم.

استغرب الجميعُ منظرَ رجال الإنقاذ، ولباسَهم الغريب، فلم يعهدوا مثل هذه الأمور من قبْل، كان بعضُ رجال القرية ممّن تظاهرَ بالثقافة والاطّلاع يدلي بتصاريحه النّارية بين الحين والآخر، عندما يستبدّ بأحدِ الأهالي الفضول مستفسِرًا عن حقيقة الضّفادع البشرية، فيردّ عليه فيلسوف القرية كعادته..

- الضّفدع البشري، هو إنسانٌ غريب، صاحبُ طبيعة مزدوجة تحمل خواصّ ضفدع وإنسان، يمكنه الحياةُ تحت سطح الماء لمددٍ طويلة حتى أنّه يستطيع التّفاهم مع الضّفادع ومعرفة لغتهم!!

تعلّقت أعين الناس بالتّرعة، ترقبُ خبرَ الغطّاسين، وبين لحظةٍ وأخرى، كان الأهالي يتوقعون صعودَ أفراد الفريق إلى السّطح حاملين بين أيديهم ما وجدوه من الجثث، طلب المأمورُ من رجاله إبعادَ الناس بالقدْر الكافي الذي يسمح بمباشرة العمل دون تشويشٍ منهم، فقد أزعجته أحاديثُهم السّخيفة والتهامسُ المُنساب من النّسوة العجائز، وأخرجته عن شعوره..

توافدتْ جموعٌ من القرى المُحيطة إلى مسرح العمليات تراقبُ عن قربٍ ما يجري في ذهولٍ من أحاديث القوم التي استطردت تصفُ طبائعَ رجال الضفادع البشرية.

وعلى بُعد مترات قليلة جلست نسوةٌ يندبنَ الغرقى بعباراتٍ غير مفهومة وكأنّها لغة قومٍ من كوكبٍ آخر على ما يبدو أنّها لغة الجنائز بينهم، يا للْحسرة على الذين لقوا حتفَهم، ولم يستدَلّ عليهم حتى الآن، ولا يدرى مكانهم، ولا مِن أيّ البلاد هم، كان المأمور يشتاطُ غضبًا عندما يسمع هذا العويل، وهذه اللّكنة، كان الرجل قد بدأ في إشعال سيجارته الواحدة تلوَ الأخرى، وقد زادت حركته اضطرابًا، فقد شغل نفسَه أكثرَ من اللازم بعد أن شتّت تفكيره بين أحاديث العامّة السخيفة وبين نحيب النّسوة العجائز، عبثًا حاول إسكاتهم، ولكنْ دون جدْوى.

طلب المأمورُ من ضابط النقطة أنْ يصطحب بعضَ أفراد الدورية الراكبة على خيولها، ليقوموا بجولةٍ بطولِ الجسر الممتدّ على الترعة علّهم يظفروا بشيءٍ من أثر القوم.

كان رجالُ الإنقاذ لا زالوا تحت الماء، خيّم صمتٌ غريب على المكان، فلم يُرَ إلا دخانُ سجائر المأمور المنبعث دون توقف ونظراته الحائرة، وعويل العجائز الذي يأتي على فترات، ولكنّه لا يتوقف، ونظراته الحادّة التي لا تنقطع يوزّعها عليهم مع كلّ صرخة.

طال انتظارُ القوم بلا فائدة، زاد اضطرابُ المأمور الذي لم يتحمّل الانتظار فقرّر مغادرة المكان، عرض العمدةُ اصطحابه إلى الدوّار لتناول وجبة الغداء، فقد أوصى أحدَ الخفر باستعجالها، تحرّك الركب لدوّار العمدة، وقبل أنْ يغادر القوم مكانهم؛ جاء صوتٌ من بعيدٍ يشقّ الصمت، وقد لاحقته العيون قبل الأسماع، كان لأحدِ الخفر، وقد أمسكَ بطرفِ جلبابه وهو يهرول، ويصرخ بأعلى صوته:

- لقد وجدوا الجثث...

أسرع المأمورُ ورجاله على الفور إلى المكان الذي حدّد للجثث، بعد أن ساد الهرجُ والمرج، واضطرب الناس، أطلق كلّ واحدٍ منهم رجلَه للريح، علّه يكون أوّل مَن يظفر برؤية هؤلاء الصّرعى...

حاول رجالُ الأمن والدّرَك أبعادَ الأهالي عن المكان، لكنْ دون فائدة فقد سبق السّيف العَزل، كان الأهالي أوّلَ مَن وصل إلى المكان.

حمل رجالُ الضّفادع شابّين في العقد الثالث من عمرهما..

لم تغيّر الماء ملامحَهم، إلا أنّ إصاباتٍ تبدو في الرأس ومناطق متفرّقة من الجسد وبعض كدماتٍ في الساقين والرّقبة، يبدو أنّهما تعرّضا لها قبل أن يغرقا.

وضعَ الغريقان بجانب البرّ، طلب المأمورُ إرسالَ إشارة بأقصى سرعة لاستدعاءِ الطبيب الشرعي ورجال النيابة لاستكمال بقيّة الإجراءات، بدا الأمرُ بالنسبة إليهم مألوفًا، فكلّ يوم يمرّ عليهم يطالعونَ فيه عشرات الحوادث فلا غرابة، لقد تعوّد هؤلاء- بحكم عملهم- منظرَ

الدّم، ورؤية الأشلاء، وانتشال الغرقى، وإسعاف الجرحى والحرقى؛ فتبلّدت مشاعرُ الفزع فيهم.

لكنّ الأهالي على النقيض من ذلك، فلم يكنْ مألوفًا بينهم هذا المشهد، وأنّى لهم ذلك فهُم لم يعتادوا- بحكم حياتهم القروية البسيطة- مثلَ هذه الفواجع، كان المشهدُ كئيبًا وحزينًا.

انطلقتْ ألسنة القوم بالدعاء والرّحمة لهؤلاء الغرقى، الذين لقوا حتفهم ولا زالت أعمارُهم كأعمار الزهور.

طلب المأمورُ البحثَ في ملابسهم علّه يُعثر على ما يستدلّ به على هويّاتهم ويعرف عناوينهم لاستكمال المحضر.

كان القتيلان على ما يبدو من بلدٍ بعيدةٍ عن هذه الناحية..

وما أنْ سمع العجائزُ هذا النبأ حتى تعالى الصّراخ واشتدّ البكاء..

حزن أهلُ القرية في هذا اليوم وكأنّهم لم يحزنوا من قبل، حزنوا على الرغم من جهلهم بهويّة القتلى، لكنّها العاطفة الإنسانية والفطرة السوية التي تسير الإنسان وراءها، وتخرج مشاعرَ صاحبها وتسلمه لها عندما يقتضي الحال، بكتْ إحدى النساء بصوت عالٍ سمعه الحشدُ الملتفّ حول الجثتيْن.

- يا عيني على الغريب يا ولاد، يا كبد أمّك منّك ليه، يا عيني على الشّباب.. ياصبرهم على مرّ الفراق..

وقعتْ هذه الكلمات على مسامع الجميع فانفجر الحشدُ بالبكاء، وسالت محاجرُهم بالدمع..

وبعد لحظاتٍ قليلة، وضعَ القتيلان في سيارةٍ تحرّكت بهما إلى المستشفى الأميري، انصرف رجالُ الأمن، والعمدة ورجالُه، ولكنّ أهالي القرية بقوا في أماكنهم، ظلّت أعينهم معلّقة بالسيارة المطّمورة أسفل الجرف، كان يومًا لم تشهدِ القرية مثيله من قبْل.

مرّتِ الأيام سريعة أكثر ممّا تخيّله أهل القرية، وهكذا هي دائمًا..

تبدّلت الدنيا غير الدنيا، وهذا حالُها على الدوام، وأصبح الناس في شغل أنْساهم الغرقى ويومَ حادثهم المشئوم، ولكنّ شيئًا غريبًا يحدث ودون سابقة إنذارٍ، فكلّما سار على الجسر نفرٌ منهم ممّن شهد الواقعة أو حتى سمع بها انْتابه شيء غريب..

فكلّما اقترب أحدُهم من المكان الذي انحرفت فيه الشّاحنة؛ انبعثتْ منه ذكرياتٌ مؤلمة، وقفز مِن الماضي ما يثيرُ في النفس الفزعَ ويستجلب الهلع، وتتسلّل طوعًا- ومع كلّ خطوةٍ يخطوها على الجسر الكبير إلى أعماق المارّين من فوقه- مشاعرُ الارتعاد، ويتبارد إلى أذهانهم المشدودةِ تلك اللّحظات الصّعاب التي عاشتها القرية، وذكريات الغريق الذي تخطّفته يدُ المنيّة غريبًا عن ديار أهله.

صرخة

في قريةٍ من قرى الصعيد البعيدة، وفي مجاهل العوز والكدّ بعيدًا عن بوصلة العالم الصاخبِ بصنوف التّرف وزينته، وفي زمنٍ سقط سهوًا من ذكرى الأيّام؛ عاش أهلها كبقية سكّان القرى حياةَ البؤس والفقر، يعضّ الجوع بطونَهم الخاوية، وتحرق الشمس جلودَهم العارية، ويفتك المرض أبدانهم المكدودة، ويفترس صحتهم وقواهم أمراضٌ لا يعرفون لها سببًا، ولا يجدون دونها حولا.

ولكنّهم كانوا يحيون على كلّ حالٍ حياةَ الذي استسلمَ لقضاء الله وقدره، فلا ملجأ منه إلا إليه، يغنيهم القليل، يتزوّدون بالصبر أو يتلهّون به، تراودهم الأماني في غدٍ يأتي بالخير كعادةِ كلّ البسطاء الذين عدموا الحيلة، ورضوا من الدّنيا بالكفاف، فمَن يدري ما يأتي به الصباح.

سارتْ حياة الناس بسيطةً رتيبة اعتيادية، أشبه ما تكون بحياة الشمس، التي تشرقُ وتغرب بنظام مُتماثل، ولكنها لا تعرف سبيلا للاعْتراض، ولا تصمد أمام سنن الله الرّواتب، وما ينتابها ينتاب الخلائق.

سار أهلُ القرية معها أيْنما سارت، ارتبطت حياتُهم بها كارتباط زهرة عباد الشمس ترقبها بعينٍ يقظة لا تعرف الغفلة، يستيقظون في الصباح مع أشعتها التي تبعث لتأذن بميلادِ يومٍ جديد يطلّ على الدنيا بخيْره وشرّه، يظلّ الناس في كدّهم ونصَبهم وعملهم الذي لا ينقطع طولَ النهار، وعندما تبدأ الشمس وتوشكُ لملمة خيوطها المنشورة، يتأهّب الجميع وقد راقبوا قرصَها الذهبي الذي يخنقه الغروب، ويبتلعه الفضاء حتى يغيب وسطَ الحجب، فيموت النهار بعد أن حلّ الظلام الذي أسدل سوارَه المالك بلا رويّة أو استئذان، فمَن ذا الذي يستطيع إيقافه أو التصدّي له، أو حتى مجرّد التفكير في استنطاقه.

وفي يومٍ اشتدّ حرّه، وعلا قيظه حتى سُمع لحصى الأرض فحيحٌ كفحيح الأفاعي، دنتِ الشمسُ من الرؤوس حتى ظنّ أهل القرية أنّه يوم المحشر لا محالة.

فما مِن بدّ إلا الجدّ في الاحتماء من هذا الوهَج، فمنهم مَن استظلّ بظلّ شجرة يملأ جوفه من الماء البارد وجلدَه من طراوتها، ومنهم مَن ألقى نفسه في مياه المصرف الملاصق لحقولهم، وقد استسلموا لبرودةِ مياهه العكرة، فعلى كلّ حالٍ فقد وجدوا فيها ما يخفّف عنهم سطوةَ الشمس الملتهبة، التي كادت تطير بالعقول لولا لطفُ القدير.

جعلَ البعض يغالب النومَ بعد أن بلّل ملابسه بقليلٍ من الماء مع ما افترشوه من قبضات القشّ اليابسة التي تحمي جنوبَهم وخزات الحصى فلعلّ نعاسَه المتقطّع ينسيه حالَه، ليعود إلى عملِه بعد أن تتكسّر نوبة الحرّ.

فرغتِ الحقولُ من أهلها، هرب الجميعُ إلى أماكنهم يتلمّسون الظلّ، ومع هذه القسوة لم يغبْ عن المكان ضحكاتٌ تتعالى بين الحين والآخر.

فالأمرُ لا يسلم من جلساتٍ يقطع بها أولئك البؤساء هذا اللهبَ المتدفّق، ويقضى معها الوقت، ولا مانع من تدخين السجاير والنّرجيلة إذا لزم الأمر مصحوبةً بأكواب الشاي المطبوخ على النار.

هكذا تسير الأمورُ كعادتها كلّ يوم هذا الوقت من الظهيرة، لا تتغير أو يتعدل مسارُها، وقد استسلم البُسطاء لها.

وذاتَ ظهيرة، شقّ الفضاء استغاثةٌ غير مفهومة، صوتٌ تتطاير مع نسمات الهواء القادمة من الشّمال خلسة، لم يحدّدها مَن استرخوا تحت ظلّ أشجار التّوت من أين مصدرها، فقد كان الصوت بعيدًا جدًّا، لم يستطعْ أحدٌ منهم فكّ شفرته.

كانت الكلمات تتصاعدُ في الأفق الممتدّ مصحوبةً بصرخات من هنا وهناك، ألقى أحدُهم بطرفِه ناحية الجسر الكبير الفاصل بين حدود القرية والترعة الكبيرة.

بدأ المشهدُ يُدخِل الريبة في عقول المتابعين عن بعدٍ سرعان ما وضعوا أيديهم فوقَ عيونهم من وهَج الجوّ وسعيره.

غيرَ أنّ أسرابًا من أهل القرية من النساء والرجال والأطفال أخذت طريقها تتسابق بين الحقول وعلى المجاري لمكان الصراخ.

أسلم الجميع أرجلَهم للريح، فلا بدّ أنّ في الأمر ما يستدعي الذهاب على وجْه السّرعة، كان القيظ لا يزال يحيطُ بالجسور، ولا تزال أشعة الشمس الحارقة وألسنتها الحارقة متسلطةً تختلط بالتراب الذي بدا وكأنّه أكوامٌ من الجمر، وغلّف الجوّ بحممٍ من الحرّ الذي يشوي الوجوه.

والغريب في الأمر أنّ الجميع تسابق في خطواته وهُم حفاةٌ غير مُباليين وقعَ أقدامهم على موْضع الهلاك الذي تناثر على الجسور.

وعلى بُعد أمتارٍ ليست بالقليلة، وصل أحدهم وقد تلاحقت أنفاسُه، وقال وهو يلهجُ من التّعب والإعياء:

- ماذا جرى؟ ما الأمر؟ كفانا الله الشرّ!

انبرتْ له عجوز فانية، حافية القدمين، أمسكت غطاءَ رأسها بين فكّيها السمراويْن، وقد حملت نعلَها بين يديها، وقالت وهي تشير ناحية الترعة في أسًى:

- بقرة الواد عوضين وحْنّانه..

لم تتوقف العجوز عن صراخها المتواصل، حتى عند مسيرها يزاملُ خطواتِها نواحُها المزعج، الذي نبّه حممًا أخرى من الفلاحين الذين استسلموا للظلّ وتخدّر أجسادهم في سكينةٍ لبرودة المكان بعد عناءِ العمل ولهيب الحرّ، أقبل بعضُهم يعدو، والبعض مشى مشيتَه المعتادة، فهذه عادة أهل الريف وحذرهم المُفتعل في مثل هذه النّوبات، ظنًّا منهم أن شجارًا نشَبَ بين فريقين، ومن الحكْمة عدمُ التسرع والاكتفاء بخطوات متّزنة تمكّن من كشف الميدان، والوقوف على هويّته الحشود المتلاحمة.

لكنّ الصوتَ أخذ يتزايد في الأفق، بدا وكأنّه إنذارٌ بالهلاك والدّمار عمّ القرية، نحّى هؤلاء الحكمةَ جانبًا وتسابقوا تجاه الترعة.

تلاقتِ الحشودُ عند الجسر الموازي للتّرعة الكبيرة خارج القرية، كان المشهدُ رهيبًا بعد أنْ خرجت القرية عن بَكْرة أبيها تزحف ناحية المستجير الذي قطع عليهم لحظاتِ الاستجمام والتقاط الأنفاس.

كانت الصورةُ قاتمةً بدرجة كبيرة، حالةٌ من الرعب والفزع اكتستْ بها ملامح الفلاحات الصارخات، ممّا أضافت إلى وجوههنّ المسمرّة التي لفحتها الشمس وعظامهنّ البارزة التي كادت تخترقُ الجلدَ عبثًا وقلقًا جعل الناظر إليهنّ يلحظ من الوهْلة الأولى حجمَ الكارثة، كان الجسرُ الضيّق يضيق بالناس، دفعهم الحماسُ والنجدة أن يتوافدوا على المكان، ولعلّ في سلامة فطرتهم، ونقاء سريرتهم ما يشفع لتكاسل البعض ممّن جاء يجرّ رجليه وكأنّه رضيع يدبّ بأولى خطواته على الأرض، تراءى المشهدُ غامضًا، ولا أحد من القادمين يعلم حقيقته، ومع اقترابهم من المكان اتّضح المشهد بدلالاته من بعيد حيث كانت عجوز مسنّة تفترش التراب وهي تصرخ وتولولُ بصوتها، وفي أسفل التّرعة شابّ ثلاثيني نحيفٌ، أسمرُ اللون، غطّاه الطين فلم يترك شيئًا منه إلا وطلاه السّواد حتى وصل رقبته، وهو يصيح بأعلى صوته:

- يا خراب بيتك يا عوضين.. الْحَقونا يا خلق هووووو.....

بعد أنْ أمسك برأس بقرةٍ مغروسة في الطين تجاهد عبثًا في التقاط أنفاسها، وقدأسند صاحبُها رأسَها على كتفه طمعًا في كسب مزيدٍ من الوقت عساه يجد مَن ينجده، ولولا ذلك لغاصت بكاملها في الطين.

قفز شابٌّ من الشباب المتحمّس ممّن سبق أقرانَه على الجسر، صاح بصوت عالٍ يملؤه الحماس والهمّة:

- خلّي عنّه... أنا أهه معاك.. قابلني يا واد..

وبعد لحظاتٍ قلائل، توالت حشودٌ من الرجال، الواحد تلو الآخر لتلقي بنفسها في الوحل بعفويّة القرويّين متحلّقين البقرة المنكوبة وهُم يصرخون من كلّ جانبٍ بأصوات تُلهب المشاعر، وتستنهض الهممَ الرّاكدة من الرجال بعد أنْ بردت أعصابُهم تحت الظلّ:

ـ على النّبي صلّي... هيلا هبّ... هيلا هبّ.. يا آل البيت..

وتدريجيًّا تكاثرت أعدادُهم، وامتلأت حناجرُهم بالصراخ وصيحات الجدّ، تلطّخت أجسادُهم بالطين الذي لم يتركْ لأحدٍ منهم مجالا فوزّع نفسه على الجميع بالتّساوي، ومع كلّ هذا الإصرار والعزم كانت الجهود تضيع عبثًا، والموقف يزداد تعقيدًا وسوءًا، خاصّة وأنّ المكان الذي استقرّت فيه البقرة عميقٌ جدًّا، مع ما حواه من كمّيات كبيرة جدًّا من الوحل الممزوج بالمياه، الأيادي المتشبّثة ببعضها تنزلق ولا تستقرّ في مكانها، والأقدام التي تراصت لا تقوى على الثّبات، وكلّما حاول أحدُهم التماسكَ كانت جهوده تضيع هباءً.

كانت الطبيعة تقفُ بالمرصاد لهؤلاء، كان التحدّي يزيد الموقفَ صعوبة، اعتلاهم جرفٌ مرتفع من التّراب تكسوه غابات من الحلف وأحراش متكدّسة من الغاب والبوص اليابس، كلّ ذلك جعل من الصعود إليه وتجاوزه أمرًا مستحيلا، خاصّة وأنّ قواهم قد بدأت تخور، وأيديهم أثقلها الجهدُ، ونالَ منها التّعب، وعلى الرّغم من ذلك لم يتوقف عويلُ وصراخ النسوة من أعلاهم، فمعَ كلّ محاولةٍ فاشلة يزداد النّواح، ومع ما تبديه البقرةُ من استسلام يشتدّ اللطم، وينهال التّراب فوق الرؤوس.

استفزّ هذا الأمر أحدَ شباب المُسْعفين، والذي طلب من صاحب البقرة أن ينهرَ القوم، ويعنّفهم، ويأمرَهم بالتوقف عن صراخهم بلا داع، فقد زاد على تعبهم جهدًا وإرهاقًا، طلب صاحبنا من النّسوة التوقّف، ولكنْ بقي الوضع على حاله لم يتغيّر توقف الرجال لدقائق يلتقطون أنفاسهم المتلاحقة، ويتجرّعون شربة من الماء بعد أن تبخّرت جلودهم من مائها، فالشمس من أعلاهم تترصّدهم بلا رحمة، وكأنّها تشمت من استغاثتهم، وتتعجّب من إصرارهم على تكرار الفشل بعيْنه، ها هُمُ الرّجال قد التقطوا أنفاسَهم، كانت عيونهم تجول في أرجاء المكان، وقد اجتمع عليها الغمّ والنّكد، ففي الأسفل استقرّت البقرة الوحلانة وعناد المكان، وسواعد لا تجدي، وفي الأعلى صراخٌ متواصل ونذيرُ شؤمٍ ينتظر الفشل، ودعوات المحيطين الذين استعجلوا الشرّ قبل وقوعه، وأشاروا على صاحب البقرة أن يعجّل بذبحها قبل أن تموتَ حرامًا؛ فنصفُ الخسارة خيرٌ من الخسارة مجتمعة.

نظرَ أحدُهم حوله يصرخ في الحشود بصوتٍ عالٍ:

- عايز فاس... عايز فاس بسرعة...

ناوله صبيّ صغيرٌ فأسًا بجانبه، تنمّر صاحبنا وبدأ يقطع الجرفَ محاولا إحْداثَ ثغرةٍ فيه، طرح التراب داخل الترعة وعلى جانبي الوحل، تلتْه فؤوسٌ أخرى أعجبتها الفكرة، ورأتْ فيها بصيصَ أملٍ ومحاولةً تقوّي من روحهم وتضاعف الجَدْوى، وبعد دقائق قليلة كان القومُ قد انتهوا من تسوية الجرفِ تمامًا، ولكنّ المسافة بين البقرة المغروسة في وحْلها وما اقتطعوه من حافّة الجسر ليست بالقصيرة، هدأت الأصواتُ، وخشعت جنباتُ المكان، لكنّ صوتًا في الجهة المقابلة ظهرَ فجأة، تتبّع الرجالُ مصدر الصوت القادم، كان الصوتُ لعجوزٍ يمتطي حماره، أشارَ على الشباب أن يحضروا عصيّهم الكبيرة وحبالَهم الطويلة، ويجعلوها في أسفل البقرة ويحملوها بين أيديهم حتى يوصلوها لمكان الخروج الذي سبق وأنْ مهّدوه، لاقت الفكرة استحسانَهم وبدأوا التنفيذ، كانت حركتهم ضعيفةً لِلزوجَةِ المكان، ولكنّهم على كلّ حال تحاملوا وتجاسروا ووصلوا المكان، وتكاتفت معهم السّواعدُ من أعلى ومِن أسفل لتحمل البقرة التي أوشكت على الهلاك، تعالت الحناجرُ بالدعاءِ والألسنُ بالتوسّل لله بالنبي وآلِ بيته والصالحين والأولياء من عباد الله المسلمين...

- يا أمّ هاشم... يا حُسين مَدَد... يا آلَ البيت... يا دسوقي.. يا بدوي.. يا سيدي عبد السلام نظرة... هيلا هبّ... جتْ خلاص يا رجّاله..

تكاثرت عزيمةُ السّواعد، وسرتْ في الرجال روحُ الخلاص فتحقّق لهم المُراد، وأخيرًا خرجت البقرة، ولكنّها كانت منهكة فلم تقوَ على القيام، بركت على التّراب تلتقط أنفاسها، وتستجمع ما بقي لها من قوّة، وقد أخرجت لسانها وسالَ لعابُها، عندها انطلقت الزغاريدُ من كلّ مكان، وتعالت عباراتُ الحمد والشّكر لله، وأطلق بعضُ الصّبيان صافراتِهم، كانت العجوز الصارخ من قبل ترقصُ فرحًا وهي تدعو للشباب المُنقذ بصوتٍ عالٍ:

- ربّنا يخلّي الرّجّالة.. مايجيبها إلا شبابها.. يحميك يادي الجدع..

ثمّ أفرغت جرّة من الماء تزيل الطّين العالق بجسدِ البقرة التي كانت تحاول الوقوفَ على قدميها بلا جدوى.

تناوبَ الرجالُ التحية فيما بينهم، تغامز البعضُ ساخرًا من منظر الوحل الذي كسا وجْهَ أحدهم فغطّى ملامحه تمامًا، ثمّ انسابت الأفواه بعدها في ضحكات متواصلة، وقد استلقى بعضُهم على جانبي الترعة من فرْط الضحك، لتمتدّ الأيادي تتناوب في الصعود من الترعة.

انصرفَ الجميع من المكان مسرورين بعد أداء المهمّة بنجاح، لكنْ ظلّت حادثة البقرة عالقةً في أذهان كلّ مَن عاينها، وتطايرت بعضُ كلماتٍ من فم عجوزٍ كبير كان لا يزالُ في مكانه لم ينصرفْ بعد، اتّكأ الرجل على عصاه الطويلة وهو ينظرُ لموضع البقرة، وقال بصوتٍ عالٍ: طالما كانت هذه الرّوح تسري بين أبناء قريتنا؛ فلا سبيلَ إلى فرقتهم أبدًا..

ثمّ ألقى بحصاةٍ صغيرة في الماء، وواصل سيرَه في تأنٍّ شديد، وغاب بين الحقول.

متاعب مدرسية

مثّل الذهابُ إلى المدرسة العقبة الكؤود طوالَ حياتي، بعد أن تركت أثرها الذي لا يُمحى مع تعاقب السنين من عقلي حتى بعد أنْ كبرت، ومنحتني مخزونًا هائلا مِن الذكريات، سيئها وحسنها.. حقيقة لا يمكن نكرانها، لقد اقتلعتني كليةً وبلا مقدّمات من بين أحضان حياتي الصّغيرة التي رسمتها لنفسي خلال تلك الفترة الحالمة، والتي نسجتها بخيال صبيّ صغير بدأ يتلمس النّور المشعّ القادم من وسط حدائق الطفولة النّضرة بعيدًا عن مشاغل الدنيا وتكاليف الحياة.

أقصتني المدرسة عن مَرابع الصّبا، ومراتع اللّعب وحلقات الأنس بين حكايا الكبار تحت أشعة الشمس الحانية ساعة الصبحية، حالت بيني وبين لحظات المرح وفرص الانطلاق، ولو لبعض الوقت، بين الحقول أو الدروب الضيقة، أو حتى متنقّلا بين أسطح بيتنا غيرَ مكترثٍ بمَن حولي إلا لدقائق اللعب الحلوة.

أنزلتني مدرستي عنوةً وبلا رويّة من أعالي النخيل وشواهقها، وحتى بين أفرع أشجار الجميز وجذوع السّنط التي أدمنتُ جني ثمارها اليانعة.

فيصبح- بقدرةٍ قادرٍ- ظهري منكسرًا بحقيبة مكتظّة بكراريس ودفاتر وكتب أجهلُها، ليس بيني وبينها خلطة قبل أنْ تفترس ليونتَه، وتتسلّط من غير شفقة غضاضة عظامي التي لم تتعوّد مِن قبْل مثلَ هذه الأحمال الثّقال.

حشيَتِ الحقيبة بأكداسٍ من الكتب والدفاتر التي لا أعرف مِن حملها مغزًى، غيْر أنّها عادة الآباء وسنّة الأمهات في قرانا الطيبة اللاتي يطمعْنَ أنْ يريْنَ أبناءهنّ بين عشيةٍ وضحاها في عِداد أصحاب المراكز المرموقة في مقتبل العمر.

حوّلتني هذه الحقيبة الظالمة أشبهَ بالحمار أو أقرب منه شبهًا، يحمل أسفارًا لا يعرف مِن محتواها غيْرَ أنّه محمول على حَمْلها كلّ صبيحةٍ دون شكوى أو عتاب أو تفلّت.

كانت الحياةُ تنطلق، وكنت أنطلقُ معها بلا تكاسل، أرقبها في تحفّز كلّ صباح، ومع طلعة كلّ شمسٍ يومًا دراسيًّا جديدًا بكلّ ما فيه، أمنّي نفسي باقتناص سعادته التي أوهمتُ نفسي بها وتخيّلتها تحاكيني كلّ صباح توازي حركتي حركته السّريعة، أتخيّل نفسي مع بواكير كلّ صباح عصفورًا صغيرًا أفلت من قفصه ليلحق مِن خلاله برزقِه المقسوم، أجولُ ببصري في قبّة السّماء أطالع زرقتَها المتقلّبة، فها هي كعادتها القديمة تحتضن مخلوقاتِ الله من الطّير على أنواعها تأتي العصافير وجلةً مُتناثرة تشقشق بنقشتها البديعة وأسرابها السريعة المنتظمة، وخفقات أجنحتها المتلاحقة بلا توقف تشقّ ركود الهواء، وترسم في الفضاء مسارًا جديدًا لحياتها، تمامًا كما تعوّدت أقدامي أنْ تترسّم مسارًا لحياتي في هذه الآونة، وإنْ كنت لا أزال أجهلُ الجدوى من يقظة الصباح تلك، إلا رضا الوالدة التي أجزم بأنّها لا تنام فترةَ الدّراسة إلا سويعاتٍ قليلة من الليل خشية أن يفوتني وقتُ الذهاب إلى المدرسة وأتخلّف عن أولى خطواتِ مستقبلي الذي تمنّي به نفسَها، وتنتظر محصلتَه بفارغ الصبر.

كثيرًا ما كنت أنظرُ بعيني أراقبُ- بشغف- تلك الأسراب المتدفقة تدفّق النور في الكون ساعة الصباح، وأتعجّب من روْعة انتظامها، وجمال تدفّقها بلا تكاسل، فتبدو وكأنّها امتلكت- وحدَها- دروب السماء وفجاجها، كان الفضاء في هذا التوقيت يبدو جميلا تسير عليه أفلاك صغيرة.

كانت الطيورُ تحلّق فرحة يغمرها تفاعلٌ عجيب أدهشني، ولم أجدْ له تفسيرًا يرضي تكاسلَ أقدامي التي تتراخى، وقد سألتُ نفسي سؤالا تكرّر ساعة مقدمها مع كلّ صباح:

- ثُرى ما سرّ سعادة هذه المخلوقات الصغيرة؟ وما سرّ انطلاقتها هذه؟ وهل هي فعلا لا تحسب للدنيا حسابها؟

كثيرًا ما كنت أتسمّع أصواتها وهي تمرّ مِن فوقي سريعة، أتخيّل في أحيان كثيرة ضحكاتِها المتصاعدة تهزّ الفضاء الصامت، وتبعث فيه ثورةَ البحث عن الرّزق، وتُشعل انتفاضة البُكور، وتردع في الكون والطبيعة عواملَ الكسل والخمول التي انبعثَ من بني الإنسان من الكسالى أمثالي.

فها هي ضاحكة مستبشرة بنور ربّ العالمين الذي أذِنَ للدنيا بحياتها مرّة أخرى بعد طولِ ظلام، تحمدُه سبحانه أنْ بسط مع رحماتِه رزقه الذي يفيض كلّ صباح فلا تخشى معه الرّهَق.. فتسعى إلى أرزاقها بلا فتورٍ ولا توانٍ، جماعات لا تعتريها الفرقة، ولا يعرف طريقها التشاؤم، وبهمّة لا يدركها التّهاون أو الضعف.

تنتظرُ في سلامٍ وتسليم ما يلتقطه قويّها وضعيفها، فلا يفتكُ كبيرُها بصغيرها، ولا تنشب الحروبُ الطاحنة أو المعارك الفاتكة لأجل حبّة قمح، فالأرض ملك لله يهبُها مَن يشاء مِن عباده، ورزقُ الله واسع عميم يسَعُ الجميع.

تركتُ حياة المتعة والانطلاق التي كانت، ووجدتُني وحيداً في طريق حُدّد لي لا أبرحُه، ومسلكٍ لا أجدُ دونه مخرجًا، سرتُ مع الطريق، أو بالأحرى سار الطريقُ معي يلازمني كلّ صباح، حفظتُ عجرَه وبجرَه، تعوّد هوّ- ولا شكّ- ملامحي الصغيرة البريئة، اشتكى لعثاتي المتكرّرة أصُبّها عليه، أندبُ حظّي العاثر، وأقبّح هذا الطريق الذي أيقظني هذه الساعة لهذا العذاب الذي لا ينقطع يومًا.

تدبّ خطواتي فوقه كلّ صباح، مرّة بتكاسلٍ وتراخٍ وضجر، وثانية بتخاذل وتململ، وأخرى بخوفٍ من هذا المجهول، ولعلّ في الفزاعة التي يسوقها مَن يكبرُنا سنًّا ممّن سبقونا بأعوامٍ عن أهواله ومصاعبه؛ ما دبّ الرعبَ في قلبي وأسلمه للمخاوف تتنازعه قبل أنْ أعرفها، ولعلّها كانت الحقيقة التي تملّصت منها بلا فائدة، فلا يخلو الطريقُ- في أغلبه- من كلابه المسعورة المُنفلتة التي ربّاها أصحاب الحقول المطلّة على الطريق في أسفل المصرف لتحرس أشجار الفاكهة كأشجار الرّمان والبرتقال، وبعض شجيرات التوت، وفي أحيانٍ الجميز.. وكذا المشْمس، ولعلّ إطلاقها في أثرنا ما أقلقني، فهي لا تريد إلا الفتكَ بنا بلا سببٍ صريح.. اللّهم غير التعوّد الذي قادها على المطاردة بلا رحمةٍ، وأنبت في نفسها الكراهية لكلّ شيء يدبّ على الجسر، لم نكُن البادين بالاعتداء عليها أو التحرّش بها كعادة الصبيان، أو حتى السّطو على المزْروعات كما يتحجّج الفلاحون أصحابها، ولكنّه نظام الحياة وجبروتها الذي يسلّط الأقوياء لإخضاع الضعفاء لسطوتهم.

لاحَ الطريقُ أمامي بلا نهاية كما كانت بدايته معي، والتي تبدأ لحظة مغادرتي المنزل بلا هدفٍ أو معنى على الأقلّ حتى أصل إلى المدرسة وأنخرطَ في دراستي أو أذيبُ تلك المخاوف وأبدّدها بين أصدقاء بدأتِ التسلّل إلى جموعهم يومًا بعد يوم، حتى أدركت معهم كيف تكون الصّداقة..

كانت الأشياءُ مِن حولي تعاندني إلى درجةٍ كبيرة، حتى الطبيعة بكلّ مكوّناتها كانت تقف أمامي بالمرصاد، تترصّدني وأنا لا ألقي لها بالا، كان الاستيقاظ المبكّر عبئًا كبيرًا، فساعتَها كنت أشعرُ معها بضيق، ولعلّ في خوفي الشديد من برودة الجوّ ما برّر لي هذه المخاوف، وكرّسها في نفسي، وبنى معها قناعاتٍ تهدم كلّ حجرٍ أبنيه في جدار الشّجاعة والصبر والتجلّد من أساسه، وجدتِ الرّهبةُ طريقَها إلى قلبي الغضّ، جعلتني أشعرُ معها بالاستسلام الطّوعي للفوضى بعيدًا عن جدران المدرسة ومقاعد الطلاب في الفصول كغيري من الصّغار إلا أنّني كنت أقلّ حدّة منهم في التعاطي مع هذه المشاعر الطفوليّة المهتزّة، فكنت أرضخُ منصاعًا في نهاية المطاف لأوامر الوالدة، فلا مفرّ ولا مهربَ أمامي إلا أنْ أرتدي ملابسي، وأرتّب كتبي وأحملها في حقيبتي، وأسير في طريقي؛ فلا وقتَ للنقاش ولا متّسع للجدل، وهذا ما كان يسعدُ أمّي كثيرًا، والتي وجدت في نفسها الزّهوَ من صنيعي هذا، واعتبرت طاعتي لها ميْزةً ميزت بها عنْ باقي الأولاد الذين كانوا يخرجون إلى الطّرقات صارخين، يتعالى صياحُهم، ويتوالى بكاؤهم، ويتتابع نحيبُهم، ويتقاطر عويلُهم، يلقون بكتبهم على الأرض وسط أوحال الشوارع والدّروب، وأهاليهم يجرون وراءهم يكيلون لهم السّبابَ وقد أوسعوهم ضربًا، وأشبعوهم ركلا ولطمًا، تتداخل النّبرات في هذه الساعة تمامًا كما تتشابك أصواتُ الطيور من فوق الأشجار، ومع هذه الجلبة تبدأ رحلة المتاعب.

كانتِ الوصلة الصباحية المُعتادة التي تستيقظ عليها القرية ويمارسها أهلها كلّ صباح تستمرّ طوال أيّام الدراسة، وهذا حالٌ لا ينقطع حتى قيام الساعة في دنيا الدرس والطلب.

لم يكنْ ذهابي إلى المدرسة لهدفٍ معلوم أو لغايةٍ مرسومة أعرفها أو أنتظر نتيجتها المحقّقة، ولا أكترث لما يمثّله مردودها عليّ وعلى

حياتي، بل كان إعادة، عوّدَ عليها أهلُ القرى الفقراء أبناءَهم، ولسانُ حالهم يقول لك كلّ صباح بعد أنْ يغزوك التكاسلُ ساعة الخروج وحتى ظهور النتيجة كلّ عام وحتّى في التفوق والمشاركة لحظات النجاح:

- اذهب الآن، وبعد ذلك لكلّ حادثة حديث...

ولعلّ المحيط الذي جمعنا، والوسط الذي احتضننا؛ هو السببُ في ذلك، لا أقول من باب التذمّر أو إلقاء التّهم بقدر ما هو اعترافٌ صريح بالواقع المرّ، فمنذ أنْ تفتّق خيالي وأبصرت نورَ الحياة وتفتّحت عقولنا مع نورٍ ونحن نرى الفقرَ جاثمًا يرزحُ فوق صدور أهل القرية، يخيّم على بيوتهم وحقولهم، وحتى في الهواء الذي يستنشقون، حتى أحلام البسطاء منهم لم تخلُ من مطاردة الفقر، فهو رابضٌ كالوحش الضاري أمام أبوابنا المهترئة وأسفل جدرانها القديمة التي أكلتها الرطوبة، وحتى في مخايل الوجوه الكادحة والأبدان الكالحة التي في جوعها تقتاتُ الفقر، وإنْ لم تجده ساغت كؤوس الصبر تسلو بها عن العوز.

فهي وإنْ ظمأت تجرّعت أقداحَ المرارة والمرض، حتى في أمانيهم التي شاختْ في نفوسهم منذ أنْ خرجوا إلى الدنيا، وامتلأت صدورهم به، وجد طريقها ما يخنق فيها مجرّد أن تحلم...

لم تكنْ بقريتي مدرسة، فهي كبقية القرى الفقيرة المعدمة قرية صغيرة مترامية نائية، عشّش الفقر فيها وفرّخ، فمع الفقر يكون الهوانُ والضّعة، وبه أنت مجرّد رقمٍ في المعادلة، قد يسقط سهوًا فلا غبار في ذلك ولا حرج، فقطارُ الحياة يسير ويمضي العمرُ دونَ مشورة، فأنت في المحصّلة لا تخلو عن كونك تابعًا لغيرك، فزمامُ قريتنا تابعٌ لزمام قرية كبيرة مجاورة تبعدنا ببضعة كيلو مترات، تتبع شياختنا، وهذا ما جعلها قبلة مَن أراد تعليم أولاده، ولعلّ في رحلة الذّهاب إلى المدرسة والعودة منها جوهر المعاناة، ومحور الصّراع الأزلي في دنيا الطلب، ومربط الفرس، فجميع مَن حولنا يتربّص بنا، وترصد خطانا الصغيرة الواهنة بدءًا من الصراع النفسي الذي لا ينفكّ يعتصرُ طفولتنا ويتحرّش بها وصولا لغدر الطبيعة وثورتها التي لا تنقطع فتتصدّر تقلباتها المشهد.

كان طريقنا ترابيًّا امتدّ لمسافة كيلومترات، استقرّت على جانبيه ترعة كبيرة، ومصرفٌ صغير تنبسط على امتداده الزراعات الواسعة التي ابتلعت قريتنا، فبدتْ وكأنّها ريشة وسط كومةٍ عظيمة من القشّ..

ضاعفت وعورةُ الطريق من إرهاقنا، وزادت من غموض الهدف الذي نسعى إليه، خاصّة وأنّ أكوام التراب ما لبثت أنْ حوّلته أقربَ ما يكون إلى الفخاخ أو الشّراك المنصوبة على امتداده.

وأثناء السير يتوجّب عليك أن تنتبه لموْضع أقدامك خشية السقوط في حفرة لا تلقي لها بالا، فلا سبيلَ إلى تحاشي الأتربة التي تغطّيك من مفرق رأسك وحتى أخمص قدمِك إلا أنْ تكون بهلوانًا يقفز من آنٍ لآخر، وبعد الوصول إلى المكان المحدّد يبدو السائر فيه وكأنّه عاد لتوّه من رحلة حصادٍ شاقة.

يتسلّط التراب بكلّ قسوة وعتوٍّ، متسلطًا بلا هوادة في إفساد أيّ مسحة من زينةٍ أو أثر من جَمال، لم يبدُ الطريق وعرًا لنا وحدنا دون بقية السائرين ممّن سافتهم أقدارهم لهذا المسلك الوَعِر، بل شاركنا متاعبَه القادمون إلى القرية من الغرباء أو الضيوف، أو حتى من أهلها الذين حسبوا لهذه المسافة ألف حسابٍ مع ما علق في أذهانهم من مشاقها التي تستنزف كلّ ملمح من ملامح الإنسانية، وتستفرغ طاقته، وتترك صاحبها مندرسًا على جوانبها إنْ كتبت له السّلامة.

أشغلتُ نفسي مرّات عديدة بمداعبة مياه الترعة الكبيرة الملاصقة للجسر الكبير وأمواجها التي تسير متكاسلة في الصبيحة، أقذفها بحصواتٍ متتالية متفاوتة في أحْجامها وأشكالها، كان كثيرٌ من رفاقي حالُه مثل حالي، يسعى جاهدًا للتهرّب من رتابة الطريق ووحشته التي فرضتها قساوته، وأجبرنا على تقبّلها بلا قيد أو شرط، فيعمدُ أولئك تسلية أنفسهم علّهم يجدوا في هذه المنافسة الوهميّة ما يدفعها عن ذهْنهم ويواصلوا طريقهم، فلا مفرّ أمام هؤلاء المساكين غير التّعالي على أهوال الطريق ومصاعبه التي لا تنفكّ، ومواصلة سيْرهم حتى الوصول للمدرسة.

ظلّت رائحة الطريق لسنواتٍ طويلة تملأ أنفي فتزكمه، وتذكرني أيامي الخَوالي، اعتاد عمّالُ الري الذين عيّنتْهم الحكومة وقتئذٍ رشّ الطريق

بالماء كلّ صباح لتهدئة الأتربة وتسكين ثورتها المتصاعدة كلّما تحرّك على صفحتها شيء فجعل من اختلاط الماء بحصواتها رائحةً مقبولة أغْرت بعض الصّغار بتناول حبّات من الطمي المبتلّ يلتهمها عن طيب خاطر أو يضعها بين يديه يختلس لحسَها بعيدًا عن أعين الرّقباء.

وفي بعض الأحيان كنّا نذهب إلى المدرسة وقد ابتلّت ملابسنا بالماء جرّاء ما كان ينالها من مقذوف الجرادل التي يلقي بها العمّال الذين كانوا في كلّ الأحوال يتّخذون أماكنهم أسفل الجسر لجلبها من المصرف الصغير الموازي لسيْرنا، وبطبيعة الحال يلقون بها للأعلى دون أنْ يكلّفوا أنفسهم مشقّة النظر في كلّ مرّة للسّائرين.

وبعد الوصول لوجْهَتنا وعلى مشارف المدرسة، يتجدّد مع القادمين الجدد وصلة العناء والمشقة بصحبة هذا المحيط الموحش المُمتدّ من حولنا بالرعب، كانت لنا طقوسٌ خاصّة أشبه بالطقوس الجنائزية، اعتدناها في كلّ صباح دون قصدٍ أو سابق ترتيب، عسانا نتغلّب بها على عزلتنا الاختيارية التي تطاردنا، فتفرضُ علينا كرهًا داخل وخارج المدرسة.

نشعرُ بالانكسار، وينتاب قلوبَنا الصغيرة المترقبة الخائفة يحوطنا الفزع كالموت مِن كلّ جانب، وأعين أبناء البلد تترصّدنا في كلّ خطوة وبلا تراخ، وكأنّها طيور العقاب، أو حوم الغربان تدور مِن حول فرائسها، فترصدنا في كلّ مكان، حتى محاولات اجتماعنا ووحدتنا الوهميّة كانت تذهب أدراجَ الرياح مع أوّل صدامٍ حقيقيّ، وإنْ كان مفتعَلا مع بعض أولئك الأشقياء الذين برَعوا غايتهم، وتفنّنوا لدرجةِ الإتقان في اللّعب بأعصابنا، وقراءة طبائع نفوسِنا، القراءة التي مكّنتهم من السيطرة علينا والسّير بنا حسب هواهم، ووفق مزاجهم العَدائي، واستطاعوا بأريحيّة المنتصر تهميشَنا في نطاقٍ ضيق لا يتعدّى موضعَ أقدامنا في حوش المدرسة، أو مكان جلوسنا داخل الفصول، فحالوا بذلك بيننا وبين لحظات المرح واللّهو في أوقات الفسحة اليومية، فتضاعفت في نفوسنا كآبة المكان وضِقْنا ذرعًا بالمدرسة ودارسيها، غير أنّ الأمل لم ينقطع ضوؤه عنّا، فترشد لنا السماء على حين غرّةٍ نجدتها التي تثلج صدورَنا وتخفّف عنها هذه القسوة، فلم يشفع لنا إلا نبوغنا العلمي، وتفوقنا الدّراسي الذي لفت

إلينا الانتباهَ مبكّرًا فنالنا قسطٌ لا بأس به من احترام المدرّسين وعطفهم، وبالتالي أصبح- أخيرًا، وبعد طول صبرنا- لنا شوكة نستطيع أن نقف بها أمامَ جبروت أبناء المكان، الذين عرفوا هذا فينا، وإنْ لم يستسيغوه بداية، لكنّنا على كلّ حالٍ شعرنا في نهاية مشوار التّعذيب والقهر بقليلٍ من الزّهو وبعض الارتياح.

كان طابور المدرسة يُقام داخل أسوارها الضيقة التي لم تكنْ تكفي لجميع الطّلاب فلم نجدْ فيها راحتنا، علاوةً على حالة التردّي والإهمال اللافت للانتباه فمنذُ أن تطأ قدمُك بنيانها القديم الأصفر المتهالك، تصادفك أكوامُ القمامة التي زاحمت أهلَ المكان، وتطايرت مع كلّ هبّة ريح تملأ الأرجاء حتى الفصول نالها ما نالَ بقية المدرسة، ناهيك عن بقايا الورق المُشتعل، ومستنقعات المياه التي تكوّنت في أرضية الحوش تغمرُها غمرًا بفعل خراخير المياه المتسرّبة من صنبور الحوض الوحيد الموجود بالمدرسة، والذي توسّط سورَ المدرسة وحوشَها الضيق، كان أسمنتيًّا كبيرًا وعميقًا بُني ملاصقًا للسور مِن جهته الشّمالية، والذي كان يستعمل لكافّة الأغراض، فهو للشّرب والرّش، وحتى لاستعمالات المرْحاض الوحيد الموجود بالمدرسة والمخصّص لحضرة النّاظر إسحق أفندي، كان رجلا بديئًا قد جاوز الخمسينَ من عمره يتناثر صراخُه في جنبات المدرسة طوالَ اليوم لا ينقطع، كانت له طقوسٌ غريبة وهوسٌ أودَى به إلى الشكّ مُنتهيًا بأن حرّج علينا الاقترابَ من باب المرحاض، تراه حين يدلفُ إليه وقد تبعه عمّي أبو ناصر الفرّاش بجالون الماءِ النّحاسي الذي تراكم عليه الصّدأ وكأنّه طاقم طبّي يتحرّك في غرفة العمليّات ليجري جراحة عاجلة.

ولعلّ في حوادث حوض المياه ما يثير الهلعَ في النفوس، وما كنّا نسمعه عنه ما أقلق نومَنا، وزادنا معاناة على ما كنّا نعانيه، وجعلنا نؤثرُ الموتَ عطشًا على الاقتراب منه؛ تجنبًا للمصير المروّع المحتوم الذي ينتظر مَن يجازف بنفسِه ويلقي بها في الأهوال.

كان عمّي أبو ناصر طيبَ القلب، رحيمًا بنا، يهمّه أمر التلاميذ، اعتاد الوقوف في كلّ صباح منبّهًا التلاميذ توخّي الحذرَ بصوته الحنون:

- الكبير يسقي الصغير، إيّاكم والاقتراب من الحوض وإلا فالغرق مصيركم كمصير فلان...

ومِن الغريب في الأمرألا يمرّ يوم دون أن تسمع بسقوط أحدِ الزملاء في ماء الحوض، فإنْ سلم مِن ابْتلاع الماء الرّاكد القذر؛ لا يسلمُ مِن ابتلال ملابسه والعودة إلى بيته تزفّه جموعُ الشّامتين من زملائه الذين تحلّقوه، تجوب به شوارعَ القرية وصولا لبيته، وكأنّه لص قبض عليه متلبّسًا بجُرمه.

كسيتْ أرضية المدرسة بالأخشاب العتيقة، وأبوابها المشرعة ونوافذها العالية التي غطّيت- هي الأخرى- بالخشب، كلّ ذلك زادَ من ذهولنا، وساهم بصورةٍ أو بأخرى في إدخال الرّهبة إلى نفوسنا الصغيرة التي تفاجأت بهذا العالم الرّحْب المتّسع من حولها، على عكس ما تعوّدته من ضيقٍ بين أزقة القرية أو شاهدته في الدّروب الضيقة المتهالكة من فعل الرطوبة التي حاصرتِ الإنسانية في بيوتٍ أشبه بالقبور، تفوح منها رائحة المرض والإعْياء، ويبيض الفقرُ ويفرّخ فيها، ولا تسمع إلا أحاديث العَوَز والحاجة.

لكنّا- ونحن الغرباء- كنّا نجهل شيئًا اعتاد أصحابُ الأرض فعلَه صبيحة كلّ يوم، كان الأمرُ يُحاك عن قصد، ولكنّنا لم نَعِه؛ فسلامة النية هي التي تسوقنا، والفطرةُ النقية هي المعوّل عليها في هذه الأيام، غير أنّ نيّة التعمّد والتربّص حاضرةٌ في المشهد، في الغالب كانوا يُحجمون عن مزاحمتنا ويتباطؤون ساعة اللحاق بالفصول، على عكس ما تعوّده التلاميذ في هذه السنّ الصغيرة، ظننّا في بادئ أمرنا أنّ الغلبة لنا، وبدأ الغرورُ يتسلّل إلينا، فقد تفوّقنا أخيرًا على أبناء الأرض في أمرٍ ما، ولكنّا ارْتَبنا.. وتساءل أحدُ الخبثاء من بيننا:

- أيُعقل هذا؟ الجميع يعجزُ عن ملاحقتنا في كلّ صباح؟

ولكنّا بعد فترةٍ اكتشفنا سذاجتَنا، وعرفنا ما أفزعنا، وجعلنا نعضّ الأنامل من الغيظ حسرةً وندمًا.

كانت المدرسة مستعمرةً كبيرة، وموطنًا آمنًا لأسراب- وإن شئت قلت- لجيوشِ البراغيث الجائعة، التي استوطنتِ المكان منذ زمنٍ بعيد، كونّها تقبع بين بيوت القرية، فهي بطبيعةِ الحال عُرضةٌ للعدوى، كانت هذه البراغيث تفتكُ بأوّل قادمٍ من التلاميذ، وتنفر به صيدًا سهلا، فتلتصقُ بأقدامه وتتعلّق بجلده، وتتراصّ على ذيل ثيابه كما تتراصّ العصافير

على أفرع الشجر، منتظرة دورَها كي تنقضّ عليه، وهذا ما جعلني أتحسّس- لدرجةٍ عالية- هذه الورطة، وأسعى- جهدي- للتفلّت منها مهْما كلّفني الأمر من عناء، امتهنتُ التّسكّع في الحوش عقبَ طابور الصباح وانصراف الجميع إلى فصولهم، هربًا من هذا الوباءِ الذي ينهش أقدامَ ضحاياه بلا شفقة أو رويّة، كان اللافت للنّظر، والغريبُ في الموضوع أنّ الأساتذة وأطقمَ الإدارة على علمٍ بذلك، فدخولُهم الفصول يعقب دائمًا استقرارَ التلاميذ بالصفوف بمدّة لا تقلّ عن ربع ساعة.

ساعتئذٍ تكون حربُ البراغيث وغارات جحافلها المتتابعة والمسعورة، وهجماتها الفتّاكة قد توقّفت، وأصبحت الممرّات آمنة أمام مَن يدخل مؤثرًا السلامة، وجنّب نفسه لسَعاتِها.

في يومٍ من الأيام التي أعقبت معرفتي بحيلة أفخاخ البراغيث تلك، مددتُ يدي الصّغيرة أتحسّس داخل أحدِ أدراج مقعدي الذي خصّص للأغراض، لعلّي أجدُ فيه الدفء الذي يعوّضني عن برودة الطريق، كنت أفرك يدي من برودة الجوّ، أمرّرها برفق ثمّ أزيدُ من حركتها، وإذْ بكتلةٍ مرنة تتعثّر يدي، فركتُها فركًا خفيفًا دون المتوسط، وشيئًا فشيئًا سعيتُ في إخراجها من الدّرج، أفزعتني المفاجأة، وجعلتني أصرخُ بأعلى صوتي، اجتمع زملائي من حولي:

- برغوث كبير.. ياااااااه.

فعلا لم أرَ في حياتي برغوثًا بهذا الحجْم، لقد قاده حظّه العاثر أن يستقرّ بداخل درْجي، يبدو أنّ المجرم الكبير قد أخذ غفوتَه بعد أن امتصّ ما ملأ بطنه الكبير من دماءِ التلاميذ المساكين الذين قدموا من قراهم البعيدة بعد أن تخطّفتهم الصّعاب، يمشون على شوك الأسى أملا في تلقّي الدّرس بين جدران هذا الوكْر الكبير، لعلّ مصّاصي الدّماء وجدوا في هذا المتّسع مكانًا للاختباء بعد أن امتلأت بطونُهم بما يمتصّوه من دماءِ كلّ قادم، بعدها حرصتُ كلّ الحرص أنْ أحتفظ بهذا الصيد الثمين لبعض الوقت من باب التندّر، أتحاكى بيْن أقراني فخرًا بأنّي الصائد الوحيد الذي حالفه الحظّ، واستطاع الإمساك بأكبر رأسٍ من رؤوس الضّلال التي تعيث في المدرسة فسادًا.

كان مِن المفترض نظيرَ ذلك مكافأتي على هذا العمل البطولي، لكنّ عباراتِ الأستاذ فتحي كانت كافيةً لتعويضي، وهي تنهمرُ عليّ توبيخًا وتقريعًا لا يخلو من لومٍ وتصفير:

- اتركْ هذا الوسخ، إنّك طالب مُستهتر...

أدركت- ساعتها- أنّ البراغيث محظوظةٌ، فها هي بعْدَ جرمها المعلوم تجدُ لها الغطاء القانوني الذي يبرّر لها التمادي في غيّها وإجرامها لتمرحَ كيفما تشاء، فقد أصبح لها مَن يدافع عنها، ويقوّي شوكتها لتمارس سطوتها بأريحيّة.

وفي المدرسة، وبين التلاميذ، حرصتُ على التفوّق، خاصّة وأنّي قد أعددتُ نفسي الإعدادَ الجيد، فلازمت أحدَ أقربائي الذي يكبرني فجعل يرشدني، ويعلّمني قواعد الهجاءِ وأصول الكتابة، والتمرّن على الخطّ وحفظ بعض الأرقام، وأحيانًا إجراء بعض العمليات الحسابية البسيطة من جمعٍ وطرحٍ وضربٍ وقسمة، أضفتْ عليّ مظهرَ التفوّق الشكلي لمَن هُم في مثل سنّي، وجعلتني مميزًا بين أبناء قريتي، فضلا عن تكاسل زملائي عن التّحصيل ممّا سهّل عليّ مهمتي وإظهار مواهبي أمام أساتذتي وإبهارهم بهذه العقلية الفذّة على حدّ زعمهم.

أكسبني هذا التميّز الحظوةَ لديهم، والتي جعلت منّي نجمًا مشهورًا ذائع الصيت.

ولعلّ هذه الشهرة المبكّرة والصيتَ الذائع المكتسب بحقّه ما منحني بعضًا من مظاهر القوّة، وأسبغ عليّ دعمًا نفسيًّا حبّب إليّ المدرسة وزيّنها في نفسي وقرّبها إلى روحي، وفرض من حولي ستارًا أشبه بالمظلّة جنّبني تهاوش أبناء الأرض، وحدّ من مضايقاتهم.

فقد كانوا يسومون الغرباءَ عن بلدهم- وأنا منهم- سوءَ العذاب، ويتربّصون بهم الدّوائر، ففي الطرقات ينزلون عليهم وابلا من السخط بلا مبرر، خارج المدرسة وحتى أثناء رحلة العودة على الجسر الترابي فوق الترعة الكبيرة، فتتكالب جموعُهم المتشاكسة والموتورة، والتي تفنّنت في مضايقتنا ممّا أضافت عناءً آخر شارك عناءَ الطريق ومشقته.

ومع مرور الوقت، اعتاد هؤلاء المعذَّبون الغرباء تحمّل صنوف العذاب وجرعاتِ السّخط التي لا مفرّ منها، مصحوبة بكؤوس المرار بلا سآمة، يتلقّونها في بعض الأحيان بقلبٍ مطمئنّ ونفس راضية مستسلمة، ومِن المفارقات العجيبة تجدهم وقد تضاحكوا يمرّرون النّكات عن فلان رفيقهم الذي حاول عبثًا مقاومة الطغاة الذين وقفوا كقطّاع الطرق خارج حدود القرية منتظرين القادم يسلبونه ما يحمل من التّغذية التي يتسلّمها من المدرسة كالعجوة والجبنة والبيض المسلوق والمربّى والبرتقال، وحتى رغيف الخبز لم يسلمْ- هو الآخر- مِن أيديهم الجائعة الممتدّة بالبطش والعدوان وممارسة السّطو.

فكانتِ اللّكمات والضربات والعصيّ تشرع في الهواء عالية، وتنزل فوق العظام ترضّها لمجرّد تعدّي صاحب التغذية على حصّته، فيا ويلَ مَن سوّلت له نفسه قضمَ قطعةٍ من الصرفيّة، ينتظره الويلُ، ويلقى مِن هؤلاء ما يحسبه حسابًا.

لم أكنْ قد اعتدتُ هذا العدوان بادئ أمري، ولم ينبّهني زملائي عن ذاك المصير المحتوم العاثر الذي ينتظرني بصفتي ضيفًا جديدًا قليلَ الخبرة لا يعرف أصولَ الطريق ولا أصحابه، أو إنْ شئت لغة اللصوص..

تركوني ومصيري فاكتشفتُ هذا بنفسي حرصًا منهم على تحقيق عنصر المفاجأة، والتي ستتحوّل رأيَ العين على بُعْد خطوات قليلة.

وفي اليوم الموعود، كمُنَ اللصوص على أطراف القرية، وعلى بعد أمتارٍ قليلة قطعناها مشيًا على الجسر، وبينما كنّا في لحظات السّمر نتحادث بصوتٍ ضاحك، نتقاذف النّكات أحيانًا، ونتشاغل أحيانًا في مباراةٍ جانبيّة لحلّ بعض المسائل الرياضية، أو تهجّي بعض الكلمات وإذْ بصوتٍ خشن يأتينا من تحت شجرة السّنط الكبيرة المستقرّة على جانبي الطريق:

- قفْ مكانك منّك له... ولا حركة... ولا نفس... أخرج التغذية بسلام وضعْها على الأرض، وانصرف فوراً.

لفتَ انتباهي الحركة العفويّة من الجميع الذين انصاعوا لهذا الآمر الذي جلس القرفصاءَ مستندًا إلى جذع شجرة السّنط، وقد بدتْ عليه

علامات الهُزال والضعف، حتى أنّ جلده لم يسلمْ هو الآخر من الوباء، فهو ينهشه بأظافره مرّة، ومرّة يهرش فروةَ رأسه فيعبث بشعره الطويل الذي غطّى ملامحه، حتى بدا وجهُه الشاحب كأنه يقطر صُفرة..

حاولت أن أستفسرَ عمّا يحدث من حولي، ولكن دون فائدة، لم يعِرْني أحدُهم اهتمامًا؛ فقد انشغل الجميع في همّه، وبدتْ عليهم مظاهرُ الجدّ وأصبح شاغلهم الأوْلَى بالاهتمام الإسراعَ في تحضير ما بأيديهم استعدادًا لتسليمه، فقد سبق السيفُ العَزَل، وفي لمح البصر تكوّنت كومةٌ عظيمة من صنوف التّغذية، كانت حبّات البرتقال الأصفر الشهي على اختلاف أحجامها تتدحرج على الأرض، وبدأ الجميع يأخذ وضع الانصراف، لم أشعر إلا ويدٌ تهزّني من كتفي بعنف، فنظرتُ إليه وقد أخذني الذهول، كان صديقي وقد زاغت عيناه، وتصلّب جسده، وجفّ حلقه، وهو يقول:

- ضعْ كلّ ما معك هنا، ولا تخبّئ شيئًا منه، وإلا فيوْمُنا هذا لن يمرّ على خير... أرجوك.

انصرف الرّفاق بعد أنْ وقفوا على مسافةٍ صغيرة من وجبتهم المسلوبة، وأعينُهم تفيض من الدمع، ونفوسُهم الحزينة كاسفة وجلة يشيّعونها بحسرات وكمَدٍ تخرّ لمرارتهما الجبالُ الرواسي.

أخرجتُ ما في يدي ووضعتُه في المكان المخصّص له سيرًا على العُرف المتّبع وتأسّيًا بهم، اقترب منّي الصعلوك الهزيل، ونظر في وجْهي مبتهجًا، وقال متحديًا:

- هل أنت جديد؟! أحسنت....

قلت له وأنا أبعِدُ وجهي عن وجهه الذي امتلأ بالبثور، وعينيه التي فاضَ منها الصّديد:

- نعم جديد.. يلزم خدمة؟

لم يردّ عليّ جوابًا، ولكنّه انهمك في جمع التغذية التي تناثرت هنا وهناك في حِجْره، والتقاط حبّات البرتقال التي كانت تتلألأ تلألأ قطع

الكهْرَمان، ثمّ مشى ناحية نخلةٍ كبيرة تمدّدت بعرض المصرف المجاور للطريق، بعد أن قفز عليها ليعبر المصرف، ويغيب عن الأنْظار وسط حقول القمح الطويلة.

جعل الرّفاق يعنّف بعضُهم بعضًا، ويلقي كلّ واحدٍ منهم باللائمة على صاحبه، فمنهم مَن يقول:

- كيف لفردٍ أن يغلب المجموع؟

- لا بدّ أن نوقفه عند حدّه المرّة القادمة، مَن يشاركني صدّه؟

قلت لهذا الشجاع المنبري من بين الصفوف:

- نعم، أنا معك....

حقيقةً أخذتني حماستي على ما يبدو، فلم أشعرْ كيف تفوّهت بهذا الردّ المتسرّع دون رويّة، كانت الكلمات تتدفّق من بين شفتي ولا أستطيع لها منعًا، حاولت السيطرةَ عليها واحتجازها أن تخرج ولكنْ دون فائدة فقد كانت أسبقَ إلى الخروج من رصاصات مدفع رشّاش.. لتتركني من بعدِها في شدّة الفزع من المصير الذي ينتظرني، فغدًا ليس ببعيد، وبدأتْ تلقّني حالةٌ من الصمت الذي استغرقتُ فيه حتى وصلت إلى مشارفِ قريتنا، فلم أنطقْ بكلمةٍ واحدة، وأنا مَن تعوّده الرّفاق ثرثارًا كثيرَ النّكات، ولم أشعرْ هذا اليوم بالطّريق ومصاعبه كما تعوّدتها، كنت مسلوبَ الوعي تمامًا.

تخيّلت منظرَ هذا اللصّ القذر، وهو ينتزع وجبتي من بين يديّ بالقسوة، ويدُه تبطش بي بلا رحمة، وقد انفردَ بي بعد أن انصرف أبناءُ الطريق في شماتةٍ وتشفٍّ لجرأتي التي لم أحسبْ لها حسابها، وهو يكيلُ لي الضربات، وقد كسرت قبضتُه أسناني وسالَ دمي يغطّي ملابسي، فلا مخلّص لي من يده إلا الموت، أو عابر سبيل يسوقه القدرُ إليّ ينقذني مِن هذا الوحش الكاسر، لقد كانت ساعة شجاعة عابرة كنت أظنّها ستذهب كغيرها أدراج الرّياح عندما تبردُ المعركة وتهدأ الأعصاب الثائرة والدّماء الفائرة، لكنّ الأمر تأزّم، ولا خلاص منه.

تمامًا كما يحدث كلّ يوم، لكنّ هذه المرّة زادت الجرعة عن الحدّ المقنّن ولن تسلمَ العاقبة، أثبتْ نفسي وأشبعتها توبيخًا على هذا الاندفاع والتهور، الذي حتمًا سيقودني إلى التّهلكة لا محالة، طاردني كابوسٌ مزعج طوال الليل، حاول اللصّ مطاردتي وابتزازي وانتزاع وجبتي دون هوادةٍ منه، وقد طرحني أرضًا، ووضع التراب على رأسي في مَهانةٍ وتذلّل، حاولت النّوم مرّة أخرى، ولكنّه نومٌ متقطّع لا يصمد ساعةً على بعضها.

أدركتُ- عندها- أنّ الكارثة محققة، وهي تنتظرني لا محالة بعد ساعات قليلة أنا وصديقي الشّجاع صاحب الفكرة، تمنّيت ساعتها أنّي لم أقابله أو حتى لم أولَد في هذه الدنيا، وفي الأخير طلبتُ من الله العونَ والمددَ وهيّأت نفسي لمصيبتها طواعية، فإنّ بوادرها قد هلّت وهي نازلة بي نازلة.

مرّ يومُنا الدراسي كالمعتاد، لكنّي كنت على خلاف غيري من رفقاء الطريق، ساقتني الفضول سوقًا للنّظر إليهم خلسةً دون أن يشعروا، وما أضحكني هو تسابقُ رفاقي وتزاحمهم الصفوف لتسلّم وجبة التغذية، ضحكتُ بصوتٍ عالٍ، وقلت في نفسي متحسّرًا:

- يا لهؤلاء البلهاء! مساكين يزاحمون غيرَهم لإشباع عدوّهم الذي يتربّص بهم بعد قليل.. مصيبة!

على ما يبدو أنّ الرفاق قد غفلوا قليلا، أو ربّما راهنوا على الحظّ أو عامل الصّدفة، فلعلّ داهية أو نازلة أو مصيبة تحلّ بهذا اللص الوقح فنستريح منه ونأمنُ شرّه، فنهنأ عندها بوجبتِنا اللّذيذة ولو ليومٍ واحد، فقد نسينا طعمَها من طول الهجران ومرّ القطيعة.

الغريبُ في الأمر أنّنا لم نسلك طريقًا جانبيًّا أو مخالفًا لطريقنا الذي يسوق إلينا هذا اللّصَ المتربّص فنتحاشى سطوته.

لكنْ آثرنا في النهاية قصر المسافة مع السّلب والنّهب والتربّص وقليل من الفزع على بعدها.

وفي مُنتصف الطريق فجأة توقّف ركبُ الرفاق... على ما يبدو أنّهم تذكّروا المتربّص وحالهم معه ولكنْ بعد فوات الأوان، فها هم يقتربون

من كهفه الذي ينتظرهم فيه كالأسدِ الضّاري، وينتظر وليمتَه التي تقترب منه على بعد أمتار، فليهنأ بها.

جعل كلّ واحدٍ منّا يفكّر في حيلةٍ للخروج من هذه الورطة الصعبة، قال أحدهم وقد أمْسك وجبتَه بين يديه:

- سآكلُها، وليفعل الشقي ما يفعله.

صرخ صديقُه في فزع، وهو يمسك بتلابيبه:

- إيّاك أن تفعلها، أجننتَ يا فتى! أتريد هلكتنا أيّها الشقي التّعيس.

بحثتُ في وجوه القوم، فلم أجدْ بينهم- ولا منهم- متحمّسًا يحدّث نفسه بالنزال أو خوض غمار الحرب لأجل قضيّته العادلة، سوى صديق الأمس الذي اقتربَ منّي، يشرح لي في توجّس خطّته، ونظرية الكرّ والفرّ، طلب منّي أن أنتبه لشرحه وأعي كلّ حرفٍ فيها؛ فالوقتُ يداهمنا ولا مجال للخطأ، كان نصيبي من الخطّة يتلخّص فقط في تقديم قليلٍ من المعاونة والمساندة عند الحاجة، أمّا هو فقد تكفّل بكلّ شيء أثناء المعركة من الألف إلى الياء، نظرت في وجْهه، فوجدتُ فيه من الحماسة والإصرار ما أدخل الشجاعة إلى قلبي المضطرب، وسكنت أنفاس صدري التي كادت تخلعُه منذ الصباح، شعرت بدبيبِ القوّة يسري في جسدي المرتعش، ويملأ عروقي التي جفّت من الرّهبة، لكنّه عرض عليّ خطته البديلة في حال فشلت الخطة، فعلينا بالهروب من المكان فوراً وفي لمح البصر، أنا والمجموع بعد أنْ أعطاني وجبته لأجعلها في عُهدتي، محذّرًا إيّاي:

- التّغذية بحياتك.. أفهمت؟ اجْرِ بها.

تسلّمت منه التغذية محتضنًا إيّاها بين يدي، فتضاعفت بذلك مسئوليتي، وبدتْ مهمّتي منذ أن أدخلتها إلى حقيبة ظهري، وعلى بعد خطوات ليست بالقليلة، جاءنا كعادته الصوتُ المزعج يصمّ الآذان من المكان نفسه تمامًا كعادته كلّ مرّة:

- ها.. أقفْ مكانك.. هل يجب أن أقولها كلّ مرّة؟!!

لم يبدِ أحدُنا أيّ اهتمام لكلامه المتواصل بالتوبيخ والتقريع، فقد ضمن الرفاق أنّ اللصّ سينشغل بفريسته، وبذلك يخلو لهم الجوّ، فعلى ما يبدو أنّ القدر قد ابتسمَ لهم من جديد، وها هو يسوق لهم ما يجعلهم في مأمنٍ من كيْدِه، فبإمكانهم بعد صبرٍ أنْ يفوزوا- ولو مرّة- بوجبتهم، ويهنأوا بحلاوة طعمها اللّذيذ.

جعل كلّ واحدٍ من القوم يمنّي نفسه المتلهفة، يصبّرها؛ فبعد دقائق ستظفر بالمُراد، ويتحقّق الحلم الذي استمرّ لأسابيع يراود خيالهم الجائع....

كانت الأمنياتُ الورديّة تتوالى تباعًا كلّ ثانية، تتلاعب بعقول الجميع، وأنا منهم، حتى أنّ البعض غاصَ في أحلامه حتى رقبته، فلم يتنبّه أصلا لتحذيرات اللصّ نفسه الذي جعلَ يردّد:

- ماذا سأفعل بالتغذية، ومَن سيشاركني فيها من أهلي؟

لم يجدِ اللصّ بدًّا من الوقوف في مكانه على مقربةٍ منهم، فقد استشاط غضبًا، وبلغ به الصبرُ مبلغَه، فلم يحتملْ هذا التجاهل والخروج المتعمّد من فرائسه لما وضعه من قوانينَ للسّلب، فهذا إهمالٌ، وتعمّد لتكسير اللوائح وخروجٌ عن التقاليد، ولا بدّ أن يعرف كلّ واحدٍ حدوده.

تحرّك في غضب ناحيتَنا متوّعدًا مَن تجاوز حدود الأدب، وقد توعّدنا بالتأديب والعقاب الفوري إذا لزم الأمر، والذي سيطال الجميع بلا استثناء، كي لا تسول لنا أنفسنا مرّة ثانية التجرّؤ على هذه الفعلة، لقد فقد رشدَه المسكينُ وهو الحكيم، وآنَ له أن يغضب.

وما أنِ اقتربَ منّا حتى انقضّ عليه صديقنا المتنمّر فجأة، ودون سابق إنذار يُحسب، فأوقعه أرضًا، وفي لمْح البصر اعتلاه وأخذَ يكيل له اللكماتِ كيلا، ويسدّد إليه الضربة تلو الضربة، ولعلّ هذه المباغتة كانت السببَ الرئيسي لأنْ تخور قواه ويتشتّت وعيُه ويضيع تركيزُه، ولا يجد إلا الانبطاح مهربًا.

ولعلّ هذا ما شجّع الفلول المنسحبة من أرض المعركة التي انسلت من الميدان على حين غرّة، وأسلمت للريح أرجلَها فرارًا بوجبتها، بعد أن نشبَ النزال على العودة ثانية، والانضمام عن قناعةٍ إلى وليمة التأديب

والضرب لهذا اللصّ الجبان لتثبتَ شجاعتها، وتعود إليها الثقة من جديد، بعد أن أوشكت على نسيانها والرضا بالخنوع والذّل، بعد أن دجّنهم هذا المفتري، ونزع منهم المَهابة، وحوّلهم إلى مسوخ يسمعون إليه ويطيعونه راضخين، وهُم قوّة لا يُستهان بها.

كان تجمّعهم ذرًّا للرّماد في العيون، فقد وقع اللصّ أخيرًا على كلّ حال، وهو الآن في قبضة يدِهم، ولن تقوم له قائمة بعد اليوم، ولا بدّ من مشاركتهم هذا التّحفيل، وبين لكْمٍ وضربٍ ودفع وصراخ من اللصّ بعد أن تكاثرت الأيدي عليه، تعالت عندها توسّلاته ووعودُه بعدم التعرّض لهم مرّة أخرى في المستقبل. توقف الاشتباك عند هذا الحدّ، ولاذ اللصّ بالفرار هربًا من مصيره المحتوم فرارَ الثّعلب المكّار.

لعلّ انتصارنا المحدودَ في هذه الواقعة كان السببَ الرئيسي في تقوية شوكتنا وعودة الثقة إلى قلوبنا المرتجفة، ومنحنا- ولوْ جرعة قليلة من- الثقة والشّجاعة والإقدام، والتي أظهرت فينا أهمية الاتحاد وحتميّة الاجتماع، وشعرنا أنّ في الاتحاد قوّة.

ومِن ساعتها أصبح لنا كيانٌ يتشكّل- ولو ببطء- في عالمنا الجديد هذا، كانت بدايتُه على الطريق، ونهايته داخل جدران المدرسة وبين الصفوف، لتصبح شوكتُنا أقوى من ذي قبْل.

ذات صباح

تبدأ رحلة العذاب والضنى- كما يسمّيها البسطاء من أهل القرية- مع طلوع الشّمس من كلّ يوم، هناك عند قمم النّخيل العالية التي تحازي القرية من جهة الشّمال عند المصرف الشرقي، والتي تتسلّل خيوطها في الفضاء العميق الممتدّ يغلّف جوانب القرية، ومن حول حقولها وبيوتها الفقيرة المشبعة بالفقر والمثرّعة بالحاجة، والمتراصّة شاخصةً شخوصَ القبور، تداعب جدرانها من بعيدٍ برفقٍ وهوادة، وكأنّها تمسّ الأرض المحيطة بها مسًّا خفيفًا، بشفقة وحنوّ مُتضامنة في انحيازٍ واضح لهؤلاء المساكين الذين بدؤوا يومهم بعد أن انْكشح ظلامُ الليل الجاثم على صدور المكان، يرزح فيه لساعاتٍ يفترسه الترقّب والانتظار لمصيرٍ لا يعلمه إلا الله.

كانت الطبيعة تترقب يقظة خطوات أرباب المتاعب الذين هبّوا أخيرًا ينفضون عن عيونهم آثارَ الكرى، ويغسلونها بماء البشر الذي يأملون معه عسى أنْ يفارقهم الفقر ويتنحّى عنهم العوز، ولو قليلا مع مقدم هذا الصباح الجديد، كما زالَ عنهم نعاسهم وانسحب من بينهم كسلُهم، ودبّ فيهم النشاط الذي يقودهم بعد قليلٍ إلى مصيرٍ يومي محتوم، يسير إليه الكادحون كآلاتٍ لا تهمد ولا تتوانى، ولسانُ حال كثيرين يقول بملء فيه:

- فما جدوى التّكاسل مع أفواهٍ جائعة وبطونٍ خاوية، ودور لعب الفقر بها بعد أن حطّ رحلَه قانعًا بحاله المشئوم، إنّه لن يتزحزح عنها حتى يتركَها أشبه ما تكون بالمقابر الخَربة، ولكنّ الفارق أنّ أهلها أحياء يُرزقون ما يبلّغهم الموت، ويسلمهم ببطء، ويستدرجهم إلى رقدتهم النّهائية التي سبقهم إليها آباؤهم طرائد الفقر والحرمان، ففي هذا القدر العاثر واليأس الشديد المُطْبق كلّ ما تركه السلفُ للخلف، يا لها من تركةٍ مثقلة بالذّل من الذين كفّوا أيديهم في خنوعٍ ومهانة لا تعرف للجدّ سبيلا، فلقمة خبزٍ وجرعة ماءٍ ولفافة تبغ وكوبٌ من الشاي المغلي هي غاية المُنى، وجدت فأهلا بها، وإن لم توجَد فصبرٌ جميل، والله المُستعانُ، فحالنا أفضلُ من غيرنا.

في هذه الساعة من كلّ يوم، تعجّ بيوت القرية عند انبلاج الصّبح بالجلبة المُعتادة إيذانًا ببدْء يومٍ جديد في صحبة التّرحيلة يتسابق أهلُها- كبيرهم وصغيرهم- كلٌّ إلى وجهته في عفويّةٍ تسابق الفراش حول النار.

كانت الحياةُ تدبّ بعفويةٍ في القرية مع أشعّة الصباح المسترسلة يغلف الصخبُ كلّ شيء، غير أنْ لا جديد يُذكر؛ فالكلّ يؤدّي دوره المرسوم له بعزيمةٍ لا تعرف اللّين، ولا تدركها النّواني، حتى حيوانات الحظائر، والطيور الدّاجنة في أعشاشها على أسطح بيوت القرية، ودوابّ الطريق التي خرجت من فوْرها، فالهَمّ واحد.

وفي توقيتٍ محدّد لا يخلف موعده أبدًا تفتح أبواب الدور الخشبية المتآكلة دفعةً واحدة بأصواتها التي تشبه نواحَ مَن فقدت غاليًا عليها، ربّما من توالي الأحزان عليها أو شفقة على هؤلاء المساكين الذين خرجوا ليقاسوا المتاعب جريًا وراءَ لقمة العيش، فيخرج الكبيرُ والصغير على السواء متكاتفين في الهمّ، لتبدأ مسيرة الكدّ، وخُطا الشّقاء التي تدبّ تسارع لتحظى بقسمتها في متاعب الدنيا وأهوال الحياة، والغريب أنّ هذا دأبٌ بين زملاء الكفاح الذين رضوا بهذه الأنْصبة، الذين انتظموا في ميثاق الكدّ، وتزاملوا في طريق الكفاح، لا عجب في ذلك فكما تزاملوا في البؤس والحرمان؛ ها هم يتزاملون في مسالك الكدح التي رسمها لهم مَن سبق، بل وإن شئت قلت أورثوهم إيّاها، فلا يحيدوا عنها قيدَ أنملة، سائلين المولى الكريم من فضله أن يديم عليهم هذا الحال، وألا تنقطع عادتهم تلك في كلّ صباح.

لقد غابتِ البراءة، وانتحبت الرّاحة على طول الطريق وعرضه، وحامت طيورُ العذاب حول مَن ساروا، فها هي تنظرُ إلى هؤلاء الأشقياء فلا ترحم صغيرَهم ولا توقر كبيرهم، فالكبار قد تعوّدوها من قبلُ فلا غروَ في ذلك، لكنّ المأساة في الصّبية الصغار بأعْوادهم الغضّة الذين عرفوا وهُم في عمر الزّهور طريقَ العرق والدموع، ساروا على أشواكِ الحاجة حفاةً حتى دميَتْ قلوبُهم البريئة، ولوّثت فطرتهم الصافية، وتيبّست إنسانيّتهم مع أجسادهم التي لفحتْها الشمسُ في الحقول، وافترستْهم حياة الترحيلة، وأصبحوا من ضحاياها الجُدد الذين يأتمرون بأمْرها، والغريب في الأمر أنّهم ومع مرور الوقت استعذبوا

تلك الحياة، واستساغوها عن قناعةٍ واستبشار، فجعلتهم كعرائس الظلّ، وتحوّلوا طواعيةً إلى مسوخٍ تتحرّك مع ضوء الشمس ذهابًا وإيابًا تسرق منها أعمارها وهي لا تعي، فصاروا إلى أشباحٍ تتوارث حياة الذل والمسْغَبة، تلهث وراء الفتات المُتساقط من موائد الأكابر أصحاب الدوائر والأبْعَديات، يلقون مع كلّ غروبٍ ما يسدّوا به أفواههم الجائعة، ويستروا معه عوراتِهم التي كشفتها العيلة ونقمة الفقر المورّث.

ولعلّ في نداءات الفتيان لبعضهم البعض بين الدروب ووراء الأبواب، وخلف الجُدران التي تبثّ شكواها هي الأخرى من نيْر الظلم والحاجة؛ ما يثير الشفقة، وقد كستْ وجوهَهم ابتسامةٌ متحجّرة، ولفتات محفوظة مكرّرة، وابتسامات من وجوهٍ منهكة مَنزوعة الإحساس يتبادلونها وهُم في نشوةِ المستسلم لقضاء الله وقدره، فتراهم يتصايحون:

- هيّا يا أولاد... لقد تأخّرنا اليوم، لا يزال أمامَنا طريقٌ طويل، فاليوم النداء عند ماكينة عصيدة.

مع هذه النّداءات المتكرّرة تنساب أسرابُ البؤس وجحافل البؤساء من بين الشّقوق ومِن خلف الجدران، ومِن داخل كهوف الطين والأوحال، ومن بين ألواح الخشب اللّيّن حفاةً لا تستر جسدَهم النّحيل الأسمر إلا خرَقٌ باليةٌ وأسمالٌ ممزّقة يسمّونها جلابيب، أمْسك كلّ واحدٍ منهم بقطعةٍ من القماش ملفوفةً بإحكام، كوّرها تحت إبطه يسمّيها الزّوّادة، دسّ فيها كسراتٍ قليلة من الخُبز اليابس، ولا بأسَ من بعض قطع الجبن القديم وشريحة من البصل، والسّعيدُ منهم مَن ابتسم له حظّه فجَدّ ليدخرَ من قروشه فضلةً فيشتري قالبًا من الحلاوة الطحينية، والتي تجعله يمشي في خُيَلاء، منتفخًا يملؤه الكبرياء وتسوده العظمة بين رُفقاء الطريق الذين اكتفوا دونَه بوجبتهم المُتواضعة التي بالكادِ تكفيهم لأنْ يكملوا يومَهم الشاقّ الممتدّ من قبْل مطلع الشمس حتى أذان الظّهر.

ومع مسيرةِ التّرحيلة المرّة، سار الصّبية هذا الصباح كما تسير القرابين التي تُساق إلى المذبح، ولعلّ في حضور الطبيعة ومشاهدتها إيّاهم ما تنفطر لهولِه القلوبُ، فها هي الشمسُ تبكي حنوًّا عليهم ورأفةً لكسرتهم، وحتى أفرع الشّجر تجدُ في ظلّهم أيْنما ساروا مِن تحتها ما

تستطيع منحَه لهذه الأفراخ الصّغيرة التي هجرت أعشاشَها في هذا البكور، وكذا نسمات الصباح الرّقراقة التي تتسابق مُنسابةً كي تحتضنَهم بردًا وسلامًا تشيّعهم بتوجّس منها أشبه بما ترسله الأمّ الحانية من نظراتِ الشفقة على وليدها، فيا لقسوة الحياة التي ساقتهم إلى مواطن السّخرة ومراتع الشّقاء وهُمُ الزهورالصغيرة التي لم تتفتحْ بعد.

وعلى امتدادِ الرّحلة الطويلة على الجسر المشوبة بالعَناء سارت أقدامهم الصّغيرة لا تكلّ، تدبّ حافيةً على الأرض وتتنقل على التراب المُلتهب، فعلى ما يبدو أنّها استحلّت هذا العنت، وتعوّدت مذاقه المرّ، كيف السبيل أمامهم، فلا حولَ لهم ولا قوةَ، هُم أشبه بموتى مسجّين في أكفانهم، لكنّ الفارق الوحيد بينهم أنّهم يمشون على الأرض، ما أقسى هذه التّركة التي ورثوها عن أجدادهم دون اختيارٍ منهم، يا لحظّهم العاثر! لم يتركوا لهم إلا السّخرة، ولم يحملوهم سوى المتاعب، ولم يقذفوهم إلا بين أحضان الترحيلة التي لا ترحمهم، فتتكالبُ عليهم عذاباتُ الحقول التي ابتلعتهم مع الصباح وتلفظهم عندَ الظهيرة، وسياطُ جلاديهم المسلّطة عليهم بلا هوادةً تسوقهم سوْقَ الدّواب كلّ يوم، وكأنّها تستدرجهم إلى قدرٍ لا يعلمه إلا الله.

يتأبّط الصغار أذرعَهم العارية يتغنّون أغانيهم التي يحفظونها عن ذويهم يردّدونها بكلّ مهارة، علّها تلهيهم وتُنسيهم ما ينتظرهم مِن المشقّة، ولو لبعضِ الوقت، وقدِ امتلأت الطرقاتُ بضحكاتهم البريئة المتطايرة في حقول القطن التي امتدّت بلا نهاية من حولهم، حتى وصولهم مكانَ النداء الذي ينطلقون منه، وفي الغالب ما يكون موضعًا معروفًا لدى الجميع، كساقية كبيرةٍ أو طولمبة مياه، أو قنطرةٍ مشهورة، أو حتى نخلة حلوة التّمر.

يجلسُ هؤلاء في صفوفٍ مُستقيمةٍ لا حراكَ فيها ولا كلام مُفترشين التراب، وقد احتضنوا وجبتَهم التي جلبوها مِن بيوتهم، يمنّون النفسَ بتناولها حين يأذن لهم "الخولي" المأمور بتشغيلهم من "الملاحظ" الذي عيّنته الدائرة الكبيرة لمتابعةِ الخِولة الذين يتابعون هؤلاء الأنفار في حقول القطن لجمع "اللّطعة".

وبعدَ مناداةِ أسماء الحضور وتلاوةِ القوائم والكشوف لمعرفة الحضور والتّسجيل في كشوف اليوميّة التي ترسل أسبوعيًّا لكاتب الدايرة، يسترسل المُلاحظ في قراءته أسماء الصّبية مجوّدًا إيّاها وقد وضع قلمَه فوق أذنه العَريض وشمّر عن ذراعيه وتأبّط فرعًا من شجر الصفصاف الرّخو، يلسع به مَن يهمس- ولو همسًا خفيفًا- إلى جاره، كانت قراءتُه مكسّرة ضعيفة ركيكةً في أغلب أحيانها، على الرغم من ترديدها يوميًّا في نفس الموعد من كلّ صباح.

علاوةً على أنّهم من أبناء قريةٍ واحدة، لكنّه فعْلُ النظام والرّوتين الذي حوّل الجميعَ إلى دوابّ تنقاد بأمره، وتسير مع وجهته دون رويّة.

يقفُ الملاحظ منتشيًا في حلّتِه التي لم تخرجْ عن جلبابٍ أزرق، وفي أحيان كثيرة أخضر خفيف من السّكروته، وقد رفّ طرفُ شاشِه الأبيض المتدلّي من فوق كتفيه بعد أنْ أحكم ربط عمامةٍ خفيفة فبدتْ رأسه للناظر من بعيد تمامًا كعريس يوم زفافه، والتي كوّرها فوق رأسه فأكسبت صاحبها زهوًا يضيف إلى مكانته علوًّا بين أنفاره، ويجذبُ الأنظار التي زاد تعلّقها به ممّن ألف نفاقه واستهْوته مداهنته هربًا من الانتظام كبقيّة الأنفار في الصفوف الذين انْحنت ظهورها تبحثُ عن تعبها وسط شجيرات القطن الصغيرة.

ولعلّ في موسم "اللّطعة" فرصةً مناسبة يقتنصها الملاحظ، يزايد فيها على مكانتِه بين أبناء القرية البُسطاء الذين فتنوا به أيّما فتنة، وتزيد هذه الحظوة خاصّة في هذا الموسم من كلّ عام، وإنْ كانت لا تفتر بقيّة السنة، فتراه مختالا بين طُرقات القرية ودروبها وعلى نواصي شوارعها وحاراتها التي ينسكبُ منها القيظ، وتعجّ من نوافذها رائحة الفقر وأنّات الجوعى، خاصّة في ساعة القيلولة.

فينالُه ما نالَ نجوم السينما الكبار الذين أخذوا حظّهم من الشهرة والقبول بين جمهورهم، فتوزّع عليه الابتسامات من ناحية، ومِن ناحية أخرى تتطلّع إليه العيونُ، تضاحكُه في ذهابه وإيابه مترصّدة خطاه المتعمّدة في شوارع القرية بلا داع في تلك الساعات.

فيا سعدَ مَن رضي عنه ومنحَه ودّه، ولو ليومٍ واحد، فما بالك بمَن خصّه بالمُلاطفة، ومع المرور المزعوم لذاك الطّاووس، تتسابق الحناجر بالتّحية وهي تردّد السّلام:

- تفضّل شرّفنا يا سيادة المُلاحظ، طيّب كبّاية شاي..

وبعدَ أن ينتظم الفتية في صفوفهم التي امتدّت وسط الحقول، تجوب أرض الدّايرة جنوبًا وشمالا تتنقل من حوضٍ إلى حوض، ومن مجرى لآخرَ بلا توقف أو هوادة.

وبيْن ساعات الجدّ ودقائق الكدّ يمضي الوقتُ سريعًا على كلّ حال، فلا تجدُ الشمسُ بدًّا من أن تكشّر عن أنيابها، أخيرًا وبعدَ تروٍّ وتحنّن حانَ وقتُ المصارحة، تعبث بأجسادِ الصّبية الذين يستجدون أشعتها الحارقة متطلّعين إليها بيْن الحين والحين بنظراتٍ لا تخلو مِن براءة أن ترفق بهم، وأنْ تُمهلهم بعضَ الوقت حتى موعد عودتهم إلى بيوتهم وقتَ الظهيرة.

ولكنّها لا تخرج عن أعْرافها التي تعوّدتها كلّ يوم، فهذا نظام الله تعالى في خلقه، منذ أن قدّر في الأرض أقواتَها وبثّ فيها من كلّ دابّة.

ولعلّ المُضحك المبكي وسطَ مشاهد السّخرة تلك التي اكتوت معها ظهورُ هؤلاء الصّغار ما يتخلّلها ما يثير السّخرية ويدعو إلى العجب، وما هو إلا لذرّ الرّماد في العيون، فلا بأس من أنْ يعطي هؤلاء الجلادون ضحاياهم استراحةً قصيرة يتجرّعون فيها شربةً من ماء تبتلّ بها عروقهم التي تيبّست بعد أن سلبتْهُم الشمس وأشعتُها نضارةَ أجسادهم، وحوّلتهم أعوادًا صلبة فبدوْا وكأنّهم خشبٌ مسنّدة.

فتتوزّع الفتيات الكبار المكلّفات بأعمال السقاية على طول الخطوط، يمرّرنَ جرارهنّ الصّلصال المملوءة بماء الطولمبة أحيانًا، وأحيانًا كثيرة من مياه التّرعة الجارية في غفلةٍ من عينِ المُلاحظ، والذي اعتاد أن يركب حماره العجوز مارًّا بحقول الدايرة، يتفقّد ما يصلح لنزول الأنفار، خاصّة بعد جفاف أرضها من مياه الريّ.

عندها يفترش البؤساءُ المجاري والجسور، يلتقطون فتاتهم الذي أحضروه من بيوتِهم، ويسكبون فوقه فضلةً من الماء البارد علّه يساعدهم على ابتلاعه بعد أنْ تصلّبت حناجرهم من الجوع والعطش.

كان مِن عادة المُلاحظ أن ينعمَ على هذا القطيع من البؤساء بثلاثِ شربات من الماءِ، تقدّم إليهم كلّ مدّة بعد أن يبلغ بهم العطش مبلغَه مِن الصباح وحتى وقتِ الظهيرة، فتجد صفوفهم وقد اختلّ نظامها، وتباطئ سيرُها، وتتابعت النّظرات خلسةً دون العادة تراقبُ القادم من بعيد، وكأنّها تسير خلف سراب الصّحراء الخادع، ولعلّ في رؤية "الملايات" يحملنَ الجرار من بعيدٍ ما يعيدُ لهؤلاء المعدومين الأملَ في أنفسهم، ويترعرع الحلم في صدورهم بأنّ فضلة من الحياة لا تزال تُمنّح لهم ليقووا على مواصلةِ رحلة العذاب التي لا فِكاك منها، ولا سبيلَ للحيلولة عنها إلا سبيل الموْت.

وكعادته، يخرج الملاحظ متمطّعًا من تحت الظلّ الوارف بعد أن أخذ حظّه منه تحت جريد النخيل طوالَ الوقت، والذي جعل همّه فيه يشرب الشاي، ثمّ يبتلعُ كالثعبان طعامَه الذي يحمله له صبيّ من أصحاب خصيصة ممّن رضي عنهم ليشرف بنفسه مع "الخولة" على إجراءات الشّرب تعطفًا منه وإكمالا لفصول مسرحيّته العبثية الممْجوجة التي يتوارى خلفها لسنينَ دون حياء، جهلا منه أنّه يستطيع الاستمرار في تمثيلها، وخداع أهل القرية الذين قبلوها منه رغمًا عنهم، فما دفعهم إلى مجاراته إلا نارُ الحاجة التي تطاردُهم في نومِهم ويقظتهم، فلا يجدوا أمامَهم إلا الصبر يتجرّعونه عساه يسلّيهم عنتَ الحياة التي كشفت عن ساقيها، تلطمهم ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال بعد أنْ تخدّرت فطرتهم، فارتجفت قبل أن تهوي في بئرٍ من الحرمان سحيق، تلك حياتُهم وهذه معايشهم.

ولعلّ في طقوسهم اليوميّة التي يؤدّونها بين شجيرات القطن ما يكمّل مشاهد المأساة، فتخالهم حين يهرسون أوراقها المصابة بالعدوى تتقاطر من بين أيديهم اليابسة التي لفحتها الشمس، فتركتها سوداءَ هزيلة، يرقاتُ الديدان.. وهُم يوزّعون ابتسامتهم فرحين باستحسان المُلاحظ الذي يزأر كلّ فترة بعبارته المعتادة حتى حفظها الصغارُ، فكثيراً ما يردّدونها معه يتندّرون في خوف:

- قلّب وخشّ.. البيه المعاون جايّ منّك ليها...

تعوّد الصغار كلّ شيء من حولهم، فتقبّلوه كما هو بنفس رضية دون امتعاض منهم، مستسلمينَ لقدرهم المحتوم الذي وضع بين أيديهم ميراثهم من التعاسة، ووزّع عليهم بالتّساوي آلامَهم وأوجاعَهم، فساروا في الطريق يجهلون المصير، حتى يسلموا راية ما ورثوه إلى أجيالٍ أخرى قادمةٍ لتأخذ من بعدهم هي الأخرى حظّها منه.

وفي أجواء جمْع "اللّطعة" أو بالأحرى ما يسمّيه البُسطاء "المقاومة" تمتزجُ المشاعرُ مُنسابة، ولعلّ في هذا المظهر الإنساني الذي تعوّده الناسُ المتنفسَ الوحيدَ الذي تسكن معه آلامُهم، وتتمدّد من خلاله آمالهم فتغلب هذه الآلام وتتعالى عليها، إنّها أمنيات النفس المشبّعة بالرضا، المتْرعة بالاستسلام في بعض الأحيان، فقد يكفيها من يومِها ما يبلغها مشارفَ غدِها المجهول، الذي يحومُ فيه الشقاء حوْمَ البوم حول الجثث، أو العقاب حول الحملان.

راضينَ بما منّوا بهم أنفسَهم الحالمة في نهاية كلّ مدّة، وبما يحملونه من قروشٍ قليلة يدّخرونها لتبلغهم مئونة الأيام، وتضع بين أيديهم بعضَ ما يكفيهم ليواصلوا أحلامَهم، ويبقوا على قيْد الحياة لعام قابل.

على أنّهم لم يحرموا وهْمَ المقهورين وسط هذا الجوّ الخانق المتسربل بالقهر والمتّشح بالسّخرة من انفراجةٍ وتباشيرَ سعدٍ تكسر حمأةَ ما يشعرون به من قساوة الأيام وشدّتها، كانت نفوسُهم وهُمُ الصغار تتّحد كما اتّحدت أجسادهم متراصّة في أسطر فوق خطوط القطن ووسط زراعاته الممتدّة في الأفق، بعد أن تأكّد لديهم أنّ خيطًا رقيقًا يجمعهم، تمامًا كحبّات العقد التي انتظمت مُتجانسة متجاورةً في سلكٍ واحد وإنْ تفاوتت في أحْجامها وأنواعها.

استمدّ الصغار الألفة بينهم يوزّعونها من قساوة أيّامهم، وتغلبوا على تشتّتهم وسط الحقول باتّحادهم، ولو بين الخطوط، الذي خلقَ فيهم العزم الأكيد والتّصميم على مواصلة هذا الطريق للنهاية مهْما كانت التضحيات.

فبيْن خطوط القطن تتّحد الأيدي، تتناوب تقليبَ شجراتها تفتّش عن الورق المُصاب، فيدنّس خفيةً صغيرهم الذي لا يقوى بعْدُ على مشاق التّرحلية، ولكن أخرجَه مثل غيره الحاجةُ لقروش المدّة، ووسط الصفوف تلاحظه عيونُ مَن هُم أكبرُ منه سنًّا، فتحمل نيابةً عنه عبء العمل، وكلفة الانحناء، توفّر له الغطاء حتى يستوي عودُه يومًا ما، ويشبّ ليكدّ مع الكادحين.

كان الناظرُ من بعيدٍ لهذه الصفوف المتراصّة، والتي بدتْ من مسافة كأسراب الحَمام تلتقط الحَبّ حول أجران القمح يتعلّم الصغار من أقرانِهم الكبار الذين سبقوهم الدّخول لهذا المُعترك الصّعب المتّسع مفردات العمل، أو بالتحديد قوانين السّخرة من الالتزام ومراعاة الانضباط والانصياع للأمر دون نقاش، تعلّموا- بالمقابل- كيف لهم أنْ يتغلبوا على هذه المشاقّ، ويتفادوا وقعَها القاسي عليْهم، فلعلّ في اتّحادهم يدًا واحدة ما يكون فيه العِوضُ عن كلّ هذا.

كان ذووهم يقدّرون فيهم هذه التضحياتِ حقّ تقدير، ويعرفون حجمَ ما يبذلونه من مجهود، ولكنّه الفقر الذي جعل الأمّ تجود بفلذة كبدِها فترسله عن طيب كبشٍ فداءً للفقر، تدفعُه عن رضًا لهذا المصير المجهول، فتسلمه بيدها للمُلاحظ، ومن بعده للخولة، فيلحق بركْبِ المقاومة وهو الصغير الذي لم يشبّ بعْد، وتكتب له بيدِها- وهي أمّه- شهادة ميلادٍ في دنيا المعذّبين في الأرض.

ولعلّ فيما يمنّي به الأهلُ أنفسهم من قروشٍ يحصلونها كلّ خمسة عشر يومًا؛ ما يبرد أكبادَهم الحارّة، ويشفي ضمائرَهم المحترقة بنار القهر والتسلط، ففيها الفرجُ بعد الشدّة، والتّوسعة التي يأملون فيها، ومعها تتجدّد الأماني من جديد، ويرفرفُ على البيت طائرُ البشْر، فيستعذب الشقاء مع كلّ موسم، ويستلذّ التّعب، وتعود البسمة ترتسمُ على شفاه التّعساء الذين أمضوا كلّ هذه المدّة يحنون ظهورَهم تحت حرّ التّهجير، ومن قبلها حَنوا آدميتَهم يومَ استسلموا لهذا العَناء، وخطوْا أولى خطواتِهم عليه.

كانتِ السّخرة من نصيب الجميع، كلٌّ يأخذ حظّه منها بلا نقصان بتسليم وقناعة، فالكلّ في التّرحيلة سواء: الملاحظ والخولة والأنفار، ولكنْ تتفاوت بينهم المتاعبُ حسبما يوزّع عليهم من مهام، فبعد أنْ ينقضي

الموسم تعود الحياةُ إلى القرية متلكئة هزيلة بعد أن أضْنتها التّرحيلة، تعود بعد أن خارت قواها، منكسرةً على استحياء، خجلة تتوارَى مِن الجميع بعد أن أسلمت أعزّ ما تملك من خيرةِ صِبيانـها تلهبُ ظهورهم، وتعتادُ على إنسانيّتهم حياة الحقول وسخرة الدّايرة، ولكنّها سَرعان ما تعود إلى عهدها السّابق، فقد وجدت لنفسها المخرَجَ بمبرّرات تتسلّى بها، تقنع نفسَها بها، تردّدها بصوتٍ لا يخلو من تعالٍ وتملّصٍ من شُبهة التآمر، يسمعه كلّ شيء حتى نَخلات القرية وشجرات الجميّز، وحتى أسطح البيوت المتكدّسة بأكوام البوص والحطب.

تتحدّث في خجل: وماذا عسايَ أن أفعل، فقد أجبرتنا ظروفنا جميعًا على ذلك، فقد ورثناها كما ورثَ هؤلاء تركتَهم من المشقّة والتعاسة، ثمّ إنّي لم أجبرْهم على شيء، لقد أتوني طائعين.

وهكذا، سارت القرية منذ قرون، وستسير حتى يأذن اللهُ بفناء البشرية، وفناء التّرحيلة وأهلها.

الدّاية

في قريةٍ مطمئنّة من قرى الصعيد، ووسط الطبيعة البكْر النقيّة التي لم يخالطها ما خالطَ غيرَها من فساد الطباع، وتكالبِ الخلْق على مساوئ الأطماع؛ عاش أهلُها حياتهم هانئة يأتيهم رزقهم رغدًا لعقودٍ طِوال، تحوطهم الألفة وتجمعهم المحبّة، يلتقون على موائد الوداد، وينبسطون للمعروف الذي حلّ وسط بيوتهم.

عاشت بينهم سيدةٌ في عِقدها الرّابع، أثقلتها الهموم، ونالت منها أوجاعُ الحياة تمامًا مثلما تنالُ من غيرها، إلا أنّ مسحةً من جَمال لا تزال تغازل وجهَها الأبيض المشربَ بحُمرة، الذي لاحت علاماتُ الشيخوخة متسلّلة على استحياء في غفلةٍ من الزمن ورُقبائه، ومع هذا وذاك فوجْهُ المرأة ينضحُ بالصّبا، تتفجّر منه الحمرةُ المشوبة بالبياض، ولعلّ هذا كلّ ما ورثته عن أمّها التي تحاكَى الناسُ عن جَمالها الفتّان، واعتدال قوامها الميّاس واستقامة بنيانها الذي يملأ السّمع والبصر ساعة تُطالعها العيون، غيرَ أنّ صاحبة هذه المفاتن، ومالكة تلك المحاسن كانت تتغاضى- أو بالأحرى تتجاهلُ على استحياء- عن هذه الهبات التي وهبَها الخلاق، فمَن في مثل حالها من الفقر المُدقع، غير أنّها- ومن دون قصدٍ منها- قد جرّ عليها هذا الحسنُ حسدَ كثيرٍ من نساء القرية، صاحبات العزّ المنيع والجاهِ الرّفيع، اللاتي رأيْن في جَمالها المُفرط ما يوغرُ الصدورَ مخافة ما يجرّه عليهنّ من مشاغبة أزواجهنّ وانشغالهمْ بصاحبتِه التي أضحتْ حديثَ الرّائح والغادي، على الرّغم من أنّ المرأة لا تحسب لهواجسهنّ حسابًا؛ فهي لا تفارق السّواد الذي توشّحت به ليلَ نهار؛ حدادًا على زوجها، فلم تفارقْ لباسَ حدادها عليه حتّى خيّل للنّاس أنّ جلدها بات عاشقًا لهذا السّواد؛ فلن يفارقه.

زهدتِ المرأة متعَ الحياة وزينتها، فلم تعدْ تبالي ما يبالي به أترابها، فمنذ أن فقدت زوجها وهي مضربة عن الفرْح، منكفئة على أحزانها، تتصبّر من يومها لغدِها، قانعة بما في يديها من فضلةٍ تزيد وتنقص، ترضى بأتْراحها ومواجعِها بديلا عن ذكرى الرجل الذي جادَ بزهرة

شبابه لأجلِها ولأجل أولادِها الصغار، بعد أن انقلبت به العربة التي كانت تقلّه مع عمّال الترحيلة منذ عشْر سنوات مَضت، كانت كغيرها من نساء القرية العفيفات، لا تملكُ من دنياها الضيقة- بعد فضل الله وستره- سوى كرامتِها وعفّتها، وقبل هذا وذاك شرفُها وعرضَها، وهُما لا يقدّران بثمن، تمامًا كما كانت تقول لأبنائها حين توصيهم، ولكنْ كيف تصنع وهي الغريبة في هذا الوسط الفقير الذي لا يتّسع لمثلها من غيْر أبنائه، ولعلّ هذا ما ضاعف من غربتها، وأثقلَ عليها عيشتَها، ولعلّ ما ضاعف ممّا شعرته بعد أن تخطّفت يدُ المنون عائلَها الوحيد ورفيقَ دربها وأنيسَها على مشاقّ الزّمن، فقدت بموتِه السندَ والعائل، تهدّم ركنٌ في بنيانها المتهاوي، ما أقسى هذه الحياة المشبعة بالصعابِ والمُثقلة بالهموم! وجدت نفسَها المسكينة وجهًا لوجهٍ وزمانها الذي لا يفرّق بين القاضي والجلاد.

الكلّ يحاول أن ينهشَ النّعجة القصيّة ويستحلّ لحمَها، فمَن يسأل عن هذه الأرملة المَعوزة وأولادها الفقراء، أو يحولُ بينها وبين دناءة نفوسهم، فالأعزلُ في هذا الزمان ليس له ناصرٌ إلا الله تعالى. كثيرًا ما انكفأت على نفسها في ظلمةِ الليل وهي تغطي أبناءها الصغارَ وتحتضنُهم كقطّةٍ تلملمُ صغارها، وقد سالت مدامعُها، وانحدرتْ على خدّها جمراتٌ من نار لا تجدُ مَن يواسيها، أو يحملُ عنها بعض أوجاعها، أو يقطع السبيلَ على كلّ متربّص جبان يستهويه شيطانُه أن يستذلّ هذه الأرملة البائسة، يا لقسوة الأيام!! ناجت ربّها وهي حاسرة الرأس، متشقعة بعفّتها وشرفها:

- مَن للفقير المغلوبِ إلا الله، أنتَ وحدك كافلُ هؤلاء اليتامى يا ربّ.

لا يعلم أهلُ القرية لها أهلا أو عائلة أو قريبًا، غير أنّ زوجها الفقيدَ ذهب ذاتَ مرّة في ترحيلةٍ إلى بلدها، وعاد منها بها عروسًا يتراقص جَمالها فيملأ أسماع القرية، ويغازل حُسنها الصارخُ خيالَ فتيانها المُترفين الذين اكتووا بنارِ الحسد والغيرة من ذلك الفقير المُعْدم، الذي فاز بهذه الجوهرةِ المكنونة التي لم ترَ قريتُهم مثيلا لها، والتي أخفاها صاحبُها عن أعينِ النّاس، وتفنّن كيف يصونها، وكيف لهم أنْ ينالوا ما ناله من هذه الجنيّة الفاتنة التي شغف بها عشقًا، وفتنت به حبًّا، فخالط حبُّه دمَها، وأصبحت لا ترى في الكون مثيلا له، وانصهرتْ

روحهما تملأ جنبات دارهما الضيّق المترع بالفقر؛ حبًّا ووداداً، فتحيله بضحكاتِها المتواصلة، وغنائها العذب، وصوتها الرّقراق الذي لا ينقطع بالسّحر؛ قصراً مشيداً يحاكي قصورَ المترفين من عِلْية القوم، ولعلّ في أحاديث العوازل المتكرّرة التي تدور بين بيوت القرية ومجالسهم وأندية السّمر فيها، وما تعجّ به أحاديث فتيانهم من السّخط والتقريع على حظّهم العاثر الذي أعمى أبصارهم- وهُم أصحابُ العزّ والجاه العريض- عن نيْل حظوةٍ من هذه الغزالة الشّرود، فلم يخلُ كلامهم من عضّ أصابع النّدم وقضم ثمار الحسرة، ولعلّ في نظراتهم الزائغة- وهُم يمرّون مُصبحين من أمام الدار الصغيرة، وصدورهم التي تلفظ الشّرر المشبّعة بالحقد- خيرَ دليلٍ على ما تنطوي عليه نفوسهم العَسِرة من خيبةٍ، ولكنْ سبحان المعطي..

يهمس كبيرُهم في أذن صغيرهم:

- كيف لهذا المُعَدم أن يحظى بقطعةٍ من الحلوى! مِن أين جاء بها؟! وهل خلق الباري وصوّرَ مثيلا لحسنها؟!!

عاشتْ- وزوجُها- سنينَ طوالا على الكفاف، فلم تقنط أو تشكو فقرَه يومًا، تجرّعا معًا الفتاتَ الذي سدّ- بالكاد- رمقهم من الجوع، وشربَا فضلة الترع من العطش، كان الحبّ سميرَهما في ساعات الضّيق والفرج، بل وجدتْ فيه الأنس والسندّ، فحوّلت عشّهما الصّغير جنة، بل كانت السعادةُ قسيمَها، تبادله حبًّا بحبّ، وودًّا بودّ، ووفاءً بوفاء، حتى نهاية العمر.

أقسما على الإخلاص، وشهدَ عليهما حبُّهما الطاهر المجرّدُ الذي لم يفتنْه بريق الحياة الزّائل.

ارتضتْ به زوجًا وابنًا وأخًا، وارتضى هو بها زوجةً وابنة وأختًا وحبيبة وسندًا على الحياة، اتّحد كلّ شيء فيهما روحًا واحدة وزّعت في جسدين.

ما أهنأ الحياةَ وأعذبَها على ضفاف الحبّ الطاهر المجرّد من الشوائب، المُبرّئ من النّقيصة، وما أنبلَ الودّ إذا تلذّذ من كئوس الطّهر، واغترف من شطآن العفاف، ما أطيبَ العيشَ في كنف القناعة.

لم تحسبْ للدنيا حسابها، ولم تضربْ مثل غيرها من ناقصات العقل أخماسَها في أسداسِها، بل اكتفتْ بأنفاس حبيبها تحيى بها، وتحيى لها، فما بعدها حياة، وما دونها عيش. ظلّت هكذا على حالها حتى جاءها نذير الشؤم في صبيحة أحد الأيام يلقي عليها حملا ثقيلا يصدمُها بالنبأ المُفجع، ألقى غرابُ البيْن بيانَ التّأبين وانصرف لحالِ سبيله لم يكترثْ لمآل هذه المسكينة، ولا لأبنائها اليتامى الذين مات عائلُهم فحُرموا أبوّته، فمنحهم إلى جانبِ يُتْمهم الدائم وفقدِهم الموجع حرمانًا من مجرّد النظر إليه وتوديعه حتى في ساعةِ الوفاة، ليموتَ الغريب الذي لم يعرفِ الرّاحة ساعةً من نهار؛ وحيدًا شريدًا شهيدًا للكدّ ولقمة العيش، فلم تهبْهُ الدنيا من نعيمها الزّائل إلا بعضَ نظراتٍ من الحزن المُصطنع، ولفتاتٍ عابرةً لا تسمن ولا تغني، زالت بزوال روحِه ليلفّ بعدها في سرابيل الموت، ويشيّعه الفقر والحرمان، ويصلّي عليه الشقاء والجوع، تتبعه تعاستُه وعَوَزه، ويرسل نعشه إلى ذويه- زوجته وأولاده البؤساء- مع قروشٍ معدودة نفدت قبل أن تستقرّ في راحة يدِ زوجته، جادَ بها أحدُ المحسنين عندما علمَ بحال الغريب، فكانت الشيء الوحيدُ الذي عاد به من ترحيلته ليودّع عالم الشقاء بعدها بلا عوْدة.

مرّ خبرُ وفاته هكذا عبثًا على مسامع أهل القرية، فلم يكلّف أحدٌ نفسَه مشقة التفكير فيه، أو يحسب لموته حسابًا، فلم تتحرّك فيهم الإنسانية أو ينزغهنّ نازعُ الفطرة تجاه بنيه وزوجتِه الذين أصبحوا عُراة بفقْده، يتخطّفهم ما يتخطّف دوابّ الليل وهوام الطريق من المارة، إنّه فقير مسكين، ومَن ينظر إلى الفقراء والمساكين، إنّه بالكاد مجرّد رقمٍ سقط سهوًا من حسبةٍ لم تكلّف صاحبها مليمًا واحدًا!!

لكنّ الكارثة حطّت على أهل بيته زوجته وأولاده غمًّا وندامة، فليست النائحة الثّكلى كالمُستأجرة، عاودتها الوساوسُ تزاحم نفسها المفْجوعة من جديد، فخارج البيت يتربّص بها ذئابُ القرية البشرية الذين استكثروها من قبْلُ على زوجها المسكين، وتمنّوها لأنفسهم- كبيرهم قبل صغيرهم- ممّن أسَرهم جَمالُها وحسنُها الذي تحاكت به الأسماع، مَن يحميها بعد؟! فُقِدَ السند!! جعلت المرأة تطوي الليلَ بالنهار تفكّر في مصير هؤلاء اليتامى، تصبّر نفسها وتمنّيها، حتى

أوشك الصبرُ على النفاد، ماذا يخبّئ لهم القدر من بلايا في مستقبل أيامهم!!؟

كان زوجُها محرومَ العزْوة، مفتقرَ ومنزوعَ العشيرة، تمامًا كما حُرم في حياته الثروة والجاه، فلم يجدوا مَن يعطف عليهم مِن أهل القرية، ونُسوا كما يُنسَى مَن طُمِر في لحْدِه بيْن الثرى، اضطرّتها الحاجة أن تبحث عن حلّ يبقيها على قيد الحياة هي وأفراخِها الصّغيرة، فلم تجد بدًّا من النزول إلى معترك الحياة، تصرعها وتصارعها، فلن تخسر شيئًا أكثرَ ممّا خسرت، تذكّرت أخيرًا والدتَها الحبيبة الراحلة، مصمصت شفتيها لوعةً على تلك الأيّام الخوالي، ولكنّها أطرقت برأسها في النهاية لصوتٍ قادمٍ من أعماقها.. يهمسُ في رفقٍ وتروٍّ:

هل تذكرين مهنة والدتك؟! لماذا لا تجرّبي!؟

تركتْ خيالها يشردُ قليلا، ومنحته متّسعًا من الوقت يتعقّب ذلك الصوت المجهول، لمَ لا؟ يبدو أنّها استراحت له، ووجد معه سلوتها، سكتت للحظاتٍ قبل أن تنطق قائلة:

ما يمنع!؟ لعلّه خيرٌ من غد، أجرّب والله وحدَه المُعين.

لم تنمْ طيلة ليلتها، جعلت تتقلّب في فراشها، وتتقلّب معها أمانيها وذكرياتُ أيامٍ طوال مضتْ في هذا المكان، مرّة يتقلّب أملها الذي يلوح لها من بعيدٍ مستبشرًا باسمَ الثّغر متفائلا بغدٍ يحمل الخيرَ لها ولأولادها، ولمّا داهمها نور الصباح هبّت من مخدعها واتّجهت ناحية الباب الخارجي لمنزلها الصّغير ففتحته، كان الدربُ لا يزال هادئًا مِن رقدته منذ ساعات الليل، انقطعت عنه أرجلُ المارة، فلم تسكنه إلا بقيةٌ تتسكّع من طوارق الليل ودوابّ الطريق من قططٍ وجراء احتموا تحت جدار قديمٍ متهالك اتّقاءً لبرودة الصّبح ولسعاتها.

جعلت تطلّ برأسها، تخطف نظراتٍ سريعةً حائرة، تجول ببصرها على امتداد الدّرب الضّيق الذي خيّم عليه الفقر وكأنّه شبحٌ جاثم على أعتاب الدّور الفقيرة، تتبع أبوابه المتهرّئة القصيرة الموصَدة في هذه الساعات المبكّرة من الصباح، ولسانُ حالها يردّد في صمت، والعزم يملأ نفسَها باليقين:

- اشهدوا يا قوم أنّني على استعدادٍ أن أتجرّع الصبرَ لأجل أولادي..

عادتْ داخل البيت بعد أن أغلقت البابَ بإحكام، سارعت تعدّ طعام الفطور لأبنائها الصّغار، تذكّرت أنهم خلدوا إلى نومهم البارحة بلا عشاء، وبعد دقائق معدودة جهّزت وجبتَهم بالموجود في بيتها لتوقظهم والفرحُ يملأ صدرها، والبشْرُ يفيض من عينيها الحالمة، فالآن نستطيعُ أن نحيا بكرامتنا وسطَ هذا الجحود.

جلست تطعمُ أفراخَها الجائعة باهتمام، تخفض عليهم جناحَ الذلّ من الرحمة، تغمرهم بحنانها، وتحيطهم بضلوع صدرها الذي يغلّي غليان البركان قلقًا وفرقًا لمصير هؤلاء اليَتامى إن حدث لها مكروه..

لكنّها في النهاية نفضت عن تفكيرها ما خامَرَه من شكّ وريبة، وعادت ثانيةً تهدهد أحلامَ المساء، وترتّب أوراقها من جديد، وتنظر من بلّورتها بحيطةٍ وحذرٍ لهذا المحيط الهادر، طالبةً السّلامة من الله لها ولأولادها.

ولكنّها على الرغم من ثقتها واندفاعها، لم تستطعْ أن تخفي توجّسها، فما ينتظرها مجهولٌ غيرُ معلوم حتى الآن، إنّها مجرد أضغاث أحلام لا أكثر، هذه حقيقة، إنّها لم تلمّ بهذه المهنة التي عايشتها مع أمّها "الدّاية" الكبيرة التي ذاع صيتُها في قريتها، وملأت شهرتُها الآفاق، لكنّها تدرك أنّ الكلام شيء والفعلَ شيء آخر.

تمالكت نفسَها عساها تستجمعُ ما تبقّى لديها من قوّة لتواصل أحلامها في دنيا اليقظة، فالمشوارُ طويلٌ أمامها، والتّركة مثقلة بالمتاعب.

وبعد أنْ فرغتْ من طعامها اتّجهتْ صوب جارتها الوحيدة- الحاجة سعدية- التي ربطت بينهما رابطة أشبه بما يكون بين الأمّ وابنتها، كانت امرأةً متقدّمة في السنّ، جمعتهما معًا مشاعرُ الغربة، فهي مثلها تمامًا غريبة عن القرية، لا يُعرَف لها أهلٌ ولا قريب، شعرت معها بالألفة التي لم تجدْها عند بقيّة نساء القرية اللاتي امتلأن بالغرور والتعالي، بل وفي أحيانٍ كثيرة بالحقدِ والغيرة على هذه المسكينة، صاحبة الحظّ العاثر.

طرقتْ بابَها في ذلك الصباح المصيري، استقبلتها العجوزُ بوجْهٍ بشوش، وابتسامة خفيفة لم تعكّر صفوها تجاعيدُ وجهها الصّارخةُ صراخَ الأيام، نظرت إليها قليلا قبل أن تأذن لها بالدّخول:

- تفضّلي يا بنتي، مرحبًا.....

بادرت جارتَها بالتحية، وبعد أن استقرّ بهما المجلس، قالت لها: لقد جئت إليك يا خالة، أستشيرك في أمرٍ مهمّ لا يحتمل التأجيل.

ارتسمتْ على وجْه العجوز علاماتُ الحيرة والقلق، وأخذ الفضول منها ما أخذَ من اهتمامٍ، وقالت بصوتٍ متحشرج:

- خيرًا يا حبيبتي! لقد أقلقتني.. ما الأمر؟

ردّت عليها مطمئنةً ومهدّئة من روْعها:

- لا تقلقي؛ فالأمرُ خيرٌ إن شاء الله، فقط أحتاج لمشورتك في أمرٍ يقلقني، لقد انتويت العملَ وأسعى إلى معرفة رأيك بصراحة.

لقد عزمتُ الأمر أن أعمل "داية" لنساء القرية، وكما تعلمين فهذه صنعة والدتي، ولديّ من الخبرة ما يؤهّلني لأنْ أقوم بالوظيفة على أكمل وجْه.

أطرقتِ العجوز لحظات، أغمضت عينيها لدقائق، وبادرت بالقول:

- العمل ليس عيبًا يا ابنتي العزيزة، ما دام ما تقومين به شريفٌ، ووفق ما يكفيك وأبناءك الحاجة وسؤالَ الغير، ولكنّ الأمر يحتاج إلى ترتيب مُسْبق، وتمهيد؛ فأنت تعرفين أهلَ القرية لديهم حساسية وانقباض من الغُرباء، وأمثالنا يجدون العيش بينهم بصعوبة، ولكنْ لا تقلقي يا ابنتي سأرتّب لك الأمور قريبًا إن شاء الله، عملٌ موفّق.

مرّتِ الأيام سريعة، وجاء اليومُ الموعود، أرسلت إليها مَن يخبرها بحاجة امرأةِ شيخ الخفر لها، فهي تلدُ مولودَها الأوّل بعد سنين طويلة من الترقّب والحرمان، شعرت بقلق كبيرٍ يحوم حولَها، ارتعدتْ أطرافها، وتجمّد الدّم في عروقها، خافت وانقبضت، لم يترك لها

الرسولُ فرصةً للتفكير أو مساحةً للتردّد، كان من الخفر العاملين مع شيخ الخفر.

- هيّا، فقد تركت شيخَ الخفر يشتعل خوفًا على امرأته التي لم تنقطع عن التوجّع والصّراخ منذ الصّباح الباكر، جزاها الله خيرًا جارتك العجوز؛ هي مَن دلّتنا عليك.. أسرعي.

لملمتْ بعضَ المناشف الجديدة، وقصاصاتٍ صغيرة من القماش، وطستًا صغيرًا من النّحاس، أمسكت بهذا كلّه ومضتْ مع الخفير الذي لم يسكت عن الكلام، وبيان حال المتعسّرة ووضعها الصحّي، وترقّب شيخ الخفر الذي كان مصرًّا على نقل زوجته إلى البنْدر خوفًا عليها وعلى مولودها الأوّل، زادت ثرثرتُه وزاد معها أيضًا قلقُها، لكنّها تصبّرت...

فتحت البابَ وأخبرت ابنَها الأكبر بوجْهتها، وأنّها ستعود فلا يقلق وليرْعَ إخوتَه الصغار، ويعلم جدّتهم الجارة العجوز بهذا الأمر بعد قليل.

مشتْ في طريقها لبيت شيخ الخفر، وزوجتِه المتوجّعة، كانت المهمّة صعبة عليها، شعرت وكأنّ الأرض لا تطوى من تحت رجْليها، أو أنّهما رُبِطا بأكياس من الرمل أو أثقلا بالحجارة، ظهر أمامها الدربُ طويلا يمتدّ بلا نهاية، مظلمًا حالك الظلمة، قد خلا من أصوات أهله وضجيجهم، فلم تسمع فيه إلا دقات قلبها المتتابعة التي تسللت إلى مسامعها بقوة، وأضافت إلى حيرتها ألفَ حيْرة، وبدأت تردّد في سرّها عباراتٍ تسمعها الخفيرَ الذي انتبه إليْها، فعلى ما يبدو أنّ كلماتها تمرّدت على محبسها الضيق الذي عجز عن استيعاب ما قد يصادفها من متاعبَ وأهوالِ تجربتها الأولى، التفتت إلى رفيقها وقالت له:

- لا شيء، لا عليك، فقد كنت أستعيذ بالله من طوارق الليل والنهار، وأطلب السّلامة لصاحبة المخاض.

وصلتْ أخيرًا منزلَ شيخ الخفر، استقبلها الرجلُ في لهفةٍ شديدة، ألقت عليه تحيتها، لكنّه عاجلها باستغاثة موجِعة..

- أتوسّل إليك، أنقذي هذه المسكينة، وخلّصيها من آهاتها التي انفطر لها قلبي، وارفقي بها وبوليدها المنتظر.... ستْرَك يا صاحبَ السّتر.

انحدرت من عتبةِ البيت حتى وصلت غرفةً خرجت منها استغاثة سيدةٍ أدركت من فورها أنّها الغرفة المطلوبة، طلبت من سيدةٍ كبيرة في السنّ أن تحضر لها الماء المغلي، وأن تلحقَ بها داخل الغرفة على عَجَل، على الفور هرولتِ المرأة لتجلبَ المطلوب، أسندت المرأة المتوجّعة إلى صدرها لتهدّئ من روْعها، وتخفّف من قلقها، طمأنتها؛ فالوقتُ لا يزال به متّسع، وعليها أن تحتفظ بكامل طاقتها وتوفّر جهدها لساعة الطّلق.

تحاملتِ المرأة على نفسها، خاصّة بعدما أكّدت لها هذه التأكيدات، لكنّها كانت بين الحين والآخر تطلق زفرةً من صدرها حارّة، مصحوبةً بصرخة مكبوتة أخفتها بين أنيابها التي أمسكتْ بقطعةٍ من القماش صغيرة، ألقمتها إيّاها لتقوّي من عزمها وترفعَ من روحها عندما يحين الموعد.

جلستْ على طرف السرير، شردت بذهْنها لحظات، حاولت أن تستجمع قوّتها وتستحضر ذهنَها المشتّت، ولكنّ صرخات المرأة كلّما أتاها الطّلق اعترضت لحظات الفكر، فلم تجدْ بدًّا من العودة ثانية، وبينما تحاول التأكّد من سلامتها ووضعيّة الولادة والمولود، تسدي نصائحها المتكرّرة على مسامع المرأة المتوجعة، والتي كانت تستمع إليها باهتمام بالغ لم يخلُ من الخوف والفزع.. كان صوت المسكينة يعلو مرّات عديدة فيملأ المكان، الذي ارتجّ من هولِ الصراخ، ردّدت في لحظات عديدة:

- سلامتي لا تهمّ، المهمّ سلامة المولود؛ لقد انتظره المسكينُ أبوه سنينَ طوالا..

ولكنّها كانت تطمئنُها طوال الوقت بسلامتها هي ومولودِها، فالأمرُ في غاية البساطة، وأنّ عناية الله ستلفّهما ويخرج إلى الدنيا فيملأ حياتَها بهجة وسروراً..

نازعتِ المرأة الألمَ والوجع، وخالطها الخوفُ والفزع، كان المشهد يثير فيها القلق والارتياب، خاصّة وهي المرّة الأولى التي تخوض فيها مثل هذه التجربة، على الرغم من خبرتها القديمة أيّام والدتها.

أخيرًا تماسكت، فلم تجد بدًّا من استجماع ما تبقّى لها من قوة، فهي الأخرى أحرصُ من المتوجّعة على توفير جهدها لساعة الخلاص.

اقتربتْ من أذن الصّارخة الوجلة، وقالت:

- عندما أطلب منك أن تساعديني فلا تتردّدي، حتى يمكننا أن نخلّص الموضوع بسرعة.. أفهمتِ!؟

هزّت المرأة رأسها، وقد سال الدّمع على عينيها من ألم الطّلق، أخذت تتفحّصها مرّة أخرى، وأخيرًا صرخت فيها صرخة جعلت كلَّ مَن في الدار يتجمّع أمام الغرفة، قالت بصوتٍ مصحوب بالدعاء:

- يلا.. يا ربّ يا مُسهّل يا كريم.. همّتك.. دوسي كمان.. يا لطيف بعبادك يا ربّ.

أمسكتِ المرأة بجانبٍ من السرير وقد شبّكت يديْها بين حديدته، وهي تسلم نفسها لـ "الداية" التي لم تكفّ عن الصراخ والتوسّل وطلب المدد من الله تعالى، وأوليائه الصّالحين.

مضتِ الدقائق كأنّها سنوات على كلِّ مَن في الدار، جعل شيخُ الخفر يرفع يدَه إلى السماء طالبًا المددَ من ربّ السّموات والأرض.

- يا ربّ.. يا معين، يا لطيف الْطفْ بنا يا ربّ، أشهدك يا ربّ إنْ قامت الساعة من ولادتها أذبح عجلا سمينًا أوزّعه على الفقراء، لا.. لا.. بل ثلاثة عجول.

وبيْن توسّلات مَن في الدار.. وصراخ المرأة المنبعث من داخل غرفة ولادتها، تسلّل صوتٌ ضعيف هَزيل، إنّها صرخات مولودِه، تهلّل وجْهُ الرجل بالبِشْر والفرح، قفز إلى الفضاء فرحًا، كأنّه طفل صغير أغرَوْه بلعبةٍ أو قطعة حلوى، جعل يحمد الله تعالى، وفي لحظاتٍ خرجت "الداية" من الغرفة وقد تصبّب وجهُها عرقًا وهي تنشف يدها، لكنّ ابتسامة ضعيفة كانت قد انطبعت على محيّاها، فزادت إشراقه إشراقًا، وقالت بصوت مسموع:

- الحمدُ لله، لقد رزقك الله بمولودٍ مثل القمر، ذكر.. ذكر، اختر له اسمًا.

أخرج الرجلُ من جيبه محفظة نقوده على الفوْر، ودون تردّد أمسك بورقةٍ من فئة العشرين جنيهًا، وأعطاها لها وهو يصيح صيحاتٍ متتالية:

-خديها حلالٌ عليك، خذيها تستحقّينها يا وجْهَ السّعد.

طلبتْ منه أن يترك الوالدة قليلا لترتاح وتستعيد وعيها؛ فالمرأة مسنّة والولادة وآلامُها لم يتركا لها ما يمكنُ أن تقوى به على الكلام، أخبرته أنّها بعافية وخيرٍ هي ومولودها فلقة القمر.

غسلتْ يديْها، ومرّرت منشفة صغيرة معها على وجْهها، وحمدت الله على سلامة السيدة ثمّ انصرفت مسرعةً إلى بيتها وهي لا تصدّق ما حدث لها، شعرت وكأنّها عاشت حلمًا طويلا، واستيقظت منه بعد مدّة، كان أوّل شيء فعلته أنْ مرّت على بيت صديقتها العجوز، تشكرُ لها هذا المعروف؛ فلولاها لظلّت في حيرتها وقلقها الذي يقتل فيها أيّ حلمٍ تحلمه، وافترستها الحيرة والتفكير.

وصلتْ إلى بيت العجوز، طرقت البابَ عدّة طرقاتٍ لكنّ الباب لم يفتح، استغربت أول الأمر، لكنها أعادت الطرْقَ مرّة أخرى، فقد تكون العجوز مشغولةً بأمرٍ من أمورها ولم تسمع الطرق، أو قد تكون قد دخلتْ في صلاتها، لكنّه نفس الشيء، لم تفتح الباب، جرتْ ناحية بيتها طرقتِ الباب ليفتح ابنها سألته في لهفة ووجَل:

- هل شاهدت جدّتك العجوز؟

أخبرها ابنُها أنّه لم يسمع لها صوتًا هذا اليوم، زادت صيحتها، لكنّها أرادت قطع الشكّ باليقين، فجارتُها غريبة ووحيدة مثلها، لا أحد يسأل عنها، قالت وهي تطرق البابَ مرّة أخرى:

- تُرى أين ذهبت خالتي؟ لا بدّ أنّ شيئًا ما حدث لها!!

تجمّع حولها الجيرانُ الذين أكّدوا أنّهم لم يشاهدوها طوال اليوم أيضًا، لم يجدِ المجتمعون بدًّا من التسلّل والقفز إلى بيتها للوقوف على الأمر.

قفز أحدُ الشباب داخلَ البيت بعد أن تسلّق الجدار المتهالك لبيت العجوز، غاب قليلا لكنّه سرعان ما فتح بابَ البيت من داخله وهو يصيحُ بأعلى صوت:

- لقد ماتتِ المسكينة... ماتت وهي تصلّي.

انكبّت عليها تغمرُ وجنتيها بقُبلاتها التي أغرقتها الدموع، وقد علا نحيبُها واشتدّ وجيبُها، بعد أنْ ضمّتها إلى صدرها تلملم خمارَ رأسها الذي انفكّ عن شعرها الأبيض، كان صوتُها الباكي يقطع نياطَ القلوب:

آهٍ يا أمّي المسكينة، سامحيني.... اللّهم اغفرْ لها بحقّ غربتها.

جعلت تجول ببصرها في الوجوه المحلّقة من حولها، والتي تفاوتت بين باكٍ ومتردّد ينظر حولَه يخشى أن يتورّط في شأن العجوز ولوازم دفنتها وعزائها.

نظرتْ إلى شابٍّ في العقد الثاني من عمره اندسّ وسط الحشود المتفرّجة، قالت له بصوتٍ متحشرج تخنقه الدموع:

- احملْ معي خالتي، نريحها ريثما نستعدّ.

وبعد أنْ مدّدت الميتة على حصيرٍ فُرشتْ من فوقه ملاءةٌ قديمة، استقرّت بجانبها تبكي لدقائق قليلة، تذكّرت لحظتها زوجَها الفقيد الغريب لم يخلُ كلامُها من النحيب والتشاكي لحالِ الغريب المسكين، الذي حرمتْه الدنيا وخطفه الموت من بين أحبابه دون سابق إنذار، فحرمه حتى النّظر إليهم قبل أن يفارقهم بلا رجعة، وكأنّ الموت اتّحدت قسوته مع قسوة الحياة الغاصبة لتخطف الفقراء والمساكين الذين لا عائل لهم أو معين سوى الله تعالى.

- عيني على الفقير يا ولْداه، عيني على الغريب من قسوة الدنيا.

وبعدَ لحظات، مدّت يدها إلى جيبها، وأمسكت بورقة العشرين جنيهًا مكافأة المولود الجديد التي منحها إيّاها شيخُ الخفر..

تلقّتت حولَها، كان الحشدُ قد انصرف منذ أن تمدّدت العجوز في بيتها، فمَن يهتمّ بالغريب وحالِه إلا مَن ذاق مرارة الغربة وتجرّع كؤوسها..

كفكفتْ دمعَها المُنسكب كأنّه قطع الجمر المنسكبة، قد تهدّلت وجنتيها، وذبلت عيونها الفاتنة النّواضر، أسرعت ناحية الشارع، كان القوم قد انصرفوا، إلا أنّ ذلك الشاب المتعاون كان قد استندَ على جدارٍ قريب من بيتها، يبدو أنّه كان في تأثّره لحال هذه المسكينة الغريبة التي عاشت وحيدة وتخطّفتها يدُ المنون وحيدةً فلا أهل ولا أنيس ولا ولد ولا سند إلا رحمات الله، وجارتها التي تكفّلت بصوْن كرامتها في مثل هذه الأوقات العصيبة.

أومأت إليه فهرْول إليها مسرعًا، عارضًا عليها المساعدة، لكنّها اكتفت إعطاءه النقود، طالبةً منه أن يقوم بإعداد الكفن ولوازم الجنازة، كان الفتى شهمًا، رقّ قلبه لهذه الفاجعة المحْزنة، قال بصوتٍ حزين:

-لا عليك، معي ما يكفي من نقود، سأقوم باللازم.

حاولت إقناعَه ولكنْ دون جدوى، كان الفتى قد انصرفَ من فوْره لتحضير ما يلزم، وبعد فترةٍ عاد إليها يحملُ بين يديه كفنَها الأبيض، مدّ يده بالكفن، وقد اغْرورْقت عيناه بالدّموع، شعر بدوارٍ يلفّ رأسه، خانته أقدامُه بعد أن اهتزت الأرض من تحته، نظرت إليه في شفقةٍ من تداعي لحال المسكين، طلبت منه أن يستريحَ على المصطبة الملاصقة لعتبةِ دارها بعد أن أحضرت له كوبًا من الماء البارد علّه يستعيد وعيَه المسلوب، كانت رقة الفتى ورهافة مشاعره تنبئ عن قلبٍ صادق الإحساس صافي الفطرة، سليمٍ لم يَشُبْه ما شابَ غيرَه من أهل القرية من عنصريةٍ تفرق ما بين الخلق حتى في لحظات موتهم.

وبعدَ دقائق، كانت قد انتهت من تغْسيل وتكفين العجوز، وبدا المشهدُ الجنائزي مكتملا، فقط كلّ ما ينتظره أن يؤذنَ له بالمسير إلى المثوى الأخير، لحق بالشابّ ركبٌ من شبان القرية الذين تطوّعوا لمشاركتِه الأجر في حمل نعْش المتوفّاة إلى مستقرّها الأخير.

حُملت المسكينة على أكتافهم لتمرّ جنازتها من أمام أعتاب القرية، لكنّها لم تظفرْ منهم إلا بلفتاتٍ من عيون متحجّرة، نُزعَت منها الرأفة، وسُلِبت منها الرحمة، لكنْ على ما يبدو أنّ الفضول هو مَن أخرجهم، فاعتلى الجمهورُ أسطح المنازل، شقّ الموكب القرية ودروبَها الضيقة انتهاءً بمقابر القرية ومدافنها، كان نفرٌ من الشبابِ سارع إليها حتى

يهيّئ للمسكينة مرقدها، ويضع لبناتِ القبر، وبعده يؤذن له بأن يحتضن الجسدَ الغريب، الذي لم يلحق به إلا كتيبة من الفتية الصّغار أصحاب الفطرة السليمة تحمله، والمرأة تتبعهم تشيّع جارتها إلى مضجعها الدائم، وتندب حظّ الغريب المحروم الذي لم يجدْ من يحنو عليه غير قبره.

وقفتْ على قبرها تشرفُ عليها بعد أن استلمتها يدُ المشيّعين، ووضعتها باطن رمسِه لآخر مرّة، شيّعتها بزفرةٍ عالية شعرتْ معها أنّ ضلوعها تكاد تنخلع، هال الشبابُ التراب عليها بعد أنْ فرغوا من الدّفن، سدّوا عليها قبرها، ثمّ اصطفّوا بجوار المكان يقرؤون عليها الفاتحة، سائلينَ الله المغفرةَ والجنّة للفقيدة، وهي تؤمّن- في صمت- دعاءهم.

عادتْ من المقبرة حزينةً منكسرة، وقفت أمامَ منزل العجوز، وعينها تتطلّع إلى جدرانه القصيرة المتهالكة، وبابه الخشبي المتهرّئ، وقالت:

- ها هي الدنيا تُفْجعني مرّة أخرى في أحبابي، فبعد موت زوجي الغريب في ترحيلتِه، تموتُ مَن كانت مثل أمّي!!

دخلتْ إلى بيتها وأغلقت البابَ مِن خلفها، وقد تجمّع حولها أولادُها الصغار، وعيونُهم الصغيرة تفيض حزنًا مِن سوء ما شاهدوا، وتترحّم ألسنتُهم على جارتهم العجوز، الوحيدة التي كانت تعطف عليهم، وترحم غربتَهم.

السّـوق

السوقُ عالمٌ مفتوح، وفضاءٌ متّسع، وبحرٌ متلاطم الأمواج، يهدر بلا شاطئ، زحام ممتدّ، وأكداسٌ من البشر متراصّة تتدفّق وتتدافع ذهابًا وإيابًا، أمزجة مختلفة ومتّفقة، حركة دائبة لا تنقطع، بيعٌ وشراء، أحوالٌ تتباين، عرضٌ وطلب، كدٌّ وراحة، إقبالٌ مع إدبار، اندفاعٌ وترقّب، حذرٌ وتهوّر، مكسبٌ وخسارة، حياةٌ يعقبها موت.

في السّوق وعالمِه الرحب تتمدّد آمالٌ وتنكمشُ أخَر، البعض يعود مجبورًا بالربح، وقد يحمل البعضُ خسارته فوق كتفيه أو يجرّها من خلفه، تتلامسُ الأجساد وتتنافر الأمزجة وقد تختلفُ الأرواح وتتلاقى الأهواء، تعمّق الصّلات وتضمحلّ المشاعر، تنساب مرّة بلا عائق يحولها، فتراها مذبذبةً بين حبّ وكره، تنافر يعقبه انْجذاب، بسطٌ يدفعه قبض، ألفةٌ يحرّكها بُغض، صداقة وعداوة، الصاحبُ والعدوّ في كفّة واحدة، هكذا هي الصورة حتى قيام السّاعة تراها زاهية متلاعبة الألوان.

داعبَ عن قربٍ السوقُ أحلامي الغضّة، ولامس بحذر وتوجّس خيالَيَ الصغيرَ المتدفق من بعيد، أكون مبالغًا عند قولي إنّه سلبَ عقلي المحدود، جعلني أنقطعُ مشدوهًا إليه في نوْمي ويقظتي، استهوتني أحاديثُه العذبة البريئة، فملكتْ منّي العقل والجوارح، كلّ عقلي ومداخل وجداني، ولمْ تكتفِ بذلك.. بل تراها وقد حامتْ من حولي، بل تجرّأت في أحيان كثيرة؛ فسيطرت سيطرتَها الكاملة، فرمتني بكلّ قسوة في أرض أحلامي البعيدة المُترامية، ألوّح من بعيد بين رمال الوهْم، لا أملّ في الحقيقة من تسمّع حكايات القادمين منه بلا انقطاع، أولئك البُسطاء الذين حملوا أمتعتَهم التي جلبوا معهم تنضحُ منها الأماني العِزاز لصبيةٍ تركوهم مِن خلفهم يعضّون أصابع الترقّب، بعد أن أرهقهم الاحتياج وقلّة ذاتِ اليد، امتزجت أمانيهم في مشهدٍ بديع قلّ أن ترى مثيلَه، فها هم عادوا تكتظّ سلالهم بما ملكت أيديهم، جاءوا ببضاعتهم التي تفوحُ منها روائح غريبة مختلطة لا زلت ذكْراها تعبق بأثرٍ لا يزال باقيًا فيها مِن هناك.. مِن أنفاس الباعة وأصوات الصخبِ الذي انطلق

عفويًّا من حناجر الزّبائن، لا تبرح نفسي المتكلّفة تفتّش بنَهَم، متعلّقة في شغف وشوق بهذا العالم الأثير المتّسع، تنازعني كلّ مَنْزع، سألتها ولكنّها لم تجبْ عن السبب، هل هذا ما دفعني إلى الهرب من واقعي المطبق فأتحيّن عندها الفرصة لأقتحم عالمَه السحري ولو مرّة في العمر، هي صورة لا تملّ الأذن سماعَها وكأنّها اقتطعت من كتاب الأحلام، أو لوحة من معابد الماضي السّحيق.

ها أنا- ودون سابق ترتيبٍ- تعوّدت الخروج يوم السّوق، الجمعة من كلّ أسبوع، حين يتزامن خروجي أولئك الذين خرجوا إلى السّوق ساعة البكور، أرابط بجدّ، أدفع عن نفسي كلّ كللٍ أو ضجر، عند مدخل القرية لا أبرحه عساني أظفرُ برؤية أمواج العائدين من هناك، في الغالب كانت الغلبة من النّساء اللاتي تفاوتتْ أعمارهنّ غير أنّهم قد تساووا فيما يتّشحْن به من السّواد، حفاة الأقدام، تلحظ عينُك أجسادَهنّ النحيلة المبرية من اللحم، قد شحب لونُهم إلا من أثر سوادٍ أحدثته لفحة الهجير على الجسر التّرابي ساعة العودة، تتابعتِ الجموع المستسلمة تحمل فوق رؤوسها بلا توانٍ سلالهنّ الكبيرة المصنوعة من سعَفِ النخيل والخوص أحيانًا، دسّوا في بطونها ما يتبلّغنَ به هُم وذووهم ما يحيون به ويأمنوا الموتَ جوعًا، مع أنّها فضلة قليلة من الفتات تكفيهم الضرورةُ إلى قابل حتى كرّتهم ثانية.

انتظم خروجي في مثل هذا الموعد، حافظت عليه لا أفوته أبدًا مهْما كانت المغريات، لم يكنْ لديّ ما يمنع من مصادقة عددٍ ممّن طاحت بعقولهم الصغيرة مثلي أحلامُ السّوق وسرابُه اللامع، يجالسني على الأرض نَفَرٌ منهم، بعضُهم أفضل حالٍ منّي، ممّن جاء لاستقبال أمّه العائدة من السوق، فها هو منشرحُ الصدر، يزهو وسط الحشود، لم تخلُ أحاديثُنا من سذاجتها، خاصّة بعد أن أسلمنا خيالنا الضّيق لأماني الطفولة المصبوغة بالرّعونة، فهي لا تتجاوز- في جُملتها- الطموحَ الضيّق بامتلاك فضلة من أعواد القصب، أو الفوز بحفنةٍ من أقماع الجلاب، أو ربّما يحالفنا الحظّ بأصبع صغيرة من حلوى العسليّة الصفراء، وقد يطيش بنا الخيالُ ويجتمع الفكرُ، فتفلت اللجام، فتمنّي النفس بأصنافٍ أخرى، كان في النادر تحقّقها، فهي من نصيب بعض

نقرٍ ممّن حظي بالمقدرة وبسطة من غنى تمكّن أمّه أن تحملها له دونَ غيره.

وعلى كلّ، فعلَى الصغير من هؤلاء المرابطين أنْ يلازم مكانَه لا يبرحه، يفترش الأرضَ من صباحه الباكر يقتله الترقب، لا حيلة له إلا الصبر، وأن يصبّر غيرَه ممّن أوشك ما أعدّه من تحمّلٍ على النّفاد.

يفرُك يدَه ساعة ملتهّيًا بما علق بها من ترابٍ وخالطه من عرق، يعيدها مرّات ومرّات حتى تصبح لعبته خلسةً من دون بقيّة الرفاق، أو أن يعمدَ إلى عينه يحكّها، وهو يجهدها وهو ينظر منتشيًا إلى الجسر الترابي الممتدّ بلا نهاية من أمامه وقد ابتلع النّسوة، علّه يلحظ أمّه من بين القادمات، وما أنْ تصل إحداهنّ أو تبلغ مكانًا تكون فيه على مرمى البصَر فيتمكّن اليائس الوجِلُ الصغير مِن تحديد هويّتها، حتى تراه وقد قفز في الهواء لأعلى، اصطكّت أقدامه الحافية بالتراب، فتتبعثر حصوات المكان فرحًا وسرورًا، ويترك ساقيه للريح بلا وعي، ويُهرول- من فوْره- مسرعًا، وقد أثارَ من وراء أرجلِه العاريةِ غبرةً من تراب تطاير مِن خلفه، عجاجُها يلازم أقدام هذا الراجل الصغير، وفِي أحيانٍ لا يسلم من شيء يحوّله فتتعثّر مشيته الجسر عدّة مرّات إلى أن يصل لمراده، ومع صرخاتٍ لا تنقطع تدوّي من بعيد تقطر بالفقر، بعد أنْ قرص صاحبَها الجوعُ وبلغ منه مبلغَه، ونالَ منه الانتظار، فيعمدُ مبالغًا في فرحِه والانبساط، فينوبُ عن أمّه يحمل عنها ما أمسكته بين يديها من متاع، ويمشي به في الأخير إلى جوارها مشية الظافر المُنتصر، يوزّع من نظرات الشّماتة الباردة على المنتظرين لدورهم الذين لم يحالفهم الحظّ مثله، بل اكتفوا من أمْرهم بالفرجة عسى أنْ يجود عليهم الحظّ بنظرةٍ، ويحينُ دورُهم.

كان البعضُ تؤزّه العجلة، وتلعب بدماغِه، فيوسوس له شيطانُ بطنه الذي أنهكته مسغبة الجوع أنْ يبادر بالْتهام بعضٍ من قطع الحلوى، مبررًا لصاحبه أنّ هذا من نصيبه، وأنّ أمّه ستقدّر مجيئه وتكافئ انتظارَه لها، فلا غضاضة عليه في ذلك، ودون تورّع يشرع في قضمِها بعد أن أخذَ فتواه من إبليس عقله الذي أفتاه بالجواز، فمع الجوع ينفدُ الصّبر ويطيش العقل وتتلاشى كلّ بصيرة، علاوةً على منظر الحلوى

اللّذيذ، التي ستضفي على جوفِه ما يحلّي مرارةَ الانتظار، ووقتَه الذي قضاه وسطَ الصفوف المحتشدة من صبيحتها.

كثيرًا ما كانت ترسلني أمّي أنتظر أولئك الجارات العائدات من السوق، فقد أوصتهم بشِراء بعض المستلزمات، لا أغشّك فقد كنت أجِدُ في ذلك سلواي وإنْ صعبت مشقّة الانتظار ومعاناة الحشود، فها أنا أجدُ مكانًا لي بين الوجوه البائسة ممّن أخذوا أماكنَهم فتراهم وكأنّهم قد ألصقوا في ترابه لصقًا، فهُم على جانبي الطريق ما بين لاهٍ عابس، وبين مترقب لحركة السّير على الجسر، وبين قلقٍ يلقي بحصوات إلى الماء عساه يجدُ معها ما يُبقيه على حال رفاقه.

كنتُ أجِد في الانتظار ما يلهي فضولي، ويشبع رغبتي المكبوتة، فالآن أيّها الصحب أصبحَ لوجودي ما يبرّره، ولمزاحمتي لكم صفة الشرعية، وأضحى عندي من الأسباب ما يقنع فلن أضيّع هذه الفرصة، شاكرًا لأمّي صنيعها إليّ، كانت لي طقوس بين أولئك الصّبية فأبادل بعضَهم الحديث وإنْ قلّت في الحقيقة أحاديثُهم فهم في همّ التّرقب الذي يشدّ صاحبَه، ويقطع عليه أيّ تفكير سواه.

لم تكنْ خطواتي تلك التي خطوْتها متحمسًا أسابق المتسابقين من حولي فأبدوا في مظهر المجدّ الذي لا يقلّ حماسة عن حماستهم، لقد كانت عيني تسابق أقدامي فتسبقها، وأماني نفسي تلاحق أنفاسي المتصارعة فتلحقها، لم أشغلْ بالي كثيرًا بمَن يحمل الحاجة؛ فهويّته لا تعنيني، المهمّ عندي وما أحرصُ عليه أنْ أشعر بما يشعرُ به هؤلاء الصبية، فلا أريدُ أن أفوّت هذه الفرص الثّمينة التي قلّ أنْ يجود الزمانُ بها، فأنا أسعى لأكون من بين أولئك أتسابقُ وأفوز وأحملُ مثلهم بين يدي غنيمتي وأعود في النهاية فرحًا لأمّي.

كانت الوالدةُ امرأةً بسيطة كباقي النّسوة من أهل القرية، أوتيَت حظًّا من الفراسة، أراها حين تلحظ ما بدا بعيني كلّما وقفت أمام باب البيت أطالعُ الصبية الذين أخذوا وجهتَهم إلى الجسر الكبير صبيحة يوم الجمعة.

إنّه يومُهم الذي ينتظرون فيه أمهاتِهم العائدات من السوق، فأراها وقد أذنتْ لي وإنْ لم تصرّح، ففي تغافلها عنّي وانشغالها ببعض أعمالها ما

يأذنُ لي بالمضي مع الماضين، وهذه عادتُها حتى عند عودتي من على الجسر بعد انتهاء الرّصد، وكأنّ بريقًا يتكشّف من عيني تعرفه فيفضح حالي، ويُبدي مشاعري.

هي تعرف منّي ذلك لتشفقَ عليّ في النهاية، وهذا حالُها في كلّ مرّة أعود فيها، لم يكنْ من عادتها الذّهابُ إلى السوق بانتظامٍ كبقية نساء الجيران، فهي تجد العِوضَ عنْ ذلك في تطوّع البعض وخدمات الجارات اللاتي تسابقنَ في شراء ما تحتاجه حبًّا فيها وبرًّا بها، كانت علاقتها بهم حسنةً للغاية، تسودها ما يسود الأسوياء الذين تجمعهم بمحيطهم الضيّق مظاهرُ الأخوّة وحُسن الجوار التي كانت من مباهج تلك الأيام.

وفي أحيانٍ كانت تطلب الحاجة جبرًا لخاطري على غير حاجةٍ ماسّة منها، عرفت ذلك فيما بعد أن تكرّر أمامي هذا المشهد أكثرَ من مرّة بلا سببٍ وجيه.

لم أفوّت يومًا دون مشاهدةِ هذا الحدث الأسبوعي، كيف أفوّته وفيه كلّ هذا القدر من التّشويق والإثارة التي تحلّ روحي من عقالها، وتجوسُ بها بعيدًا عن رتابتها المعهودة! أظلّ أعدّ الأيام، وأترقب الساعات، أحصيها حتى يحين الموعدُ المنتظر، أصحو من نومي مبكّرًا وقد ارتديتُ ملابسي، تسرقني عزيزة أسلمتها نفسي المتلهّفة لآخذ مكاني المُعتاد فلا وقت لدي أفوّته، يتبدّى المشهد أمامي من بعيد، أقبلُ عليه، ألحّ على خطواتي أن تتعجّل، فعلى ما يبدو أنّ تفاصيلَ في الأفق لا يُستحسن أن تنقضي.

ومع طول التعوّد، وانتظام المجالسة، نشأت بيني وبين كثيرٍ من الرّفاق- أهل الجسر الذين شاركوني لحظاتي- علاقةُ ودّ، ووجدت فيهم من حُسن المعاشرة والاستئناس ما قوّى روابط الصداقة، وإنْ دامت لبعض الوقت، ولكنّها على كلّ حال لا تزال شاخصة في زوايا الذّاكرة شخوصَ تلك الأيام، ترمقني بعينها من بعد، ويتوهّج نورها في فضاء عمري الطويل.

كنتُ لا أمانع مطلقًا مشاركتَهم على استحياء أمنياتهم العارضة، فهي ممّا أقضي به وقتي وأنسحب، لكنّ السؤال الذي يلحّ عليّ ويطاردني

في كلّ محفلٍ وحتى هذه اللحظات ولَم أجدْ دونه إجابةً شافية، ناهيك عن جبني سؤاله للوالدة:

- لماذا لا تذهب إلى السّوق كباقي النّسوة بانتظام!!؟

وذاتَ مساء، داخلتني حمّى الشجاعة، وبعد أن أخذتُ مكاني بجوارها وهي تقطّع أوراق الملوخية الخضراء تمهيدًا لخرْطها، فاتحتُها في هذا الموضوع بجديّة، وإن ظلّ الحياء منّي هو سيدَ الموقف، فقد استجمعتُ مع شجاعتي غير المعهودة بعضَ المبرّرات والحجج التي ظللتُ أكرّرها وأنا ألفّ في جنبات البيت أو على درجات سلّم بيتنا الطيني العتيق، وحتى على حصير البيت بعد أنْ ملأت جيب جلبابي الكستور بحبّات البلح المحمّص أتناولها غائبًا عن الوعي إلا عن صيحات وحركات الدّجاج الذي تجمّع من حولي يلتقط عيدان البرسيم الخضراء التي افترشَ بها المكان، كانت حججي مقنعةً لي فهذا ما قادني وداخلَ عقلي بأنّ اقتناع الوالدة به آتٍ لا محالة.

فكفّتْنا مئونة سؤال الذّاهبات إلى السوق، استشعارًا للحرج ورفعًا للكلفة غير المبرّرة.

نظرتْ إليّ الوالدة وقد ارتسمتْ على محياها ابتسامة رقيقة، فهي تعلم- علمَ اليقين- نيّتي وتدركُ بفراستها التي لا تجهل ما وراءَ حججي الغريبة التي أسوقها هذا المساء، وإن لم تكنْ وليدة اللحظة، ولكنّها تراكمات هي تعرف خباياها مثلي تمامًا.

بدتِ الوالدة في سكوتها وكأنّها تقرأ ما يُخفيه عقلي الصغير، انتظرتُ لحظة لتفحّص سقف البيت مرّة، وأرمي ببصري من شبّاك البيت لأرى خيال المصباح الذي بدا متراقصًا على حائط الجيران كعهده كلّ ليلة، وما ارتسم في ذهني المتّقد من حكايا الجدة التي أقنعتني في يومٍ من الأيام بأنّ هذه هي أرواح المَرَدة تتراقص تقترب وتتباعد، لكنّها في الأخير ستنقضّ عليّ تجرّني تحت الأرض إنْ خرجت متسلّلا بعد العشاء خارج البيت.

عدتُ جاهدًا من سباتي على صوت أمّي المسترسل وهي تحاول طمأنتي واعدةً بذهابنا عمّا قريب إلى السوق، وإنْ لم يكنْ لحاجة فليكنْ تطييبًا لخاطري.

في البدْء قفز قلبي المهتزّ من فرحه مِن مكانه، لكنّي تحاشيت ذلك حتى أتثبّت من وعود أمّي، وما ستنبئ عنْه أيّامنا، فقد يجدّ في الأمر ما يحول بين تحقّقه، لكن لم أستطعْ حجز ابتسامةٍ انْسابت بعفويّة تجاري هذا النبأ السعيد، وإنْ تفلّتت قسرًا ففضحت ما كنت أنوي كتمانَه، لم أتمالك نفسي المشتّتة منّي، طرتُ فرحًا وحلّقت أحلامي الوجلة تتخبّط في جدارِ الخيال الضيّق تحاول أن تهرب منه وتفكّ عنه سُوَر إساره المفروض عليه منذ زمنٍ سحيق، وانشغلتُ بيني وبين نفسي بمجرياتٍ هي في طيّ الأيام.. كيف لي أن أقضي فقراتِ هذه الرحلة الميمونة؟ وماذا ينقصني لها؟ يستفيق وعيي المنشغلُ على صوتٍ من إخوتي الصّغار يطلقونه بين الحين والحين حين يتشاغبوا فيما بينهم، أو صوتٍ قادم من الدّرب، أو أحدهم أوسع حمارَه ضربًا ورفسًا لتتهادى كلمات السّباب وطرقات عصاه التي تناثرت على جسدِ حماره، ووقع حوافره على الأرض الصلبة.

لم أستطع السيطرةَ على نفسي، في الأخير.. تاهت مع ما تاه منّي منذ أن سمعت وعودَ أمّي، لفّتني حالة من الشرود، وبدا السوق ينصَبّ مِن حولي، أسترجع شيئًا فشيئًا ما وعيْتُه من قصاصات حكايا منثورة على ألسنة رُواتها من نساء القرية وبنات الدّرب من الجيران اللاتي كان لهنّ تجارب معه، فمع شروق الشمس وتسلّط أشعتها التي تنساب متلصّصة في الدرب لترتكز أسفلَ جدار بيتنا ذي الواجهة العريضة، والتي أغرت عجائز الجيران وفتياتهم أن يزحفوا فرادى وجماعاتٍ للتعرّض لهذا الدفء الوفير الذي يتزايدُ مع ساعات النهار، فتذوبُ معه برودة الشتاء المتسلّطة على أبدانهنّ، ويجدنَ من خفّة الثياب العِوَضَ الذي يقيهم الجوّ القارص.

ناهيك عن التسلّل بعيدًا عن متاعب الرّطوبة المنبعثة من جدران بيوتهم القديمة المتهرّئة وقد يعمدُ البعض تفلية ثيابه ممّا علق بها من حشرات البيوت التي تساكنهم، كان لأحاديثهنّ طلاوتُها ومذاقها

المغاير، والخاصّ، ووقعُها المحبّب إلى مسامعي وفِي نفسي التي غالبها التطلّع لسحر هذا العالم وطرقه مهْما كلّف من ثمن.

لم يخرج الحديثُ في أغلبه عن استعراض وافٍ لأسعار السّلع ومقارنتها بمرّات سابقة، والأصناف المُتاحة من خضرٍ وفواكه وسلع تموينية، وكذا أسعار ما يحملونه من سلعهم التي حملوها إلى السّوق أيضًا كالزبد واللّبن والقشدة والحبوب، وغيرها..

ومع صبيحة يوم الجمعة، أيقظتني أمّي من نوْمي على عجل، والحقيقة التي أخفيتها أنّ النوم لم يراود جفوني السّاهرة، ولَم يكحّل الرقادُ عيوني، بتّ ليلتها أتفكّر في يومها الموعود الذي يفصله عنّي ساعات الليل القليلة، ساعات وينقضي هذا الترقب، وتسفر شمسُ النهار عن شيء فارقٍ في حياتي، آويت البارحة إلى الفراش مبكّرًا جعلت أظاهر نفسي علّني أقنعُ عيني أن تغمضَا، ولكنْ بلا فائدة، تصلّبت منها الجفون وتخشّبت منها المحاجر، واستعصت أوتارُها على أنْ تطاوعني، ها هي مخايل السوق وصورُه تحيط بفراشي من كلّ جانب، امتلأت الغرفة وممرّات البيت وصالتُه الخارجية حتى الشارع من الخارج بالباعة وأصواتهم تتقاذفُ عالية ترجّ المكان من حولي، وهذا صخب الزبائن وصيحات المارة وضوضاءُ المكان من اصْطكاك المكاييل والموازين وعربات النقل التي تجرّها الدّواب، ناهيك عن الرّوائح المنبعثة تعمّ المكان من حولي، روائح لا يمكن لمثلي أن يجهلها أو يخطئ ما وراءها، على العموم تحرّكتُ مع الوالدة بعد ليلتي الغريبة تلك، وها أنا أسيرُ في خفّة، فارتدي ملابسي، والتي بدتْ جديدة بعض الشيء بعد أن تخيّرت منها جديدَها ليناسب هذه الرّحلة المنتظرة. كانت الوالدة لا تخفي تعجّبها من نشاطي الذي أبديتُه، ولكنّها تدرك ما تعنيه لي هذه الزيارة، ومردودَها على نفسي المتحفّزة لها من أسبوع مضى، على أيّة حالٍ انشغلتْ هي الأخرى بما ينشغل به أهل السّوق من إعداد سلالها التي ستحمل فيها أمتعتَها، وما جلبته من بضاعة السوق، ولكنّها لا تزال تردّد عباراتٍ بعينها تستعجلني بها، وتحثّني أن أسرعَ في عملي..

تقدّمتُ ناحية الوالدة وأنا أقول مبتسمًا: ها أنا جاهزٌ يا أمّي، هيّا بنَا؛ فالوقت يداهمنا.....

تحرّكنا أخيرًا على غير ما تعوّده الذاهبون، فقد اعتادت نساءُ القرية أن يسلكن الطريق زرافاتٍ وجماعات متّخذة من الجسر الكبير مسلكًا لها، وهذا المعتاد المتعارف عليه، أمّا أمّي فقد جنحت بنا لنسلك طريقًا جانبيًّا بعيدًا بعضَ الشيء عن طريق أولئك، وإن كان يساويه في نفس المسافة، لكنّه يقطع الحقول القريبة من قريتنا، ويمرّ على مصرف يصل من قريتنا للقرية التي يقام بها السّوق، كان الجوّ لا يزال صحوًا منعشًا، تتدفّق نسائم الصّباح فتراقص أوراقَ المزروعات من حولنا فيستجيب لها سعف النّخيل المتهدل، وتتحرّك معها أغصان الصّفصاف الطّوال التي تلامس صفحة المياه الجارية من أسفل تملأ المصْرف، ناهيك عن الجذوع العالية التي بدأت تتمايل رويدًا رويدًا، وإنْ كان في تمايلها بعضُ الشموخ والعظمة غير استجابتها لنداء الطبيعة البكْر التي وهبتها ما يجدّد فيها شعورَ الكبرياء فتنتباهى سامقةً في فضاء الكون الفسيح تسبّح بحمد ربّها الذي مدّ في آجالها وأطوالها.

وعلى فترات، تتراءى لنا أشعة الشّمس الذهبية التي كانت تتبعنا من بين المزروعات التي تحوطنا من كلّ جانب، ولكنّها كانت رقراقة لم تشُبْها حمْأة الأصيل بعد، فهي في سخونتِها جنينٌ لم يكتمل بعْد، نظرت أمّي باهتمامٍ ناحية قرصها البازغ وهي تضع يدَها فوقَ جبهتها تتحاشى ضوءها الوهّاج وهي تقول: اليَوْم الجوّ صحوٌ.. نسأل الله السلامة، ستكون الحرارة اليَوْمَ في ذروتها، هيّا يا صغيري تقدّم في سيْرك بجِدّ...

سرتُ إلى جوار الوالدة التي مشتْ هي الأخرى تدكّ الأرض دكًّا، وهي تنظر ناحية الشّمس مرّة وناحيتي أخرى، وإن جعلت مشيتي بعيدًا عن مباشرتها خوفًا عليّ ورفقًا بحالي.

كانتِ الدنيا لا تسعُ فرحتي، كانت خطواتي تتوالى وكأنّها لا تصل للأرض، بل هي تلامس السّحاب من فوقي، شعرت وكأنّ الزمن قد توقّف، وعقاربَ الساعة لا تتحرّك، ولن تتحرّك حتى يكتمل الحلم، وألجُ السوقَ بنفسي في رحاب أمّي الحبيبة

لا أشعرُ بشيء من حولي سوى يدِ أمّي تمتدّ فتمسح قطراتٍ من العرق تلألأ بها جبيني بخمارها الأسود الطويل، وهي تبتسم ابتسامةً تحرّك

فيّ نشاطي وتبعث فيّ الحماسة، وكأنّها تقول لي بلسان الحال: لا يزال في الوقت متّسع، ولا تزال المسافة ممتدّة أمامك؛ فامضِ بعزمٍ يا صغيري وأكملْ ما بدأت...

كانتِ المسافة بين قريتنا والقرية التي يُقام فيها السوق تبلغ كيلومترين بالتمام، علمتُها من حديدةٍ كبيرة وضعها رجالُ المساحة أمام قريتنا على الجسر الكبير، كنّا لا نكف عن التعلّق بها، والعبثِ من حولها، غير مكترثين بنداءات وتحذيرات رجال الطرق الذين كلّفوا برشّ الجسر الترابي المارّ من أمامها.

غيْرَ أنّ المسافة بدتْ أمامي بعيدةً بعْدَ المشرقين، فما أقسى وأصعب لحظات الترقب والانتظار، ظهر الطريقُ من أمامي وقد بلّل الندى جوانبَه التي حفتها الحلفاء، فبدتْ تربتُه هامدةً ساكنة، إلا أنّ ما زاد من بهجة الطريق وهوّن متاعبَه على نفسي وألهب خطواتي فتكمل مسيرها؛ نخلاتُه الطّوال التي لازمت الطريق كلّه، فهي منتشرة في صفوفٍ متناسقة عالية كحارسٍ كلّفَ بحمايته، وقد تدلّت منها عراجين البلح بألوانها الصّفراء والحمراء تسرّ الناظرين وتفتح شهيتَهم.

عمدتِ الوالدة إلى تهوين المسافة ومشاقها عليّ، فكانت وصاياها لي تسري على نفسي سكونَ المكان وصمته إلا من فحيح جريد النّخل اليابس المتلاطم من فوْقنا، هي في الحقيقة كانت تقطعُ عنّي ما بدأت أفكّر فيه، وما ارتسم في مخيّلتي عن السوق وعالمه السّاحر، فلا تزال حكايا الصّغار من أقراني الذين سبقوني في الذهاب تتلاعب بي، ولا تزال قصصهم ونوادرهم متّسعًا رحبًا يطوف مِن حولي، أو أجول فيه بعقلي الذي استولى عليه ما سمع.

كانت عيني تدور على الطريق وما حواه، غير أنّها كانت تتّصل بما يعلوني، إنها ثمرات البلح المتلألئة التي تبرق ساطعةً من فوقي ينقدحُ منها الشّرر ويتطاير منها ما يثير لعابي، بدا اهْتمامي بها مبالغًا فيه، فهي تقذف الأرض برخّات من ثمرها المتساقط بفعل الرّياح، ولعلّ نضجها هو ما أغراها بأنْ تسقط بهذه الكيفية، كنت أبذل وسْعِي أن أتجاوب مع بُهْرجها الفتّان، بدتْ من حولي وكأنّ لها ألسنة تنادي سعيدَ الحظّ الذي يهنأ بها، قلت في نفسي: لماذا لا أكونُ أنا، فهي رزقٌ

من الله ساقه إلينا بغير كدّ، كما أنّنا لم نعتدِ على حرمةِ أحد أو ممتلكاته منها، فلمَ لا يكون لنا منها نصيب!؟

غير أنّ يدَ أمّي التي أحكمت قبضتها على يدي حالتْ وهذا المسعى، فهي محكمة أشدّ الإحكام، لعلّ جديّتها في السير وهمّتها في الوصول المبكّر السوق قبل اشتداد الحرّ هو السّببُ المباشر، غير أنّ ما عرفته عن أمّي وربّتني عليه توخّي الحذر من النظر لحاجة الناس أو العدوان عليها حتى في غيابهم، فهي ترى أنّ هذا معصية لله تعالى علاوةً على ما يجرّه من خراب وخزي يوسم مقترفه، وبعد فترة طلبتُ من أمّي بعد تفكيرٍ أن تسمح لي أنْ ألتقطَ منه بعض حبّات، فلا بأس في ذلك، وافقت الأمّ على مضض منها، سارعت فرحًا أجمع ما تطاله يدي فأمرّره على طرف ثوبي أزيلُ ما علقَ به من تراب وقشّ، وأغيبُها بعد ذلك في فمي مطمئنًا لحلاوتها أو أهب منها للوالدة.. والتي شيئًا فشيئًا تركتني أجمع ما أستطيع جمعَه وأضعه في السلّة التي حملتها بين يديها، وجدت أريحية بعد أن تفلتّ من يدِ أمّي، شعرت وكأنّني أذهب بمفردي دون وصايةٍ منها، بالغت في حريتي وممارسة حقّي في السّير؛ فجمعتُ من الثمار الكثيرَ حتى اضطرّت الوالدة في الأخير أن توقفني منبّهةً إيّاي أنّ شرطها كان بعضًا منه وليس الكثير، وأنّ عليّ الانتباه للطريق والمشي بهمّة أكثر من هذا.

لم تتكلّف الوالدة على حثّي مواصلة مشيي من آنٍ لآخر حتى لا نتأخّر مذكّرة إيّاي بأن في ساعات السّوق الأولى يمكننا التسوّق بحرية تفاديًا للزحام وهربًا من حرارة الصيف التي بدأت تتصاعد من حولنا، فوقتُ الظهيرة يشتدّ حرّه خاصّة على الجسور الترابية أيام الصيف، جاوبت أمّي مثنيًا على رأيها، كنتُ أراقب الطريق من أمامي متلهّفًا، والغريب أنّ أصوات السّوق وعالمه المتزاحم لا أستطيع مقاومته حتى لانشغالي في حديث أمّي أو نظراتي التي أوزّعها من حولي، وكلّما اقتربنا خطوةً من المكان فتزداد جلبة السوق، جعلت أحدقُ طويلا، فعلى ما يبدو أنّ مشارف السوق قد أطلّت برأسها من هناك، أسمع صياحًا وأصواتٍ متداخلة بشكلٍ مبالغ فيه، يبدو أنّه السوق كما توقعت من قبل.

تسارعت خطانا، استعجلتْ أمّي خطواتها، وكذلك أنا، وبعد دقائق معدودة وصلنا أخيرًا السّوق، توقفت برهةً قصيرة عند المدخل،

تسمّرتُ في مكاني أنظرُ بتمعّن زوايا المكان، كلّ شيء فيه أثير يستحقّ أن أسجّله وأحفظه في مخيّلتي، فمَن يدري القادم..

تتفرّس عيني الوجوهَ المحيطة بي، إنّهم أناس مثلنا تمامًا، ليسوا من عالمٍ غريب، فهُم من بني البشر، حوّلت عيني ناحية البضاعة المُلقاة على جانبي الطريق مهملةً هكذا، تذكرت مقولة سيدِنا في الكُتّاب، كانت مقولتُه التي يطلقها من آنٍ لآخر عند رؤيته شيئًا هملا: بضاعةٌ مُسْجاة ..

فهل هي حقًّا مُسْجاة بلا صاحب، لا.. لا يمكن فقد يكون أحدُ هؤلاء صاحبَها، ولكنّه ابتعد قليلا عنها تحاشيًا لأشعة الشمس، وسيعود عند أوّل مشترٍ قادم..

مدّتِ الوالدة يدَها إليّ وجذبتني بقوّة وهي تنهرني في تلكّني هذا، أمسكت بيدِها من جديد فهُنا يتوجّب على الصغار- أمثالي- التقيّد بقانون السوق، الذي يفوّض كبار السنّ منهم حريّة التصرّف والسيطرة عليهم وقيادتهم؛ ضمانًا للسلامة، وتحاشيًا لما يعكّر صفْوهم، حتى وإنْ أبدوا نصيبًا من التململ..

هذه السّطوة حتى تمرّ الرحلة بسلام، وبعد لحظات من التفحّص والتريث ريثما نستطلع الموقف، ذهبنا وسط الزحام لتذوب خطواتُنا في عالمٍ واسع الأفق، ممتدٍّ من حولنا لمَا لا نهاية، وابتلعنا ضجيجُ السوق وضوضاءُ مرتاديه..

وفِي عجالة منها، طلبتِ الوالدة منّي أن أخرج القائمة التي سوّدتها بمعرفتها قبل أن نغادر البيت لأتلوها عليها، وقد دوّنّا فيها كلّ ما نحتاجه من متطلبات، اجتهدت في القراءة قدْرَ إمكاني، والأمّ صامتة متنبّهة لكلّ صنفٍ وهي ترسل مع ذاك طرفها ناحية مِن نواحي السوق، وكأنّها تستدلّ على مكان بائعه الذي وقف من بعيدٍ ينادي سلعته، على الرّغم من اكتظاظ المكان بالحشود المتلاحقة من كلّ فجّ عميق، ورغم تداخل البضاعة إلا أنّ الوالدة كانت على بصيرةٍ بهذا، جذبتني الوالدة من يدي، تبعتُ خطواتها لا أهتدي لشيء ممّا يدور من حولي إلا مطالعة ما يجري من حركة سواء من البائعين أو التجار، أصواتٌ متتابعة من كلّ مكان، ومع كلّ صنف دونها كانت الأمّ تتوقف أمام

بائعه، ورغم ما كنّا نلاقيه من صعوبة فقد تكاثر الناسُ مِن حوله إلا أنّ التجربة كانت بالنسبة لي شيقة وتبعثُ في نفسي راحةً كبيرة تتزايد مع سيْرنا في جنبات السّوق، فترى الحركة دائبة من الجميع في تدافع لا تنقطع أمواجُه؛ هذا يقلّب بضاعته ولا يستردّ الباقي، وهذا يدفع الثّمن، وذاك يفاصل، وتلك تتردّد، وآخرون قد هالهم منظرُ الزحام فهُم قد همّوا بالابتعاد لكنّ عيونهم معلّقة بالبضاعة، مدٌّ لا ينقطع، وروحٌ تعجّ بها أروقة السوق بلا فتور. طلبتْ منّي الوالدة أثناء ذلك توخّي الحذرَ والحيطة، وأن أظلّ في مكاني بجانب العربة، وعيني لا تفارقها مهْما حصل، ولكني كنتُ في شدّة الخوف من أن أفقدها وسط هذا المشهد المَهيب، فقد كانت حكايات الصّبية الذين تاهوا عن أهليهم في السوق تفزعني كلّما استُحضرتها، وفي خلسة عمدتُ إلى ثوب أمّي فأمسكت بطرفٍ منه وهي لا تدري خلسةً؛ علّي أتغلّب على هذه الهواجس التي طفحَ بها عقلي وأرهقتْ ذهني وشتّتت تفكيري، ومنعتني مواصلة متعة التّسوق، وقفت بجوار الوالدة وقد أمسكت بالسلّة أفتحها لها وهي تُسقط ما اشترته فيها، لا تزال عيني مسلّطة على يدها وكأنّها قد التصقت بها علوًّا وانخفاضًا، سرّت الوالدة بهذا التّعاون الجيد الذي أبديتُه معها، ولاحت بشائره مع كلّ مرّة، وهذا ما أدخل السرورَ إلى قلبي وجعلني أقدم بمهارةٍ على مواصلة العمل وتحرّي مواضيع قدمي بين الأرجُلِ المتزاحمة من حول البائع، وقد زالت عنّي الرّهبة ودبّت الشجاعة في نفسي، كذا الوالدة أرختْ لي الزّمام بصورةٍ معقولة تشجيعًا لي ودفعًا لنفسي الوجلة أن تزيلَ عنها وساوسَ لحقتْها..

خاصّة وأنّها المرّة الأولى التي أذهب فيها إلى السوق، وعلى ما يبدو أنّ النتيجة كانت مبشّرة، وعدتني أمّي بالمكافأة في نفس الوقت وهي تضع يدَها على رأسي: وبما أنّك قد أبديتَ هذه اليقظة؛ ستكون معي في مرّاتي القادمة، جيدٌ.. جيد..

ابتسمتُ ابتسامة عريضة، وتظاهرتُ مهتمًّا بالتفاصيل، ولَم يمنعني ذلك من المبالغة في الثّقة وسؤال الباعة عن أسعار بضاعتهم كأيّ زبون، ضحكت أمّي بهذه الثّقة، وهمزتني في كتفي لتمضي خطواتنا ناحية سلعةٍ ثانية..

لم يكنْ ما أبديته من طاعةٍ لأمّي في هذا الموقف إلا من باب التصنّع الذي يخفي بباطنه ما يُخفي، فأنا أريد أن أشقّ عصا الطاعة في هذا الموقف بالتحديد، أريد أن أخرج من وصايتِها المفروضة عليّ، أريد أن أمرحَ.. أنْ أجري.. أحلّق في جنبات السوق، ولكنّي أبديت السمعَ والطاعة حبًّا في الجائزة، ودفعًا لما يمكن أن يداخل أمّي من شغب..

بدأ الجوّ يشتعل من حولنا بعد أنْ أرسلت السّماء بحممها علينا، تسلّطت السماء على أهل الأرض، وصدقت نبوءة أمّي التي أذاعتها من قبلُ بأنّ الجوّ اليومَ سيكون مختلفًا بعض الشيء، وأنّ حرارته شديدة.. وقد كان، جعلت أمرّر طرفَ ثوبي على وجهي أزيلُ عنه قطراتٍ من العرق انسابتْ عليه بغزارة، ولكنّها كانت لا تختلف في قسوتها عن قساوة الجوّ الحارّ من حولنا، فهي ساخنة تقطر من جسمي كلّه، كانت نظرات أمّي متتابعة وهي تضع طرفَ خمارها عليّ أو تعمدُ إلى جانب خيمةِ بائع فتقف لحظاتٍ عساني أن ألتقط أنفاسي التي نفدت، مددتُ طرفي فهالني ما رأيت.. كانت الحرارة قد بلغت مداها في هذه الدقائق؛ ما جعل الباعة يفرغون جرارَ الماء البارد من فوق رؤوسهم، وشرع البعضُ في نصب ما أعدّوه من خيام ومظلات مصنوعة من الخيش، وبعضهم عمدَ إلى فردِ سواتر واسعةٍ من القماش الأبيض السّميك علّها تقيهم- وبضاعتهم- بشاعة الحرّ... لاحظتِ الوالدة ما بدا عليّ من الإعياء الشديد، جعلت تهمسُ في أذني عن قرب على فتراتٍ قريبة وهي تقول لي مشجّعة: تماسك؛ فقد أوشكنا على الانصراف، تبقّى أمامنا شراءُ ما نحتاجُه مِن عطارة، ها.. تراك تعبت؟!

كنت أردّ عليها مكتفيًا بهزّات متتابعة من رأسي تفيد الرفضَ، على الرّغم من الإجهاد الذي استنفذت معه جلّ طاقتي، حاولت أن أحتفظ بقوّتي وبمظهري المتماسك من أمام الوالدة، فهذه فرصتي كي أثبتَ جدارتي واستحقاقي بمرافقتها للسّوق، كما أننا قد أوشكنا على أن ننصرف فلا بأسَ من قليلِ الصبر...

وأخيرًا، انفضّت رحلة التسوّق على خير، عادت الوالدةُ إلى سؤالها القديم، كان يشغلها كثيرًا ما بدا عليّ من التعب، جلسنا إلى ظلّ حائط قريب، طلبتْ منّي الوالدة أن أساعدها في إعادة ترتيب المشتريات ومعرفة النّاقص منها قبل أن نغادر السوق، وبعد أن اطمأنّت أحكمتِ

الوالدة ربطَ السلّة بإحكامٍ شديد، نظرت إليّ وهي تقول: تراك قد عطشت.. أليس كذلك؟ لا تقلق ستنال ما يُرضيك ويبرّد جوفك يا صغيري..

نظرتِ الأمّ من حولها وكأنّها تبحث عن شيء تفتقده، وأخيرًا أشارت بيدها، طلبتْ منّي أن أظلّ في مكاني متيقّظًا للحاجة حتى تعود، انطلقتْ تعدو وأنا أتابعها، قلت في نفسي: تُرى.. ماذا تصنع الوالدة؟ هل ذهبت لغرضٍ ما!؟

وعلى بُعد أمتارٍ قليلة توقفت الوالدة أمام بائع الجيلاتي والمثلّجات، لتطلب منه أن يعدّ لها منه ما يبرّد جوفنا الملتهب.. عادت الوالدةُ بسرعة وهي تدفع لي إحداها طالبةً منّي أن ألتهمها بسرعة قبل أن تسيل، فالحرارةُ لا تطاق، حقيقة ما كنت لأعرفَ من قبل مثل هذه النّوعية من المرطبات، فخبْرَتي تكاد تكون منعدمة، فلم تعهد قريتُنا مثل هذه الأشياء، سألتُ الوالدة عن البائع، قالت لي: إنّه لا يأتي إلا لهذا اليوم خصيصًا، فهو من البنْدر..

طلبتْ منّي الوالدة أن أهيّئ نفسي كي ننطلق؛ فقد تمّت عملية الشراء، تحرّكت معها عائدين من حيث أتينا، توقّفت الوالدة أمام بائع الحلوى فاشترتْ لي قمع الجلاب الذي طلبت، طلبتْ منّي أنْ آكله بسرعة فالحرّ لن يترك لي فرصة إمساكه بيدي وتعرّضه للشّمس، وبالفعل التهمتُه على عدّة قضمات، سرْنا قليلا ولكنّ خطواتي لم تدُمْ؛ فقد تسمّرت بلا وعي أمام بائع عصير القصب، انعطفتِ الوالدة لتمنحني كوبًا منه أعاد الحياة إلى نفسي البائسة، وأمدّ جسمي بالطاقة لاستكمال المسير.

ومع كلّ رشفة منه كنت أهزّ رأسي في ثقةٍ وأريحية بأنّ تعبي لم يذهب سدى، وأنّ لهذه المعاناة ثمنًا يستحقّ ما بُذل من أجلها وفِي سبيلها، وها أنا أجني ثمرتَها في الواقع بعد أن كانت فيما مضى أشبه ما يكون بالسّراب.

وبعد لحظات، سألتني الوالدة إنْ كنت أحتاج شيئًا من السوق قبل أن ننصرف، أجبتُها من فوْري حتى لا أضيّع هذه الفرصة منّي..

- نعم، أحتاج قليلا من التّين الشوكي وأقماع الجلاب لإخوتي الصّغار.

وبالفعل اشترت الوالدة كلَّ ما طلبت، بعدها تأكّدت من تأهّبنا لمغادرة المكان، مشيت إلى جانب أمّي وقد أمسكتُ بيدها، والسّعادة تغمرني، ولا أبالغ حين أقول بأنّها كانت تسايرني وتمشي بجانبي، ولكنّني ظللتُ في عالمي الخاص، أمشي بجسدي لكنّ روحي لا تزال تطوف أرجاءَ المكان، أخيرًا بدأتِ السعادة تغمرني، فها أنا قد أصبحت من أهل السّوق...

تحرّكت ببطءٍ شديد، طلبتُ من الوالدة التوقّف قليلا لأصلح حذائي، تظاهرتُ بإخراج حصاة علقت به، ولكنّني في الحقيقة أرسلت نظري يسرح في جنبات السوق لا أصدّق أنّ رحلتنا قد انقضت، وحان الوقتُ كي نغادر، رمقتُ المكان بنظرة اختزلتُ فيها كلّ معاني الشّوق واللهفة، جعل لساني يردّد بعفوية، ظننتُ أنّي الوحيد مَن يسمعه:

لنا عودةٌ عمّا قريب أيّها السّوق الحبيب.

سمعتِ الوالدة مقالتي، فمدّت يدها إليّ من جديد تستعجلني حاثّة خطواتي المتثاقلة على المَسير، وقد أخفتِ ابتسامتها من وراء خمارها لتبدأ رحلة العودة.

أمّ صباح

مثّلَ مقدمُها الميمونُ القريةَ طالعَ سعدٍ ومبعثَ بهجةٍ لأهلها الذين تلقّفوا أنباء المقدم المُرتقب بكلّ بشاشة، ففرح كبيرُهم لما سينالُه من حظْوة المشاهدة ولذّة السماع، وتطاير الصّغير كعصفورٍ أفلتَ من قفصه بعد أنْ طال محبسُه.. ها هي الأيام تعطيه مُنْيته ويمكنه أن يجدَ مبرّره الذي يسهر معه لأصاف الليالي بعيدًا عن وصاية أهله وتزمّت الإخوة الكبار، الذين شكّلت سطوتهم عبئًا يُضاف إلى متاعبه، وجد شبابها المتعطّش للحُسن، المتلهّف لمعاني الجَمال الصاخبة من صوتنا النادي ما يستحقّ أن يتتبّعه، ومن نظرات عينها الجارحة للصدور الجائزة لكلّ قلبٍ كسير؛ ما يعيد الثقة لكلّ محبّ معذّب جنحَ به الحبّ بعيدًا عن حبيبه، فأشقاه ما أشقى غيرَه من ألم الهجْر ولوعة الفراق التي تشيب لهَوْلها الولْدان.

تتراقص لذكراها في القلوب التي أتْرعت بالحسرة، وخيّب أملَها طولُ الانقطاع، فمَن يدري لعلّ مع صوتها الشجيّ ما يثير في قلوب العاشقين ما يثيره، فيجد طريقًا يدلّ به المحبوبَ على محبوبه.

لم تخلُ أحلامُ العاشقين الذين ارْتادوا محافلها، وامتلأت بهم جنباتُ سامرها، كان صوتُها يبعثُ في نفوس المستمعين شجنًا غريبًا، ويتلاعب بالقوم يمنةً ويَسْرة ليلامس جراح المجروحين، ويبرّد أكبادَ المحبّين الذين أتوْا إليها، وقد تعقّبوا الموعدَ من أسابيع مضت، حتى يكاد أنْ يجزم بأنّ فضاءات القرية تحنّ إليها، وترصدُ مطالعها في الوجوه التي ترجوها يومًا بعد يوم، خاصّة بعد مواسم الحصاد، أو عقبَ جنْي القطن، وهذه مناسبات ملائمة تقام فيها الأعراس، ويجتمع معها شملُ المحبّين الذين انتظروا هذا المجيء بفارغ الصّبر.

لم يكنْ مقدمُها عفويًّا دون سابق ترتيب، بل كانت تتلاحق الأخبارُ تباعًا كلّ يوم حتى يحينَ السّامر، تتناقل الأخبارَ الأفواهُ التي تكدّ تحت صفحة السماء في الحقول الواسعة التي امتلأت بالأماني والآلام، التي اختلطت فيها الدّموع بالعرق، الغنى بالفقر، الجوعُ والحاجة والعوزُ البادي من

هؤلاء السّمّيعة بالشّبع والبَطَر والسّعة التي تحياها المرأة والنّعمة التي تبدّت فيها.

لم يكنْ مجيء أمّ صباح حدثًا عاديًّا، بل كان موعدًا استثنائيًّا من أيام القرية، فسلطانة الطّرب لا تأتي هكذا!! وهي التي تربّعت على عرش الغناء في الزّمام كلّه، كمْ شهدت القرية والقرى المحيطة من أفراحٍ ولياليَ مِلاحٍ كانت هي كروَانّها الصّدّاح و البلبل المغرّدَ الذي أسكرتْ نغماته الرّنّانة قلوبَ العاشقين قبل آذانهم، يعرفها الصغيرُ قبل الكبير، البناتُ والعجائز...

فتِنَ الناسُ بها، وأصبح لها من الحظْوة والمكانة ما دفع البعضَ لحدّ المبالغة والإفراط دونَ وعي، ظنًّا منه بأنّ مكانته من مكانتها، فلا يتحرّج والدُ العروس أن يشترط ضمن ما يشترطه من مهْرِ ابنته ساعة الشّرط وإتمام الخطبة؛ شرطًا.. أن تحيي الليلة الكبيرة أمُّ صباح، وإلا فلا عرسَ ولا زواج!! تعمّد البعض حتى أصبح هذا الطلب واجبَ النّفاذ لا رجوعَ فيه، كانت الصّبايا تتخطفهنّ الأحلام والأماني من وراء الجدران فهي لا تطمع أكثرَ من أن تكون أمّ صباح مطربةَ ليلتها التي تجتمع فيها مع مَن تهوى، فيا خيبة رجاء مَن لم يحالفه الحظّ ليكون ممّن حضرَ ليلتها، وأضْلعَته الحاجةُ وأشقاهُ فقرُه فحُرم مجيئها.

ولعلّ من باب المبالغة وفضلةِ القول أنْ كانت العروس تشعر في قرارةِ نفسها بالتفاخر والزّهو والمكانة بين رفيقاتها لأنّ حبيبها استجاب أخيرًا، فأمّ صباح مطربتها المفضلة قد شرّفت عرسها، وهو مِن الفألِ الحَسن والطّالع المستملَح، معتبرةً ليلتها من ليالي القرية المعدودة، فتظلّ تذكرها بكلّ شموخ، وإن كانت تجرّ في أذيالها ثلاث أبطن من البنين والبنات، وعلى النّقيض فيا لشؤمِ مَن لم يحالفْها حظّها ويخيب أملُها ولَم يتمكّن عريسها من دعوة المرأة، فالنّكد لا محالةَ، والكدرُ والشؤم سيعمّ المكان ويملأ جنباتِ البيت، وتجد بعضهنّ منه ما تعيّر به زوجَها لاحقًا، ولو مضى على ليلتها زمنٌ طويل، وترى فيه من البُخل ما لا يمكن تغْييره ولو بملء الأرض ذهبًا، ناهيك عن ثقتها التي تهتزّ فيه وتواريها من خليلاتها لأشْهرٍ.. وكأنّ في الأمر سبّة!!!

ولعلّ في السحر الذي كان له أثرُه من أمّ صباح في الحشود الفقيرة التي تتنقل وراءها من قريةٍ لأخرى، ومن نجع لآخر، حتى في ترحالها إلى البندر، فلم تكنْ شهرة المرأة الواسعة من فراغ، ظلّت المرأة لفترةٍ طويلة النموذجَ الفريد للمطربة الشعبية التي تجوب القرى، سلعتُها التأثير في القلوب، وخطفُ العيون، تشعّ منها جاذبية لها نكهتُها الخاصة التي تجد صداها عند محبّيها دونَ سواها، فحركاتُها وسكناتها نسجٌ من الخيال ومسحة من السّحر الذي يشبه ما تستدعيه النفسُ من أقاصيص التّاريخ للقيان في بيوت الخلفاء وجواري السّلاطين.

منذ الصباح الباكر، يصحو فريقٌ كامل من المتطوّعين وأهلِ العريس، مهمّتُهم تنظيف المكان جيدًا، يظلّ هؤلاء في عملٍ لا ينقطع حتى مغيبِ الشّمس وحلول الظلام، فالمحافظة على النظافة شغلُهم الشّاغل، ولا مانع من بعض التعديلات التي يُسْديها البعض.

لترصّ "الدّكك" بعدَها، وتصفّ في صفوفٍ متقاربة على جانبي الشارع، أو في الساحة التي ستشهد العُرس، وقد تمتدّ حتى مفارق الطرق، أو بين جنبات شوارع وأزقة القرية، ولا يخفى ما تُبديه النسوة بالخصوص من اهتمامٍ فتهيّئ لها مكانًا قريبًا من الحفل، قد يكون أمامَ بيتٍ من البيوت المجاورة أو سطحها الذي يشرفُ على المكان، وهذا في حال تبسّمَ السّعدُ ووفّقَ القدرُ أصحابَ النّصيب.

تستعدّ القرية جميعُها في هذا اليوم الاستثنائي، وتدبّ انتفاضة معينة تسبقَ الناس حتى إلى أشغالهم في الحقول، فيسرع الكثيرُ منهم في إنجاز ما وراءهم من أمورٍ مهمّة من ريّ وحرث وعزقٍ وتسْميد، هذا في الأوقات الاعتيادية.. أمّا في الأوقات التي تتواكب ومحاصيل الموْسم الرئيسة الحصاد وجنْي القطن وخلافه؛ فالأمرُ يختلف حيث تكون هناك سعةٌ من أساسه، حين يتعمّد صاحبُ العرس تأجيلَه لحين قضاء الجميع من أعمال الموسم كي يتفرّغ الأحبّة والمجاملون لهذه الليلة، والطبعُ يكون هو واحد منهم، تعود الماشية قبل غروب الشمس بوقت كافٍ، يسوقها الصّغار الذين أجروها على عجل، يلهبون ظهورها بعصيّ الصفصاف وكأنّهم ركّبوها أجنحةً كي تطير وتسبق ما ينتظرهم مع مقْدم الظلام، كذا النساءُ في الدّور تنجزُ الواحدة منهم ما وراءها كي تتفرّغ بالكلية لهذا الحفل البهيج.. إنّها ليلة أمّ صباح.....

يشرفُ الجميع على وضْع اللمسات الأخيرة على المكان، لا بدّ أن يكون لائقًا ونظيفًا، وبقدْر مكانة العريس وأهلِه تكون هممُ المجاملين، وكذا همّة العريس وتعاونه مع رفاقه، فالعملُ تطوعيّ بالدرجة الأولى، يجامل فيه الشابّ صديقه، فاليوم عندي وغدًا عندك.. وهكذا دواليك..

تتطلّع العيون للقادم مِن بعيد، هناك ناحية الترعة الكبيرة وجسرها التّرابي الذي يقطر بالظّلام، تتعالى عليه أشباحٌ تتمايل من جريد النّخيل الذي يتراقص مع كلّ ضوءٍ قادم من بعيد، يعرف أهلُ القرية بعضَ ضيوفهم ممّن سلك الجسر بعربته حتى وهو مِن مكان بعيد.

كانت المعاناةُ كبيرة، والمشقة تتّسع، فهذا الطريق الترابي غير مسلوكٍ من قبل، مليء بالعجر والبجر، تملؤه الحُفر وأكوامٌ من التراب والحصى استُعصت على جرار الماء التي يفرغها الرّشّاشون الذين عيّنتهم الحكومة تابعين للرّي في تسويتها أو حتى تهدئة غبرتها...

ويَا ويْلَ مَن يسوقه قدرُه ليسلكه، عليه أن يحسبَ له ألفَ حساب.. تتردّد في المكان عباراتٌ حمل أصحابُها القلقَ أن يطلقوها بين حينٍ وحين: هل جاءت أمّ صباح؟ يا ترى لماذا تأخّرت!؟ لعلّ المانع خير.

يظلّ الشخص منهم يسأل نفسَه، ويجيبها في كلّ وقت.

يقطع الانتظارَ وساعاته الطّوال صواني الشّاي المطبوخ الأسود الذي يشبه ظلام بعض اللّيالي، يتعالى فوق الرؤوس، يتناوبُ على أخْذه الكبير والصغير، فمَن حضر الليلة من حقّه أن يخدم، وأن يأخذَ واجبَه هكذا هي الأعراف.

ويدور مع ذلك الصّبية الصغار ممّن هزّه الشّوق لأن يحضر الليلة لآخرها متباهيًا بين رفاقه بما يقدّمه من دعمٍ في ليلة فلانٍ بن فلان التي أحيتها أمّ صباح، أمسك الصغار بنراجيلَ ذاتِ خراطيم طوال، أو تلك الصغيرة التي استلّت غابة قصيرة من فوّهة علبة يطلقون عليها الجوزة

يعمّ الدّخان المكانَ، يغالب الضحكات المختلطة التي انطلقتْ من حناجر الجماهير، تزكم روائحُها الأنوف، وتسكر في أحيانَ كثيرة مَن لم يتعوّدها أو مَن كان بينه وبينها حاجز كتحذيرات الأهل بعدم الاقتراب،

غير أنّ الاقتراب منها خلسة في هذه المناسبة لا يضرّ، ولو مِن باب التّجريب وفِي أحايينَ عديدة ما تحشى حموها أوراق البانجو أو لفائف من الأفيون وغيرها، والتي تثقلُ الأدمغة وتجلبُ لمتعاطيها ما يحسّه من بهجة مؤقتة، خاصّة أولئك الصّغار أصحاب الرؤوس الخفيفة والمزاج الضّحل.

إنّه مشهدٌ مألوف في مثل هذه المناسبة تعوده الناسُ منذ زمن، ولكنْ مع قدوم أمّ صباح ولياليها الحِسان لهذه الأشياء طعمٌ مغاير، تظلّ العيون ترقب كلّ قادم وتتلصّص الآذان كلّ هامسٍ لتعرف متى تحضر نجْمتهم صاحبة الطّلّة البهيّة، هل جاءت النجمة؟ لا أحد يعرف.

وعلى جانبي الطريق، وتحت أحدِ الحوائط وضعت طاولات خشبية صغيرة، وإنْ بدت مُتهالكة قليلا، تحوطها كراسي الخيْزران صفّت من فوقها أباريق من النّحاس مُلئتْ بالماء، وبجانبها ألقيت لفائفُ المعسّل تنتظر المدخّنين من ضيوف الليلة، ولا مانع من أطباق مُلئت بالبلح اليابس وحبّات السّوداني.

وعلى مقرُبةٍ من المكان، وقف شابّ أنيق أمرَدُ من أهلِ القرية، يلبس جلبابه الجديد واضعًا كوفيّة حمراء صغيرة، وقد أسدلَ شعرَه مدهونًا، وإنْ لك يكنْ من عادات أهل الرّيف تركُ غطاء الرّأس؛ فالطّاقية شيء أساس وهي من مظاهر الحشمة، على ما يبدو أنّه مِن أقارب العريس المقيمين في البندر جاء خصّيصًا ليحضر عرسَه.

وقد ارتسمتْ على وجهه ابتسامةٌ عريضة وهو يردّد في حفاوة:

- مرحبًا وسهلا.. شرّفتونا، عقبال أولادكم جميعًا.. خطوة عزيزة.

بعضُ هذه الكلمات استقبلَ بها القادمين من بعيد، غرباء دعوا للعُرس، أو من عشّاق أمّ صباح الذين دأبوا تتبّع حفلاتها حبًّا في فنّها وابتهاجًا بما يقضون من أوقات السمر وساعات الأنْس، على ما يبدو أنّهم من قرى قريبةٍ من هنا، يجلس الأغراب في مكان لائقٍ مِن المجلس، تتوالى عليهم واجباتُ الضّيافة من شاي ودخان، وقد انزووا بعيدًا عن مُخالطة غيرهم مبالغةً في الحفاوة والإكرام، ولعلّه المتّبَع بين أهل الريف.

وبينما القومُ في انشغالهم تتطاير الضحكاتُ وتتعالى الصيحاتُ التي ترجّ المكان فلا تسعُها الدروب الضيقة بحيطانها القصيرة وأسطحِها العارية اللّهم إلا من النسوة والبنات الكواعب اللاتي اتّخذنَ مكانهنّ مبكرًا، هذه تلاعبُ ابنها الباكي علّه يسكت أو ينام فتهنأ الفرجة، وتلك تشاغلُ مَن جلس مِن تحتها يرميها بسهام عيونِه التي لا ترتدّ، ويجري بينهما ما تعجز الأفواهُ عن التّصريح به، فالعيون بها ما بها من الفتنة وفِي قدرتها ترجمة ما عجزتِ الأفواه عنه، كلّ هذا يجري في صمتٍ بعيدًا عن الرّقباء الذين كانوا يجوبوا المكانَ من باب الفضول علّهم يجدوا ما يثير الرّيبة، فيعرفوا ما يشفي غليلهم من أخبار العشّاق ونوادرهم في هذه الليلة.

وبينما القومُ في غفلتهم تهدأ الأصواتُ وتخشع جنباتُ المكان فتخيم حالةٌ من الترقب، ينطلق من بعدها ما يدلّ على قدوم النّجمة المنتظرَة.. حالةٌ من التصفيق الحادّ غير المُنقطع، صافراتٌ مُتباينة يطلقها الجميعُ، كبير وصغير، بلا استثناء، حتى مَن لم يتّق إطلاقها استعاضَ عنها بالصّراخ.

لقد حضرت أمّ صباح، حضرت وزّة- هذا اسمها، وذاك لقبها- تشقّ بطلّتها صدور الرّجال قبل أن تمرقَ في المكان مع فرقتِها الموسيقية، والذين كان أغلبهم من العميان بأدواتِهم البسيطة، وجلابيبهم المُتباينة الألوان، فهذه حمراء وتلك صفراء وغيرها كحليّ غامقٌ وهذه خضراء، عندها ينبئ على الفور- وفِي عجل- تابعٌ لها فيلتقط سمّاعة الميكروفون ليجري تجاربه المبدئيّة تأكيدًا منه على أنّ الأمور تجري في أمان قبل أنْ تشرع النّجمة في أداء وصلتها الغنائيّة الأولى.

وكي تستطيع أمّ صباح التقاطَ أنفاسها من عَناء الطريق التي قطعتها من قريتها لحفلها السّاهر، ويجفّ عرقها وتعدّل من زينتها قليلا، فهذه عادةُ النجوم كي تبدو في أبهى زينة أمامَ جمهورها المحِبّ.

وبعدَ تجربة الصّوت والتأكّد من سلامتها يعمَدُ صاحبنا أن يثبتَ حضوره هو الآخر، كونه لا يقلّ أهميةً عن باقي أفراد الفرقة، يطلق كلماتٍ محفوظةً: واحد.. اتنين.. تلاتة.. تجارب..

ولا مانعَ من إبداء بعض الملاحظات على الإضاءة، والتي لم تكنْ سوى فوانيس كبيرة مملوءة بالكيروسين، أو لمْبات صغيرة ومصابيح تعلّق في جنبات المكان مثبّتة بمسامير في الحوائط أو في جذوع نخْلات قريبة، وتطال تعليقاته المكانَ الذي خصّص للنّجمة مشيراً على أهل الليلة تعديلَ بعض جريدات من الجريد الأخضر الذي لفّ مقاعد خشبية طويلة علّقت به بعضُ الأشرطة الورقيّة لزوم الزّينة، وهذا ما سيكون مكان العروسين من غد، أسْماها البعضُ- من باب العادة- كوشة.

يشيع صاحبنا كلّ شيء بعينه مرّة وراءَ مرّة، بعدها يعلنُ عن بدْء الحفل المرتَقَب لنجمة الرّيف الشهيرة أمّ صباح، تتسلّم منه الميكروفون، عندها يتنفّس الحضور الصّعداء، أخيراً أقبلت نجمتُهم بعد أن أتعبَهم طولُ الانتظار.

مشتْ مطربة الحفل بخطواتٍ واثقة ورأسٍ مرفوع توزّع ابتساماتها الساحرة على الجميع، عندها- فقط- خشعتِ الأصواتُ واشرأبّت الأعناق، وطال الصمتُ فغالب ظلمة السّطوح التي امتلأت بالنّسوة، ومِن حولهم صفيرُ حشرات الحقول وعواء الكلاب، شقّت أمّ صباح الصفوفَ تتطلّع إليها في لهفة وشوقٍ عيونُ محبّيها، شيئًا فشيئًا انْسابتْ أصواتُ الناس من محبَسِها لكنّها لم تأتِ دفعة واحدة، بل من جنبات المكان هنا وهناك، انتهز بعضُ المغرمين مرورَها بين الصّفوف المتزاحمة والأجساد المتلاحمة من قبل المغرب بأنْ أسرّ في نفس صديقٍ له بشيء، انطلقت بعضُ ضحكات وتأوّهات ظهرت فيها مشاهد اللّوعة والهيام، وعيونهم تتفرّس المرأة البضّة في مشيتها المتّزنة، كانت طلبات الجمهور المنتظر تتعالى، ومِن خلف أمّ صباح سار رفيقٌ لها من رجال فرقتها يهدّئ القوم، ويعدُهم بأنّ الستّ ستلبّي جميعَ طلباتهم هذا المساء، مِن هناك بجانب حائط قديم متهدّم جاء صوتٌ مُتحشرج، وقف صاحبُه لحظات يسعل، ولكنّه نطقَ في الأخير، قال الرجل: نريدُك أن تغنّي لنا عن العشّاق يا ستّ، عن الحبّ ونيرانه، عن الفراق ومراره.. ما رأيك في دور علبة مر....؟!

وانفلتَ في نوبةِ سعاله، ولكنّه لم يترك لفافة التّبغ التي رجع يمتصّها بنَهَم، تعالت الضّحكاتُ من كلّ مكان حتى مِن النّسوة والصبايا الكواعب اللاتي ركبنَ السّطوح من وسع النهار، جعلت واحدة منهنّ تعقّب

بصوتٍ منخفض، ولكنّه مسموع لأهل السّطح: خيّبك الله مِن رجُل.. انصب طولك الأول.. حبّك كلب لمّا ياكلك.....

أسرع بعضُ الشّباب المتحمّس يصنع للمرأة طريقًا بعد أن تزاحم المكان وتكدّست الجماهيرُ بالممرّ، فلا مجالَ لمرورها، لم تنقطع غمزاتُ الشباب وهمزاتهم التي يختلسونها، والتي تكشفُ عن إعجابهم المُفرط بأمّ صباح. وفِي بعض الأحيان ما يصلها مِن هذا الثناء نصيبٌ موفور، ولكنّها تعوّدت لطول تمرّسها فتقبل من جمهورها ما يشاء إلا أن يخرج الإعجابُ عن حدود الأدب والذّوق العام، وما جرى عليه عرف الريف، عندها تتكشّف شراسة المرأة وشكيمتُها التي تكفل لها حصانةً وهيْبَةً ظلّت تجاهد كي تحافظ عليها، وقد كان...

مشتْ أمّ صباح بين الصفوف كأميرةٍ من أميرات الخيال أو قصص ألفِ ليلة وليلة، بدتِ المرأةُ أكثر شبابًا، جَمالُها يتلألأ في المكان، غطّى بياض وجهها وحمرتُه الطاغية على أنوار المصابيح التي سكرتْ من حُسنها وتقاعس نورها أمام إشراقةِ المرأة وفتنتها.

ارتدتْ ثيابَها الفخمة، ثوبُها الأسود الذي اندسّت فيه زركشة خفيفة غطّته من كلّ مكان لا يراها إلا مَن دقق النّظر وتمعّن عن قرب، وعلى رأسها شاشٌ أسود خفيف، وقد جمعت جملة شعرها فربطتْها وأحكمت حبكتَها بحيث لا يتبدّى منه شيء غير خصلةٍ من شعرها صبغتْها بحُمرة باهتة تتدلّى عن جبينها، تزيد من فتنتها، وتخطف قلوبَ الجموع قبل أن يخطفهم صوتُها بعد قليل. كانت المرأة قصيرة، ربعةً بعضَ الشيء، ولكنّ سمنتَها أضفت عليها جَمالا ورقة، بدتْ بضّة مُكتنزةَ اللّحم، يظهر بياض ذراعيها اللذين بَدَوَا من تحت ثوبها الشّفاف فتنةً للرّائي وحُسنًا يؤلم منظرُه مَن حُرم الجمال ومذاقه.

أمّا عيونها فحدّث ولا حرج، غطّاها الكحل الذي لعبت فيه مراودُه حتى خيّل لمَن يراها أنّ الحُسن يقطر منهما، أو أنّ القمر قد أطلّ من خلالهما روعةً وسحرًا، فينسكب في حُجور القوم الذين أذهلهم، وأخذ بعقولهم روْعُ ما رأوْا، ومَن رأي ليس كمَن سمع...

فتح القومُ حلوقهم في دهشة العجوز قبل الصبي، يسيل لعابُهم فيغرق أذقانَ البعض الذي نسيَ نفسَه، وأفرط على شيبته ووقاره، والبعض

منهم انْتابته هزّة عنيفة من هولِ ما رأى فيها جعل همّه أن يعمدَ إلى رأسه فيفركها فركًا، ويهرش شعرَه هرشًا عنيفًا، ويمدّ يدَه إلى شعر صدْره النّافر من تحت ثيابه المفتوحة، وقد تاه عن الوجود إلا عن فتنتها...

بدتِ المرأة طاغية الحُسن، رائعة المنظر، لا يشوب جمالَها الأخّاذ شائبة، لا ترى فيه عوجًا ولا أمتًا، سلب جَمالُها العقولَ، وسحرَ صوتُها الأسماع، استلذّ القوم هذا العذاب وخالوه ضربًا من التّسرية عن مكبوت صدورهم، فهو يوم كلّ حينٍ وحين، ولا مانع من الخروج عن المألوف؛ فالحياة رتيبة وكئيبة، ولا بدّ من التغلّب على خشونتها.

مشتِ المرأة يهتزّ منها كلّ شيء على سواء، فتزداد حمئة المكانِ وتتعالى صيحات المُحتشدين الذين أضرمت في قلوبهم جذوة الهيام، فلا طاقة أمامهم، ولا صبر على ما تُبديه إلا أن تقطع ذلك بصوتِها ونغماته السّاحرة، غير أنّ ذلك لم يرقْ لبعض النسوة من فوق السطوح، فدبّت الغيرة فيهنّ، وهذا من طبع النساء وعاداتهنّ حتى قيام الساعة، فأطلقت واحدةٌ كلمةً ليسمعها مَن جلس أسفل منها تحت الجدار: لبّس البوصة تبقى عروسة، وهي فيها إيه زيادة!.. إيد واللا رجل، لكنْ دي فراغة عين ودناوة.

لم يتمالكِ السّامع نفسه، وقف ونظر بعينِه أعلى السطح، وقال بصوتٍ عالٍ: يعني هتجيبي الحلاوة الطحينية زيّ خرطة الجبنة القديم؟!

تعالتْ ضحكات القوم، وتعالتْ صيحات النّسوة من فوق اللاتي أبْدين ما أبدينَ من الضّجر والمقت على رجال القرية والمرأة التي أذهبتْ منهم الحكمة والبصيرة.

وصلتْ أمّ صباح إلى مكانها الذي خصّص لها، أحاط به مجموعة من الشباب القوي الذي كلّف بردّ مَن تسوّل له نفسه أن يقتربَ منها أو مضايقتها هي ورجالها من العازفين، تطاير عطرُ أمّ صباح في المكان، وعمّ أريجُه كلّ أنف، فزاد من سُعار القوم الذين أقبلوا عليها، وعيونهم تأكل كلّ شبرٍ منها، فهُم لم يعتادوا مثلَ هذا الروائح من قبل، ولَم يكنْ لنسائهم نصيبٌ منها، فلم يكنْ في المكان سواها وعطرُها الذي غطّى على رائحة عرقهم المُنبعثة من أجسادهم بفعل التّزاحم.

وقبْل البداية، طلبت الفرقة الموسيقية من أهل العريس أن يشدّدوا على الجمهور الجلوسَ في أماكنهم والتزام الهدوء، كي تبدأ السيدة وصلتَها الأولى، بعدها ستلبّي جميع طلباتهم وتغنّي لهم من أغانيها المحبّبة ما شاءوا.

لكنّ القوم لم يبالوا بنداءات المهدّئين الذين ذهبت كلماتهم سدًى، ولَم تفلح فيها التوسّلات، انشغلَ القوم بأحاديثهم التي لا تنقطعُ عن المرأة وحلاوتِها وجَمالها المبالغ، فهمساتهم لا تخرج عن هذا، يقول قائلٌ لمَن حوله في جرأة وسذاجة: دي كأنّها بتّ بنوت، مش هتكبر خالص... جَمال وحلاوة، هههههه.

تتقاذف الضّحكات التي لا مبرّر لها اللّهم إلا سماجة البادي بها الذي على ما يبدو أنه موسومٌ بالظّرف وخفّة الظّل بين أقرانه، بما يلقيه من كلمات، ويتمايل به من ضحكات خبيثة تترصّد مَن حوله، تأخذ أمّ صباح مكانَها في النهاية، تقف للحظات حتى تتأكّد بأن فرقتها الموسيقية قد أخذت مكانَها، وأنّهم على أهبة الاستعداد مع ما يتمّ الاتفاق عليه من وصلات الطّرب المعتادة سواءً من الفتحة أو الخاتِمة كما جرى العرفُ في الأعراس.

شرعتْ تجرّب السّماعة التي استندتْ أمامها على رافعةٍ قصيرة من الحديد ضبطها رجلٌ من الجُمهور لتناسب طولَها، وتدريجيًّا بدأت أصواتُ الجمهور الهائج تحتفي مع نظراتها الصّامتة التي تُجيلها في جنبات المكان، حتى أسطح المنازل لم تسلمْ من سهامها الفتّاكة، ساد السكوتُ أو كاد، وبدأ يلفّ الناس حالة من الترقّب والإطراق، أمّا ما بعد ذلك فمتروكٌ لها هي مَن ستتلاعب بهم كما تشاء، فزمامُ الأمر وقيادُه بيدها وحدها، أمّا مسألة النّظام فهي وقتٌ لا أكثر، فالقوم لم يتعوّدوا مثل هذه الحفلات المنظّمة، فغالبًا ما تكون أسْمارهم ذاتَ فوضى، ولعلّ أمّ صباح تعرفُ جيدًا كيف تتعامل مع مثلِ هؤلاء، فخبرتُها الطويلة التي اكتسبتْها من والدتها هي مَن أعطتها القدرة على فرض نفسها ومعرفة الحالة المِزاجية للسّمّيعة، وهي يومًا ما ستورّثها ابنتها، وهكذا إلى نهاية العمر....

لم يكنْ ليستعصي عليها بعضُ نَفَرٍ من الفلاحين المشاغبين، كلا وألفُ كلا.. وهي مَن هي، هي التي اهتزّت لها الشوارب الثّقال، وارتمى مِن تحت أرجلها أبناءُ الدّوات وعِلْية القوم بعد أن تمنّوا نظرةً من عيونها، أو كلمة من شفاها، أو حتى ابتسامة تحيي بها أرواحهم، كم ماتَ قتيلُ الهوى من فرط حبّه لها، كم لاحقها أفنديّات البندر من كبار الموظّفين، وأصحاب الأبعديّات والأطيان والعمارات والمراكز، ولكنّهم تاهوا ولَم يصلوا، وبقيت هي كما هي شامخةً شموخَ النّخيل، قويةً قوةَ السّواقي التي لا يجور عليها زمن.

علاوةً على ذلك فللمرأةِ حضورٌ قوي وصوتٌ دافئ عذبٌ رقراق، وذكاءٌ مفرط وذاكرةٌ من حديد، لا تنسى أدقّ التفاصيل وإنْ صغرت، ولا الأشخاص وإن بعدتْ بينهم المسافات.

سكتتْ أمّ صباح، ولكنّها هوّنت على مشاهديها، فعدلت غطاءَ رأسها الشّفاف، وتناولت من مساعدٍ لها منديلَها الأحمر المنقوش المعطّر، والذي تمسكه طوالَ الحفل، تجفّف به عرقها، وهو في الأخير سيكون من نصيبِ مَن تبسّم له الحظّ، ورضيتْ عنه أمّ صباح فقبل الختام تقذفه به بلا مقدّمات، علامةً لرضاها وتحميسًا لبقية الشباب عندما يعلن عن حفلتِها القادمة موعدها ومكانها، فيظلّ هؤلاء يمنّون أنفسهم بتلك الليلة الموعودة علّهم يظفروا بمنديلها.

وفجأة، يقطع الصمتَ المطبق أصواتُ بعض الشباب من جنبات المكان، مُهرولين يشقّون الصفوف ويتخطّون الجموع التي أخذت أماكنَها من مدّة، على ما يبدو من عجلتهم أنّهم تأخّروا، وها هم قد لحقوا بالسّامر قبل أن يبدأ، تحيّيهم أمّ صباح تحيتَها المُقتضبة المهذّبة التي تهوّن عليهم مشاقّ الطريق: حمدًا لله ع السّلامة يا حبايب.. لسّه بدري، ارتاحوا...

هنا، يتعالى التّصفيق من جنبات المكان، وتنطلق الزغاريدُ من أسطح المنازل إيذانًا ببدء الحفل..

تبدأ أمّ صباح تطلقُ آهاتِ العشّاق، وتتغزّل في ليل العاشقين، ونجوم المحبّين التي ترقب من فوق أوجاع الحبّ وتباريح الغرام، وشكوى مَن عذّبه السّهاد، وجافاه حبيبُه، وحرمه الهناءَ بقربه...

تتصاعد كلماتٌ ترد عليها وقد اكتوى صاحبُها بنار الحبّ على ما يبدو، والمرأة تتضاحك، وصوتُها يملأ جنبات المكان متسلّلا من الميكروفون الذي اعتلى نخلة قريبة من الحفل، عندها تدرك أمّ صباح أنّ جمهورها قد تهيّئ لأن يَستقبل أولى وصَلاتها الغنائية، ولا مشاكل مع المشاغبين؛ فقد تمّت السيطرة عليهم بهذه الجرعات العاطفية التي هدأت جماحَ ثورتهم.

وبعد قليل، ينبري من وراء الحشود أحدُهم وهو يشقّ الزّحام يلوح بيده بورقةٍ خضراء من العملة جديدة يهزّها في الهواء، وكأنّه أحضرها خصيصًا لأمّ صباح، تتوالى هزّات يدِه، وتتهادى أصواتُ الورقة التي تشبه رفرفة أجنحة الطير، تحدق العيون تجاه هذا الشّخص القادم، تلوك الألسن جرأته وتبذيرَه، وكذا سخاوة يدِه التي دفعته لهذا المنْحى، وقد انْزعج بعضُ الشباب من تصرّفه هذا، فهي بداية حربٍ بينهم قد تأتي على ما في جيوبهم قبل تمام الليلة. وقف أحدُهم، وقال بصوتٍ عال: لسّه بدري ع الكلام دا.. ليلك طويل وخالك بايت.

تعود ضحكاتُ القوم من جديد، وأمّ صباح تترقب القادم وهي تشيّعه بسهام عيونها التي لا تخطئ أبدًا قاصدَها، خاصّة إذا كان يحمل بين يديه النقطة التي تعمر الجيوب وتجبر الخاطرَ في آخر الليلة.

يندفع شابٌّ صغير حتى يصلَ بجوار أمّ صباح، وهو يمسك بيده ورقة خضراء مماثلة من فئة الرُّبع جنيه، وعينُه تقطر تحديًا لصاحبه، غير أنّه ظلّ يعلّقها بعيون المرأة وهو يقترب منها محاولا أن يهمس في أذنها لولا بعضُ نَقرٍ من أهل العريس يطلبون منه التزام الهدوء والعودة بسلامٍ حيث كان وألا يضايق النجمة، يعود صاحبنا وهو يمنّي نفسَه بكرّة ثانية، غير أنّ صيحات الشّامتين تلاحقه: فنْجَري من يومك يا واد...

وثانٍ يردّ بتجهّم: الفقر له ناس، إنت لاقي تاكل يا متعوس، الله يرحم أبوك..

غير أنّ صاحبنا لا يزال في نشْوته، فلا يكترث إطلاقًا بكلامهم ولا تقريعهم، فعيون أمّ صباح أسكرته، وعطرُها سلبَ البقية الباقية من عقله..

البعضُ يشمت، والبعض يثني على إقدامه؛ كونُه استطاع إيقاف الغريب الذي جاء ليتحدّى أهلَ القرية في عُقر دارهم ويتجرّأ فيزايد عليهم بنقطتِه.

تواصل أمّ صباح الغناءَ والطربَ والصّهللة....

توالتِ النُّقطة عليها وهي بيْن ذلك وذاك تستدعي المتهوّرين بنظراتها المسلّطة بعناية، وكلماتها النّاعمة التي تثير في قلوب الضّعفاء ما تثيره، وتنسج في قلوب مَن ذاق الحبّ ولوّعه غلالة رقيقة من الوجْد الذي يدفعه كي لا يسكت هذا الصوت الذي جاء نجدة ينفس به عن تباريحَ كاد كتمانُها يقضي عليه، حتى أولئك البخلاء الذين حرصوا في هذه الليلة على جيوبهم، واكتفوا من حضورهم بالضّحكات السّاخرة من أصدقائهم المتهوّرين، أو النظرات المفترسة التي تجوب جسمَ المرأة السّاخن من أمامهم، فتشعل في وجدانِهم المحروم وغرائزهم المكبوتةِ شيئًا جميلا يحسّونه كلّ مرّة تأتي فيها، يجدوا فيها كمالا أنثويًّا غريبًا لا يجدونه في نسائهم اللاتي لا يعرفنَ للزّينة سبيلا، ولا لما يجلب قلوب الرجال وصلا، فهُم إخوتُهم الأوفياء الذين كتب الزمن أنْ يكن زوجاتهم وأمّهات أبنائهم، ولولا الحشمة والحياء ومِن ورائهم الفقر؛ لكانَ في الأمر مَن يفجّر في هؤلاء القوم نيرانًا تلتهمُ الأخضر واليابس.

يجرّ أحدهم طوعًا من بين الصفوف، وهو يخرج نقودَه من جيبه الذي أغلقه بإحكامٍ شديد، يخرج القرشَ من مخبئه وهو يسبّح بحمْد ربه أنْ أخرجه من محبسه كما أخرج يوسف من سجنه ووقاه فتنة زوجة العزيز.

يمشي مسلوبَ الإرادة إلا من إرادةٍ واحدة تستولي عليه، إنّها إرادة أمّ صباح وفتنة أمّ صباح وعيون أمّ صباح التي استدعته فلبّى النداء بلا تلكّؤ ولا فتور، هل لفتنة مَراودِ الكُحل التي خطّت على عيونها الواسعة ما خطّته من سواد تداخل مع بياض عينها المتّسع، وكأنّه الصبح الجديد الذي يشقّ حُجُب الليل البهيم فينشر سحرَه وجَماله على الكون،

أمْ صوتها الدافئ العذب الذي لم يخلُ من همساتٍ تشبه تلك التي تدغدغ المشاعر وتحطّم أقفال القلوب فتطلق أسيرَها فرحًا مُنتشيًا بحريّته.

أمْ جسدها الفائر الذي ينضحُ بالبياض ومخايل أدّرعها البيض التي شابتها حمرةٌ تحاكي حمرةَ وجهها هي مَن أتت به، ربّما عطرُ السّيدة الذي انْتشى منه الجالسُ والقائم ومَن يحبو على الأرض الذي تتبع أريجه بأنفٍ جهلت معناه من فرط المأساة.

كانت المرأةُ في قمّة ذكائها أن استبقت بجانبها شابًّا من شباب القرية يلازمُها وصلاتِ طربها، عمدتْ إليه أن يهمس بخفّة بأسماء القادمين من بعيد، وكأنّها تعرف هويّته، يا لها من ماكرةٍ تستبدّ في انتزاع القروش من الجيوب مهْما كان حرصُ صاحبها وبخلُه، ففي الأخير لا مهربَ منها ولا مفرّ، ناهيك عن نداءاتها المُتتالية، وبلا سببٍ لأناس بعينهم، جعل كلّ مَن ذكرته يشعرُ بسعادة تغمره ليتحسّس جيبه في النهايةِ خلسةً ينتهز الفرصة كي يدلي بنقطته، وتستقرّ أخيرًا في كفّ أمّ صباح الذي لن يشبعَ حتى تخلو جيوبُ القوم من نقودها ويعودوا لبيوتهم بدلا عنها بابتساماتٍ ونظراتٍ وأحرف لأسمائهم مقطّعة، هذا ما يريدون لا أكثر؛ فهنيئًا لهم.

وفي جلبةِ المكان وضوضاءِ القلوب التي تراقصت من حول أمّ صباح، انْبرى شابٌّ من بيْن المقاعد، شوهد يقتربُ خطواتٍ حائرة تعقبها نظراتٌ متردّدة خائفة، كان المتهوّر قد خلع نعليْه ووضعهما تحت إبطِه، وأمسك طرفَ ثوبه بين أسنانه، والعرق يتصبّب من جبينِه المُصمت، وشاربُه تهتزّ شعراته كلّما اهتزّت عروق جسدِه بالنبض، غير أنّ يده قد أمسكتْ بورقةٍ من النقود، ترك نعليْه ليلبسهما عند اقترابه من مكان أمّ صباح، وعمد إلى ملفحتِه الحريريّة يلوح بها في الهواء محيّيًا الحشود، كانت أمّ صباح كلّما رأت إقباله عليها وتفانيه في إظهار فرحِه بهذه الخطوات التي يقتربُ بها منها، زادت في رقّة صوتِها وهي تردّد في أنوثةٍ منقطعة للنّظير وتغنّج فجّ، وتمايل أطربَ الجلوس، وطار بعقولهم فتعالى النّصفيق، وتوالى الهتافُ من هنا وهناك، والمرأة لا تكفّ عن ميوعتها التي على ما يبدو أنّها استأثرت بعقولِ هؤلاء المحرومين، تقطع أسماء الحضور حرفًا حرفًا، وهذه هي صنعتُها المُتقنة وتجارتها التي تدرّ عليها غلّة جيوب عشاق الطرب

والأنس، تواصل أمّ صباح كلامها المُبْهج، وتتصاعد من حولها طرقات أرجلِ مَن لعب الجنونُ برأسه حالَ ذكرت اسمه، وهكذا بين الحين والحين..

طلبت أمّ صباح من فرقتها مواصلة العزف بعد أن قبضت بيدِها على نقود ذلك المستهتر الهائم، الذي جعل يتمايل ميْلة السكران، قانعًا مطمئنًّا بما أقدم عليه راضيًا بسخاء يدِه، فعيونُ أمّ صباح تستحقّ أن يبذل المرءُ روحَه لأجلها وليست أوراق عملة.

على ما يبدو من النّظرات التي تبادلتها المرأةُ مع الرّاقص المحبّ، أنّ ثمّة سابق معرفة بينهما، فهي لا تكفّ عن همْزه بيدها في صدره وكتفِه، وهو في كلّ مرّة ينشط فيها فيجِدُّ في رقصِه وقد ألقى بنعليه، وملفحته ربطها من حول خصره النّحيل، وأمسك عصًا بيده وجعل يهزّ نفسَه هزّات يتلوّى معها كالثّعابين، والمرأة تنظر إليه بإعجابٍ شديد، تتعالى الأنغامُ تشقّ صمتَ الحضور الذين سكتوا في انْبهار لما رأوْا من ابن بلدهم، وبين الحين والحين تشير أو تهمز أو تتكلّم طالبةً من الفرقة مواصلة العزف والتقسيم على نغمات راقصة، وقد تنحّت جانبًا، وتركتْ للشاب الفرصة كاملة، والمكانَ ليبدي أمامَ السّامر ما يُبدي من مهارةٍ وفنّ، وبين الحين والحين تقترب منه هامسةً في أذنه أو يقترب منها يحدقُ صامتًا في عينها، وكأنّ خيطًا رفيعًا يربط ما بينه وبين أهْدابها الطوال، فلا تفارق عيْنه عينيها، وبين حركاته وحركاتها تضجّ السّاعة والشوارع والسطوح بالهتاف بين حاسدٍ يرى مِن ميله ميوعةً وتجاوزًا لا يحقّ، وبين مَن منّى نفسَه أكون يحالفه الحظّ فيكون في مكانه يومًا من الأيام، على ما يبدو أنّ صاحبنا كان من عشّاق المرأة الذين لحقوا لحفلاتِها مبكّرًا، وتعلّق بفنّها وجَمالها، فهو يتبعها في كلّ محفلٍ يجوب من ورائها القرى ويقطع المسافاتِ بين حقول الذّرة أو مزارع القصب في ليلٍ ونهار ليحضر لا يفوت ليلة من لياليها، علاوةً على ما تمتّع به مِن جرأة أكسبتْه هذه الحظوة من نجمة الجماهير، ها هي أمّ صباح ترجّ المكان بضحكاتها المُتتالية العالية العذبة، وقد بدتْ أسنانُها البيضاء من تحت ثغرها الوردي الذي تشبه شفاهه خدودَ الورد البلدي، فتضيء في قلوب العاشقين قناديلَ الأمل في وصلٍ قريب، وتلامس جروح العاشقين فتكون بردًا وسلامًا.

غير أنّ الرّاقص من أمامها قد حظي بحظٍّ وافرٍ من اهتمامها وعنايتها على ما يبدو، كانت المرأة في قمّة ذكائها، فجعلت تستثمرُ هذا الخبل الذي ساد عقول القوم وإعجابهم الذي شاهدته في نظرات عيونهم التي فاضت باللّهفة والغليان، فالكلّ يريد وصالها بأيّ ثمنٍ حتى ولو باع ثوبَه في هذه الليلة، المهمّ القربُ منها، تتدفّق النقطة إليها قرشًا بعد قرش، الكلّ أكل عقله دلالها ولفتات عينها المرسلة في كلّ مكان، تجوب خبايا جيوبهم تبحثُ عمّا فيها، وكذا عقولها توزّها أزًّا، فترجع الشيخ إلى صباه والحياة إلى البائس المُنقطع.

وهلْ في كلماتها التي تُلقيها بين الحين والحين هوادةٌ على هؤلاء البسطاء، فهي تتقعّر وتتمايل وتتسنّد وتتأوّه، فتراها وقد خصّت شابًّا الرّاقص بجُملها التي تشعل مَن حولها: بالرّاحة على نفسك يا واد يا خلف.. خدْ نفسَك شوية يا حبّة عيني..

خلقتْ بجَمالها حمًّى وفورانًا بين المتصارعين لنيْل ودادِها كصاحبهم، والمرأة لا تكفّ عن تسلّطها عليهم وكأنّها اطّلعت عَلى سرائر نفوسهم ..

جلسَ الصغار كعادتهم يجوسوا المكانَ بأريحية مطلقة، وهي عادةُ الصغار في مثل هذه المشاهد، ممّن لم يبلغ العاشرة، يتابعون هذا الوصلَ عن قرب، عيونهم ترصدُ الهيام النّاشئ بين الجموع التي لعبت بعقولها الكلمات، واستولى المنطقُ المعسول عليها، فهي أشبَهُ بالسّكْرى، فترى الواحدَ مِن هؤلاء لا يبالي بالعواقب وهو الحريصُ الشّحيح، فكلّ ما يعنيه ويهمّه عيونُ المرأة التي أصبحت مادّةَ أحاديثهم الجانبية فيما بينهم، وقد امتلأت قلوبُهم بالحسرة، ونظراتُهم تجاه الجالسات من نساء القرية فوق السطح أو المتسمّرات من بعيدٍ بجانب الدّروب في الظّلام بالحنق والغيظ، وكأنّ لسانَ حالهم يقول: هذه هي النّساء ولا.. أمّا أنتنّ فلنا الله معكنّ.. ما أقبح الحياة معكم، فقد غلّفته الدّمامة.

همستِ المرأة في أذن الشابّ الرّاقص وكأنّها تبقيه ليواصل رقصَه، كانت هذه البادرة أشبهَ بالمصيدة التي تخرج بها دفائن الجيوب والطّعم الذي تغري به الطريدة.. وقد كان، ظلّ صاحبنا يرقص ويتمايل، وبين

الحين والحين تقتربُ منه، فتمرّر منديلَها الأحمر الحريريّ فوق جبهته التي نضحتْ بالعرق، فيتعالى الصفير ويشتدّ التصفيق وتشرئبّ الأعناقُ في حسرة وحسدٍ وغيظ مِن أفعال المرأة ومياعَةِ الرّاقص، وبين حين وحين يتمايل المتلوّي فيتسنّد بجسده يحكّ جسدَ المرأة مرّة، ويلامس بصدره صدرَها النّاهد الكبير، الذي غطّته بشالها الرّقيق الأخضر كاشفًا عن بياض ذراعيها وحمرتِهما الطّاغية مِن تحته، وقد انبعثَ عطرها الذي لم ينقطع مسّه في المكان ليغالب ما طفحَ من أجساد هؤلاء المعذّبين من عرق.

وعلى مقرُبةٍ من المكان، اندفع أحدُهم في سذاجةِ القروي وفطرتِه المتغلّبة، فقال بصوتٍ عال مسموع: أدفعْ نصّ عمري يا أمّ صباح.. يا دين النّبي!

تعالتِ الضّحكات الساخرة مِن حوله، وامتدّت الأيادي بالضّرب على كتفيه العريضين ممّن جاوره، وانهالتْ عليه عباراتُ التّوبيخ والتقريع واللّوم والاحتقار من البعض الذي رأى في كلامه تجاوزًا لا يليق بفقيرٍ مثله، فقال له أحدهم: حلم الجعان عيش...

لم تكنِ المرأة بالمغفّلة إطلاقًا، ولكنّها كانت من الذكاء بحيث تضعُ لمعْجَبيها وما يصدر عنْهم من تصرّفات أثناءَ الحفل حدًّا لا يتجاوزونه، فهي تعرف بحرفيّة متى تشدّ ومتى تُرخي الزّمام، وفي الغالب لا ينفلتُ من يدِها فهي خبيرةٌ بهؤلاء القرويّين السّذج، غير أنّ مِن مستلزمات الأعراس ومثل هذا الليالي أنْ تفيض على محبّيها ببعض التدليل والدّلع ولكنْ بحساب، علاوةً على أنّ هذه هي بضاعتُها التي تستولي بها على حصيلة جيوبِهم، فما أكثرَ الكلام وأرخصَه، هذا هو شعارُها مع الحياة.

إلا أنّ الحفل لا يخلو من تجاوز البعض الذي يعتقدُ في المرأة التّساهل والبلاهة، غير أنّ الواقعَ عكس ما يعتقدوا، وقد يحدثُ أنْ يتجاوز بعضُهم الحدّ، ويرى فيما توزّعه هي مِن نظراتٍ وابتسامات وكلماتٍ رقيقة ما يثير في نفسه نوازعَ الغيرة، أو يدفعه لأنْ يقترف حماقةً بعينها، معتبرًا ما توزّعه المرأة بضاعةً مُسجاة يحقّ للجميع أن تعترفوا منها، فخبرةُ المرأة تمكّنها من كشْف هذا بسهولة حين يبالغ البعضُ منهم في رقصاته التي يتخلّلها حركات مُبتذلة، فيعمدُ أحيانًا في

غفلة الرّقباء محاولا تقبيلها أو ملامسة يدِها أو يلفّ ذراعه حولَ خصرها، أو يضع يدَه على كتفها، وقد يهمس في أذنها بكلمات الحبّ والغرام، أو بعبارات الإعجاب.

عندها تتعالى أصواتُ الجميع بالسّخط واللّوم على هذا الابتذال والجرأة التي فاقت حدّ الأدب، والبعضُ منهم يستحسن ما أقدمَ عليه معتبرًا إيّاها فرصةً قلّ أن يجود بها الزمان خاصّة مع واحدةٍ كأمّ صباح معشوقةِ الكبير والصغير منهم.

لاحظ القومُ عن قربٍ ما يقوم به صاحبُهم من استفزاز، وأدرك البعض أنّ من الحكمة التدخلَ؛ فقد آنَ الأوان أن يقف هذا عند حدّه، يقول قائلهم: ارجعْ يا قليل الحيا، يا معدوم الخِشا، إنتَ زوّدتها قوي..

ولكن أمّ صباح على النقيض من ذلك كلّه، فها هي تواصل ما انقطع، وتمدّ ما امتنع، فلا تتوقف حركتها يمنةً ويسْرة بين الصفوف، وقد أرختْ من السلك الموصول بالسمّاعة ما يكفي كي تتجوّل بأريحيّة، فقد حان الوقت كي تكون بينَ جمهورها، علّها تستطيع لم تهدأ من ثورة هذا الرّاقص المستفز بالابتعاد عنه قدْر الإمكان، فالحكمة تقضي بذلك، وترى من ذلك التصرّف أمرًا لا مردّ له، وقدرًا لا مَهْرب منه طالما كانت لقمة عيشها تستدعيها بأنْ تكون في هذا المكان، فهي وريثة أمّها التي وعتْ على الدنيا فوجدت أهلَها يجوبون البلاد طولا وعرضًا، مهنتُهم الطرب والمغّنى وإمتاع السّمّيعة، ولا مانع من السفر لحضور الموالد التي تُقام بين حينٍ وحين في بلدٍ ما من البلاد، زوّجتها أمّها من ابن أختها الذي يكبُرها بعشرين سنة، فلم تشعرْ معه بمثل ما تشعر به الفتاة مع حبيبها، فحياتُهم عمل، ونومُهم للعمل، وسفرُهم للعمل، وحتى زواجها منه كان لأجْل العمل، خافتْ عليها أمّها عندما اقترب أجلُها غدْرَ الزّمان كما قالت لها، وزوّجتها منه على الفوْر، فهي في عصمةِ ابن خالتها إذًا هي في مأمن...

لم يغبِ الصغارُ عن المشهد بتاتًا، كانوا مندسّين يجوسون بين الأرجل وأسفل المقاعد والدّكك، وحتى تحت الأدوات الموسيقية التي نصبتِ الفرقة لها تختًا عاليًا كي تظهر من فوقِه تُشرف على الحشود التي مُلئ بها المكان..

وأغرى البعضَ شيطانُه فزحف كدودِ الأرض حتى وصل لمكانٍ قريب من قدم أمّ صباح نفسِها، لمّ لا يكون به نصيبٌ من الفرجة والتمتّع بالنظر إلى جَمالها ومحاسن جسدها، وإنْ جهل ما تعنيه كلمة مفاتن، وإن لم يشعر بما يشعرُ به الكبار من رغبةٍ وتلهّف تجاه الأنثى، والبعضُ من الصغار جنحَ إلى السلم، وإنْ كان في نيّته غيرُ ذلك، فها هو يقفز من مكانٍ لمكان بين المقاعد، أو تحت الأقدام، أو يتظاهر بالمُساندة فيملأ كوبًا من الماء أو يحمل الجمرَ الذي أعدّ للنّرجيلة وقد يجدُ من نفسه الفرصةَ فيُسرع بأقصى ما عنده، كي يلتصقَ بمكانٍ قريب من أمّ صباح أو فرقتها، أو حتى يختبئ من خلف مجلسهم فهي غايةٌ ما يتمنّى، إلا أنّ عصا طويلةٌ ورخوة تكون له بالمرصاد، فها هي تنهال عليه بلا رحمةٍ تلدغ جسدَه من كلّ جانب كي توقفَه عند حدّه، فمنهم مَن يستسلم طلبًا للنجاة منها، ومنهم مَن يجد في عزمِه ما يمكنه من الاستمرار في سيْره وتحمّل لسْعات العصا وعبارات تنطلق بالسّباب والشّتم في أحيان كثيرة، وهذا حالُ الصغار جميعًا الذين أعدّوا أنفسهم تمامًا كما أعدّ الكبار ما أعدّوه، فلبس الجلبابِ النظيف من ضروريّات الليلة، ولا مانعَ من امتلاء جيوبها الطوال بحبّات من البلح المحمّص، وكذا الفول السّوداني، ولبّ عبّاد الشمس...

لا ينقطع الرّقصُ أبدًا من المكان، حتى النّسوة على السّطوح لهنّ نصيب وافرٌ منه، وإن كان في غفلةٍ من الرجال وخلوةٍ في ظلام الليل الممتدّ من فوقهم، حتى الصغار وجدوا مكانَهم للرقص بعيدًا عن السّامر، وهكذا كلّ مَن يصلُه نغمات موسيقى أمّ صباح فهو راقصٌ لا يستطيع أن يسيطر على نفسه، ومشاعرُه المندفعة تجيب داعي الطرب ...

يصعدُ "خلف" ثانيةً للرقص مع أمّ صباح، فقد أشارت إليه بعد أن استراح قليلا وجفّف عرقه وهدأتْ أنفاسه، يعود فتعودُ معه غيرةُ حسّادٍ أفزعهم ما بينَه وبين المرأة من تجاوبٍ وتآلف، تظهر هذه المشاعر في كلماتِهم التي انْسابت عفويّة من البعض، حتى تصل في أحيان إلى الانتقاص من حقّهما، وأنّ المرأة قد جنّت أو أصابها الخَرَف، أو أنها تعتقدُ فيه الغنى والمال، معتبرةً إيّاه صيدًا سهلا، لكنّ بعض الحكماء فضّل الصمت لمَا رأى ما بين "خلف" والمرأة من قابليةٍ تنبئ عن سابق معرفة، فما ضرّه بما بينهما من علاقة! فما

يعنيهم هو الانبساطُ والمرح ومجاملة العريس وأهله بعدها تنقضي الليلة كما سبقها من ليالٍ.

يصعد "خلف" فيبدأ في رقصِه يتلوّى مرّة، يزيد حماسة لمَا يتعالى من تصفيق فريقٍ من أصدقائه الذين رأوْا في قربه من أمّ صباح مبعث الفخر والاعتزاز، فهو في الأخير صديقهم وما يهمّه يهمّهم، وهذا يزيدُ- بالطبع- من مكانتهم بين أقرانهم من شباب القرية أنْ برَعَ فيهم مَن يستحقّ المصاحبة.

حزّم "خلف" خصره بملفحةٍ رفيعة، تمايلَ وقفز واستدار واعتدل ومشى وعاد، يجوسُ بين الصفوف وقد أوسعوا له المدارَ كي يتابع رقصَه بأريحية، لكنّه يعود ثانية إلى أمّ صباح يحدقُ عينه بعينها، يقترب منها.. يدورُ مِن حولها، والمرأة راضية مستسلمة تخصّه بضحكاتها الرنّانة، ويستمرّ الوضع على ما هو عليه، فيشتدّ الرقص حمأة، ويقترب "خلف" ليمسّ بيده خصلة شعرها التي انسدلتْ لنعومتها مِن على رقبتها، فتقابل أمّ صباح ذلك كلّه بما يدفع البعض لحدّ الجنون: بالرّاحة.. على مهلك يا واد يا "خلف"؛ الليل طويل...

ولكنّ صاحبنا على ما يبدو منه قد أسْكَره الهوى، وفعلت فيه كلمات أمّ صباح ما فعلت، غير أنّ فعله ودلالَ المرأة لم يقابَل بالرضا التّام من الجميع؛ فهناك في أعلى السطوح حشدٌ ليس بالقليل قد أثاره هذا الدّلالُ السّمج وتلك الحركاتُ التي فسّرت بأنها خروجٌ صارخٌ عن السّياق، نسوة تفاوتت أعمارهنّ ولكنهنّ اجتمعنَ على شيء واحد ربما الغيرة من أمّ صباح وجَمالها وحسنِها، تنظر الواحدةُ لحالها من الشّقاء ومكانها من النّصب الذي أفقدَها بريقَ الأنثى، وحوّل قلبَ زوجها عنها فهو يعاملها معاملة أمتعةِ البيت التي تفي بالغرض وقتَ الحاجة، ثمّ تترك مهملةً في زوايا البيت، لا يتذكّرها إلا حين يسمح الوقت ويحينُ الأجل.

أمّا أمّ صباح، فهي- وإنْ كبرَ سنُّها وتقادمَ عمرُها- لا تزال تتربّع على عروش قلوب محبّيها جَمالا يأخذ العقول ورشاقةً وليونةً جعلت منها أنثى لكلّ عصر، وفتاة أحلام الكبير والصغير ومهْوَى عيونهم، وعيونُها مسرى أرواحهم العطشى من صدأ الأيّام والفقر.

هناك على بُعد خطواتٍ من السّامر وقفْنَ مُنزويات على جانب الدّرب، جرّت حلاوة الفرجة والمشاهدة أولئك البائساتِ فها هنّ يقفن لساعاتٍ وساعات، يتسلّيْن على مرارة الحياة وفقْد مُتَعِها، وحتى من حرمان معسولِ الكلام الذي كان يومًا ما سلعة الحبيب، وعربونَ صداقة الغريب.

حملت كلٌّ واحدةٍ ابنَها الصغير من فوق كتفها لتتظاهر من وراء ذلك بفرْجة الصغير، ولكنّها ما خرجت إلا لحاجةٍ في نفسها...

وقفنَ في الظلام، فبدتْ أشباحُهنّ كرؤوس النّخل الخاوية، حملت كلٌّ واحدةٍ الهَمّ والغمّ والكآبة معها علّها تلقي بها بعيدًا عن جدرانها..

تتزايد الهَمَسات، وتتعالى الغمغمة مع كلّ حركةٍ لا تروق لهنّ وإن استحسنها الرجال، فالغيرةُ من أمّ صباح لم تتركْ لهنّ مساحة كافية لمتعة المشاهدة أو التسرّي بهذه الليلة وما فيها من غناءٍ وطرَبٍ ولعب وبحْبَحة..

فحركاتُ الرّاقص تجلب معها سخطهنّ المتزايد..غالبًا ما يعقبُها التوبيخ: يخيّبك يادي الجدع.. شوفي يآختي المرَة القادرة وعمايلها.. يحشّ طالعك حَشّ...

ينصب السّامر الليلَ بطوله بين رقصٍ وحنجلة وتحطيبٍ على أنغام وتقسيمات فرقة أمّ صباح البارعة، وكذا ما تغنّيه هي بناءً على رغبة الجمهور الذي رأى كلٌّ واحدٍ منه أنّ المرأة تُغنّيه هو، هوَ فقط...

يظلّ القوم هكذا حتى السّاعات الأولَ من نهار اليوم التالي، في نشوةٍ وهيام وسكْرة ومُدام، فهذه عادةُ أهل الريف، وتلك كانت خصيصةً ميّزت حفلات أمّ صباح دون سواها؛ فللمرأة جمهورُها المتعطّش لفنّها المفتون بجَمالها، ومن حقّه أن يظفر بالمتعة.

ولكنّها النهاية التي لا بدّ منها، ها هي أمّ صباح تؤدّي وصلتها الأخيرة بعد أن تأكّدت بحَدسِها وفطنتِها أنّ جيوب هؤلاء السّدّج قد فرغت، وأنّ رقصاتهم التي يسبقونها بنُقْطتهم أتتْ عليها، عندها تتركهم أمّ صباح، تحيي الفرحَ والعريس وأهلها والجمهور الذي حضرَ كبيرًا وصغيرًا الذين شرفوا بحضورهم الليلة، متمنّية للعروسين الذرّية الصّالحة من

البنات والبنين، راجيةً ممّن لم يتزوّج أن يلحق بهما قبل فوات الأوان ويسعد من الدنيا بقُرْبِ الحبيب، تزفّ في الختام لمحبّيها ومتابعي طربها ومَن أتوا من خلفها أنّ ليلتها القادمة ستكون عند فلان بن فلان في العزبة الفلانيّة، والدعوة عامّة والحاضر يبلّغ الغائب.

تستبشر وجوهُ القوم بهذا النّبأ السّار الذي يصلها بجمهورها عمّا قريب، عندها تتعالى الصّيحات ويعمّ الصّفير..

وتتوقف المعازف، وتبدأ الفرقة لملمة عدّتهم، ثمّ تنزوي أمّ صباح جانبًا تتقاضى ما اتّفق عليه من أجرةٍ مع أصحاب الفرح، يبالغ القومُ في إكرامِها طمعًا في حضورها ثانية عند الطّلب.

يجري كلُّ هذا بحضور الرّاقص الذي خصّته أمّ صباح طوالَ ليلتها بما خصّته من الرّعاية والاهتمام، بعد أن هيّأت له مجلسًا بالقرب منها بناءً على طلبها.

ها هي تبادلُه من نظراتها وتحنّو عليه بين الحين والحين بمعسول الكلام، تطمئنّ على أحوالِه وصحّته وآخر أخباره وأشغالِه... وغير ذلك من سؤالاتِ المحبّين...

ثمّ تطمئنّ أمّ صباح لانصراف القوم من المكان بعد أن غادرت أسرابُهم السامر، فتشير لأحدِ صبيانها أنْ يخبر السّائقَ بأنّ موعد المغادرة قد أزف، وعليه أن يجهّز عربته سريعًا؛ فالستّ مُرهقة.

ثمّ تميل هامسةً في أذن جليسِها المتيّم، وتسرّ فيها ما يضحكه، وتنفرج معه أساريرُ وجهه، ثمّ تقذفُه بمنديلها الورديّ المعطر، يتلقّفه كما يتلقّف المريض الدواء، على عجل يمرّره من فوق أنفِه مرّات سريعة، وقد أغمض عينيه يستنشق عبيرَه، ويغيب عن الوعي قليلا قبل أن يأتي السّائق ليوقظه بصوتِه العالي الأجشّ: العربيّة جاهزة يا ستّ الكلّ.

هناك في ركنٍ من المكان يجلس بعضُ شباب القرية يتسكّع علّه يظفر بآخر نظرات من أمّ صباح قبل أن تنصرف وتبتلعه الحياة وهمومُها بعد ذلك.. تتوجّه المرأة إليهم بالتحية شاكرةً حضورَهم، متمنيةً لهم ليلة سعيدة...

تمضي العربة بها وفرقتها.. ينصرف كلٌّ واحدٍ إلى بيته من بقايا الحفل وعشّاق السّهر، يمنّي نفسه المرّة القادمة بنيْل حظوة أمّ صباح، ولا ينسى مع ذلك توبيخَ نفسه على حرصِها وبخلها الذي حالَ بين أن يكون مِن نجوم الحفل الساهر، وينال ما نال غيرُه قربًا من أمّ صباح...

لكنّ خلقًا غيرَ الخلق ظلّوا في المكان، لا يشعرُ بهم أهلُ السامر ربّما لصغر سنّهم، ربّما..

ربّما لا يرعوهم من عنايتهم إلا لدغات عصيّهم التي تكوي جلودهم ولحومهم لعدم تقيّدهم النظام، وفوضاهم العارمة بين الزّحام، إنّهم الصبية الصغار يتشتّتوا بين دروب القرية وأزقّتها الضيقة وطرقاتها المظلمة، يحمل كلٌّ منهم مِن الأمنيات الشيءَ الكثير، أن يكبر.. أنْ يصبح رجلا يافعًا، شابًّا فتيًّا، فيكون من فرسان هذه الليالي، ويصبح مِن راقصي حفلات أمّ صباح يتبعها أيْنما تذهب، يعمدُ البعض منتشيًا إلى ترديد بعض أغاني أمّ صباح بصوتٍ عال، ونغماتٍ كاملة بين البيوت الموصدة، والبعض يتراقص وقد قلّد الكبار، وقد أمسك بيده عصا من بوص الدّرة، أو ساق عبّاد الشمس، أو حتى جريدة نخل، وتستمرّ وصْلاتهم إلى أنْ تباغتهم سيولُ السّباب والشّتائم من أصحاب الدور، أنْ يرحلوا وإلا فلنْ يسلموا من الأذى....

لا تتوقف أحلام أولئك الصّغار عند هذا الحدّ، فليست الدروب وحدَها مكانها، لكن لأحلامهم الصغيرة نصيبٌ منها..

غيرَ أنّه لا فكاكَ في الأخير من نداءات الأهل، وفي أحيان ما عصيّهم ولدغات أصابعهم، توقظهم من هذه الأحلام على عجل، معلنةً بزوغ شمس النهار، وعلوّها العلوّ الذي أذِن فعليهم أنْ ينسابوا إلى الحقول من خلف مواشيهم، يسوقوا أغنامَهم ويمتطوا ظهورَ دوابّهم.

وتبدأ القرية يومًا جديدًا من أيّامها الطوال، وحديث لا ينقطع عن أمّ صباح وليلتِها بين الحقول، وفي الطرقات، وعلى أسطح البيوت.

المؤلف في سطور

الاسم : محمد فيض خالد

الجنسية : مصري

مكان الميلاد : محافظة المنيا

تاريخ الميلاد:١/١/١٩٧٨م

البريد الاليكتروني: Mjawad١٢٠@gmail.com

المؤهلات العلمية

ليسانس دار العلوم ١٩٩٩م

الخبرات العملية

محرر صحفي ، كاتب وروائي

الإنتاج الأدبي

رواية الأفندي (حكاية ريفية) دار البشير للثقافة والعلوم

رواية نوجا (صدى قلب) منصة كتبنا

رواية (المحتال) الهيئة المصرية العامة للكتاب

رواية (الدفينة) دار وادي عبقر للطباعة والنشر والتوزيع

تحت الطبع

رواية سبع الليل

رواية أحلام من الجنوب

•العديد من المقالات الأدبية بالصحف والمواقع الأدبية والإخبارية

الفهرس

بطاقة الكتاب ٢

الإهداء ٣

الليلةُ الكبيرة ٥

الرّاقص مع الدّجاج ٢٥

غريق ٤٢

صرخة ٥١

متاعب مدرسية ٥٨

ذات صباح ٧٦

الدّاية ٨٦

السّوق ١٠٠

أمّ صباح ١١٦

المؤلف في سطور ١٣٩

الفهرس ١٤٠